سيد العروش

عنـوان الكتـاب: سـيد العـروش
الموضـوع: روايـة
التـأليـف: إسـلام محمـود يوسـف
مراجعـة لغويـة: اسـكرايب للنشـر والتوزيـع
الإخـراج الفنـيّ: عمـرو سـالم سـواح
تصـميم الغـلاف: رشـا أحمـد
رقـم الإيـداع: ١٤٦١١ /٢٠١٩
التـرقيم الـدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٦٦٤٣-٦٧-٣
الناشر : المثقفون العرب بالتعاون مع اسكرايب للنشر والتوزيع
اسكرايب للنشر والتوزيع :Facebook Page
Email:scribe20199@gmail.com
Tel: 00201005079256

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة © لدار
اسكرايب للنشر والتوزيع

كل الحقوق محفوظة
لا يحق لأي جهة طبع أو نسخ أو بيع هذه المادة بأي شكل من الأشكال ومن يفعل ذلك يعرض نفسه للمساءلة القانونية

رواية

سيد العروش

إسلام محمود يوسف

إلى الحاضريه الغائبين.. أبي ، أمي

سلاما لأرواحكم الطاهرة وعلى موعد

بلقاء قريب

إلي نبضه القلب ونور العين

طفلتَي الجميلتَين .ملك ، فرح

مُقَدِّمَة

بقلم الأستاذ / رضا إمام

(سيد العروش) أو الدراما الحريفة للوجود في فترة من فترات تاريخ مصر الفرعوني العظيم، وحيث فضاء الرواية متسع لجميع المتناقضات من حب وكره .. قوة وضعف .. وفاء وخيانة .. شجاعة وجبن .. اقدام وتراجع ، إلا من "تحتمس" "سيد العروش" ، فلم يتراجع أبدا عن تحيقيق حلمه ، رغم كل الأهوال التي كانت تسيجه ، منذرة بضياع كل شئ . وفقدان ملكه وعرشه وخسارة جيشه وشعبه ، إلا أن لم يتراجع أبدا عن تكملة ما كان يصبوا اليه ، وتصميمة علي فتح مجدو أهم وأكثر القلاع الحصينة .

هنا يقفز السؤال المحير : هل وقر في وعي تحتمس الثالث خلاصة الثلاثية المستحيلة : الإصرار ، الثبات ، الإيمان ؟!.

هذا ما تحاول أن تجيب عنه الرواية في زمن سردي بليغ (خمسة عشر فصلا) . يسأل "تحوت" سيد السماء الفرعون "تحتمس"

- لماذا كل هذا الاصرار والعناد يا "تحتمس" ؟!.

فيجيبه " تحتمس " بكل ثقة وهدوء .

- لأن لدي حلم أريد تحقيقه ..

واذا بـ " تحوت" يقف في منتصف المسافة ، وكأنه ضمنيا يجاهد في أن يجد له مبررا ، فيقول :

- لا أحد يستعصي علي الزمان ، لكي تندفع عجلة الزمان للأمام لابد وأن يأتي في كل عصر من بين بني البشر من هم أمثالك ، فمع كل زمان يتواجد رجال لا يشبهون زمانهم ، هؤلاء هم من يفجرون الفيضان ليأتي بالجديد .

علينا إذن أن تتبع معمار هذا الفضاء الروائي من حيث عدة أزمنة وعدة أمكنة فأولاها هو زمان ومكان الباحثة "جيسيكا" الناطقة الرسمية للسرد ، فالمكان هو "القاهرة" والزمن هو فجر ٢٦ مارس ٢٠١٥ م . وحتي نهاية اليوم ، أي زمنها يوم واحد . وكذا تتبع مراحل تحقيق حلم الفرعون المصري الآهاب "تحتمس الثالث" ليس في تأديب العصاه ولكن إمتلاك والسيطرة علي كل البقاع المحيطة لتترامي أطراف مملكته بلا نهاية .

يأتي ذلك عبر عدة أزمنة بدأت من حوالي (١٤٠٣ ق . م) وحتي (١٤٥٧ ق . م) وكذا عدة أمكنة (صيبة – صور – دومفكات – عرونا – مجدو ..) .

ثم يجئ (الإنشاء الروائي) لينضح بالمصرية الخالصة من خلال الإحاطة البيئية / الإجتماعية وكذا الإحاطة الروحية من حيث لواعج النفوس وسبر أغوارها ورصد سماتها من قوة وشجاعة وتصميم ، لرقة ملائكية متناهية والفتاة الرائعة "سات" مندوبة "تحوت" سيد السماء ، إلي شجاعة وصلابة القادة إلي لؤم وشراهة الكهنة إلي الحكمة المتمثلة في الطبيب "تيموس" إلي نقاء السريرة وطهارة الوجدان في "حور" .

متعة الحكي كانت هي المقود الرهيف عبر مسالك الحبكة الروائية ، من خلال سرد كان موحيا وملما إلي حد كبير بجماليات هذا الفن الرائع، من وصف وإسترجاع وإستقدام ، من الإنتقال بيسر بين ما هو موضوعي وما هو تخيلي ، من صلابة واقع فج لنعومة أحاسيس ومشاعر، من تكثيف وتقطير لتأطير الحكمة ، لاستفاضة تفاصيل تسعي بالمشهد لكماله وإكتماله . وقد وصلت بعض المقاطع وبلغت لغة شعرية

من حيث الأصالة والمجاز ، منها علي سبيل المثال لا الحصر- حديث "تيتا" صديق "حور" وهو يتحدث عن حياته وفلسفتة في الحياة وعن سر إبتسامته السرمدية رغم ظروفه الحياتيه القاهرة .

ولا تقف أهمية الرواية عند الفنيات والتقنيات ولكنها بالتأكيد في مواضع مختلفة تكسب القارئ بمعرفة ربما تكون جديدة عليه (مفردات صناعة الكتان مثلا) إضافة إلي أنها حينما تغوص في أعماق الماضي السحيق لم يكن هدفها تصويره بإتقان وفنيه عاليه فقط ، ولكن لكي تسحب هذه القيم إلي الحاضر الآني وأخذ العظات والحكم كي ما تستنهض بها الهمم كيما تؤطر الهوية المصرية التي اهترأت وشوهت ، فهاهم الأجداد العظام –وإن اختلفت معهم- هاهم وكيف كانوا منذ آلاف السنين ، كيف كانت الهمم العبقرية والمقاصد النبيلة بدلا من هذا التخاذل والهوان الذي أصاب الأحفاد .

وأخيرا ، فإننا نستطيع القول بأن الرواية كان هدفها التأكيد علي قيمة انه في سبيل تحقيق حلم ما لابد لنا من أن نخسر- أشياء مهمة ، نخسر البراءة المتمثلة في "سات" ونخسر أيضا العاطفة الصادقة المتمثلة

في "حور" ولا يبقي سوي العقل المتقد لـ"تحتمس" المشتعل بحماس تحقيق الرؤية والوصول إلي الهدف المستحيل ، لينزوي –في النهاية– هذا العقل بلا حبيب بلا قلب . ليظل حبيسا وحده وسط بقايا الإعصار بين حطام وجثث وضحايا .. صرخات وإستغاثات وآنات ورائحة دم متخثر تملأ عليه الفضاء . ليظل السؤال : هل هو قدر الخروج عن الناموس ؟! ربما ، وربما هي محاولة للوصول إلي أبعد نقطة وجودية خارج نطاق جاذبية الممكن . ربما .

وربما نجتهد في الخاتمة ونقول :

هل مست الثلاثية المستحيلة : الإصرار .. الثبات .. الإيمان . روح الكاتب ، فأكمل هذه الرواية الجيدة .. آخذا خطوات جريئة ومثابرة نحو تحقيق حلمه هو ؟! ربما .

رضا إمام

الناقد والأديب الكبير

-١-

•القاهرة : فجر ٢٦ مارس ٢٠١٥.

"ميتٌ هو من يتخلى عن مشروعٍ قبل أن يهمَّ به، ميتٌ من يخشى أن يطرحَ الأسئلةَ حولَ المواضيعِ التي يجهلُها. ومن لا يجيب عندما يُسأل عن أمرٍ يعرفه، ميتٌ من يجتنب الشغفَ ولا يجازف باليقينِ في سبيلِ اللا يقينِ؛ من أجلِ أن يطاردَ أحدَ أحلامِه.

نزلت كلماتُ "بابلو نيرودا"على عقلِ جييسيكا" كقطراتِ الكحولِ عندما تلامس جرحًا قطعيًا غائرًا أحدثَ تهتُّكًا في الأنسجة.

وبحركةٍ فيها الكثيرُ من الغضبِ والتشنُّجِ ألقت "جيسيكا" بالكتابِ الذي حاولتْ أن تقتلَ به ساعاتِ الليلِ التي تتحركُ عقاربُه كسلحفاةٍ تَجاوزَ عمرُها الثلاثةَ مائةِ عامًا.

ظلت الكلماتُ تُلحُّ علي عقلِها كشحَّاذٍ..! تدافعتِ الأسئلةُ إلى عقلِها مرةً واحدةً مما زاد الضغطَ على أعصابِها، هل هي حقًّا من الأمواتِ الذين يقصدهم "بابلو نيرودا"..؟ كيف تكون منهم وهي لم تتخلَ عن مشروعِها، بل أصرَّت على المُضيِّ فيه قدمًا ولم تدخرْ من أجلِه الجهدَ والعرقَ طوالَ الثلاثةِ أعوامٍ الأخيرةِ كاملةً..؟ كيف تكون منهم وهي لم تخشَ يومًا من طرحِ الأسئلةِ، بل إنها كانت طوالَ عمرِها في حالةِ بحثٍ دائمٍ عن إجابةٍ لكلِّ

سؤالٍ وكأنها لبؤةٌ هائمةٌ في البراري الهنديةِ بحثًا عن فريسةٍ لِتُطعمَ بها صغارها..؟.

هل هي حقًّا تجنبتِ الشغفَ والمجازفةَ..؟ كيف وهي التي وضعتْ نفسَها على متنِ زورقِ الشغفِ وانطلقتْ به في غمارِ بحرِ المجهولِ دونَ أدنى تردُّدٍ..؟ كيف وهي التي جلست تُطوّحُ قدميها بعد أن اعتلت قمة جبلِ المجازفةِ بلا ترددٍ أو خوفٍ..؟.

حاولت "جيسيكا" أن توقَف هذا الهجومَ الوحشيَّ على عقلِها. فهرعتْ نحوَ شُرفةِ حجرتِها القابعةِ في الدورِ الثامنِ بفندقِ"هيلتون رمسيس" في منطقةِ وسطِ القاهرة، تلك العاصمةُ التي احتارت "جيسيكا" في أمرِها؛ فهي لم تكره مدينةً زارتها من قبل مثلَ كراهيتِها لهذه المدينةِ، وفي الوقتِ نفسِه لم تقع في غرامِ مكانٍ مثلما وقعت في غرامِ القاهرة..!.

وقفت "جيسيكا" وهي تُلقي نظرةَ الوداعِ الأخيرةِ علي محبوبتِها وعدوَّتِها، فما هي إلا ساعاتٌ قليلةٌ وتضع نفسَها علي متنِ الطائرةِ عائدةً إلى "وستمنستر" بعد غيابٍ دامَ لثلاثةِ أعوامٍ كاملةٍ قضتْها على رأسِ إحدى البعثاتِ البريطانيةِ التي جاءت للبحثِ والتنقيبِ عن الآثارِ الفرعونية.

الأمرُ شتَّانَ بين "جيسيكا" التي جاءت لأولِ مرةٍ إلى مصرَ في الرُّبعِ الأولِ من شهرِ مايو من العام ١٩٩٣ مملوءَةً بالحماسِ مشحونةً بوقودٍ من الأملِ القادرِ على إيصالِ مركبةٍ فضائيةٍ سيكون المريخُ محطتَها الأولى وبين "جيسيكا" الآن..! ولكنْ هي المُخطئةُ، هي التي تتحمل تبعاتِ ما آلت إليه

الأمورُ.. لِمَ كان كلُّ هذا الأملِ وتلك الحماسةِ..؟! ألم توصِها العالمةُ الفرنسيةُ الكبيرةُ "كريستيان ديروش نوبلكور" " Christiane Desroches Noblecourt "عندما جاءت متدربةً تعمل معها منذ خمسةَ عشرَ عامًاعندما وطَأت قدماها لأوَّلِ مرةٍ مصرَ أرضِ الكنوزِ الغامضةِ والألغازِ المحيرةِ مُحذِّرةً إياها أنَّ البحثَ والتنقيبَ عن الأثارِ ماهو إلا كالبحثِ عن كوكبٍ مأهولٍ بالحياةِ في مجرةِ دربِ التبانةِ..!

إذن: فلماذا لم تعملْ بنصيحتِها وألقت بها خلفَ ظهرِها..؟ بل إنها تذكر جيِّدًا كيف استقبلت تلك النصيحةَ بابتسامةٍ سخريةٍ، وكيف أخبرتها أنها علي يقينٍ بأنها ستحقق من الإنجازِ ما يتضاءلُ بجوارِه ما حققه "هوارد كارتر" مكتشفُ مقبرةِ "توت عنخ أمون" و "جورج لوجران" رجل "الكرنك" الأول بامتيازٍ الذي اكتشف خبيئةَ الكرنك وأسرارَ معبدِ "رع". وعندما سألتها بروفسيرة "ديروش" ما سرُّ هذا اليقينِ..؟ أجابت بثقةٍ بل بغرورٍ أحمقَ: أنها ستعرف السرَّ عندما تتصدَّرُ اكتشافاتُها أغلفةَ "التايمز " و"التليجراف" وعندما يُوضع اسمُها كواحدةٍ من أعظمِ المُستكشِفاتِ لتلك الحضارةِ التي تُشبه جبلَ الثلجِ في المحيطِ المتجمدِ الجنوبيّ..! ما يَظهر منه لا يتعدَّى الخُمسَ أمَّا القابعَ تحتَ الماءِ؛ فهو الأربعةُ أخماسٍ الباقيةُ.

لم يخطر ببالِ"جيسيكا" أبدًا أن رحلةَ البحثِ والتنقيبِ التي قادت هي دفَّتَها خلالَ السنواتِ الأخيرةِ سترسو بها في النهايةِ بعد جهدٍ وعملٍ دؤوبٍ وأبحاثٍ متواصلةٍ في إحدى مدنِ محافظةِ "الغربية" والتي تُسمَّي حاليًا "صا الحجر" تلك المدينةُ المصريةُ القديمةُ التي يرجع تاريخُها إلى أكثرَ من ٤ آلافِ

عامٍ؛ حيث كانت تلك المدينةُ عاصمةَ المملكةِ المصريةِ أثناءَ فترةِ حكمِ الأسرةِ السادسةِ والعشرين والسابعةِ والعشرين، وبها العديدُ من الاكتشافاتِ. ولكن "جيسيكا" كانت على يقينٍ أنَّ تلك الكنوزَ الدفينةَ لم تبُحْ بكاملِ أسرارِها بعدُ.. وأنَّ ما تمَّ اكتشافُه إلى الآن لا يُقارنُ بما يزال مطمورًا في باطنِ الأرضِ. رسمت "جيسيكا" في مخيلتِها أحلامًا عريضةً حيث أضواءُ الكاميراتِ مُسلَّطةٌ عليها وحشودُ وكالاتِ الأنباءِ تتدافعُ كالنملِ، والمحطاتُ الفضائيةُ تتسابق؛ لتحجزَ مكانًا لها على المِنصَّةِ الرئيسيةِ التي ستقف أمامها مُعلنةً للعالمِ أجمعَ بصفتِها رئيسةَ البعثةِ الأثريةِ التي يرجع إليها الفضلُ- كل الفضل - في اكتشافِ وادي ملوكٍ جديدٍ في "الدلتا". لم تكن تتخيلُ أو يخطرُ في بالِها على الإطلاقِ أنَّ وادي الملوكِ الجديدِ الذي حلمت أن تكونَ هي مكتشفتَه لن يكونَ في النهايةِ سوى مقبرةٍ لا يوجدُ بها غيرُ تابوتٍ خشبيٍّ بداخلِه مومياءُ شِبهُ متحللةٍ، ولا يوجد في المقبرةِ مع تلك المومياءِ المجهولةِ إلا آنيةٌ فخاريةٌ دائريةُ الشكلِ وبداخلِها مجموعةٌ من اللفائفِ على الأرجحِ ما هي إلا إحدى النُّسخِ الكثيرةِ من كتابِ الموتى.

- **القاهرةُ : نهارَ ٢٦ مارس ٢٠١٥.**

مع دقاتِ السابعةِ خرجت "جيسيكا" من الفندقِ متوجِّهةً إلى المتحفِ المصريِّ لتُلقِيَ نظرةً علي لفائفِ البرديِّ التي تمَّ اكتشافُها مع تلك المومياءِ المجهولةِ؛ لِتقدِّمَ تقريرَها النهائيَّ عن مهمتِها لهيئةِ الآثارِ المصريةِ، ثم تعود بعدها إلى الفندقِ لتحزمَ حقائبَها، ومنه إلى المطارِ حيثُ ستقلع رحلتُها في السادسةِ من مساءِ هذا اليومِ.. كانت رحلةُ الذهابِ من الفندقِ الذي تُقيمُ فيه إلى المتحفِ المصريِّ لا تستغرقُ سوى ثلاثِ أو أربعِ دقائقَ علي أكثرِ تقديرٍ، ولكنَّها كانت بالنسبةِ لها قرصًا مكثَّفًا من الرعبِ..! فهي تقف ما لا يقلُّ عن خمسةَ عشرَ أو عشرين دقيقةً في انتظارِ الحظِّ أن يبتسمَ في وجهِها ويخلو الطريقُ من السياراتِ لثوانٍ لِتتمكَّنَ من العبورِ، وفي كلِّ مرةٍ تظنُّ أنَّ الحظَّ قد ابتسمَ لها تعود مسرعةً للخلفِ متفاديةً اصطدامَها المُحتَّمَ بسيارةٍ كانت تسير بسرعةٍ جنونيةٍ متجاوزةً إشارةَ المرورِ غيرَ عابئٍ قائدُها بأيِّ شيء على الطريقِ.. حقًا.. القيادةُ في مدينةٍ كالقاهرةِ هي بحقٍّ كالقيادةِ في مدينةِ ملاهٍ؛ فهي المدينةُ الوحيدةُ في العالمِ التي يُمسكُ فيها سائقوا السياراتِ بعجلةِ القيادةِ بيدٍ واليدُ الأخرى تُمسكُ بالـ"موبايل"؛ لِيُجري السائقُ مكالمةً أو يردُّ على محادثةٍ عبرَ"الواتسآب" أو "الماسنجر" أو يلعب على إحدى ألعابِ "الموبايل" التافهةِ لتتحولَ فكرةُ عبورِ الطريقِ لتحدٍّ مع الموت.

وأخيرًا إجتازت "جيسيكا" رحلتَها المعذبةَ تلك حتى وصلت إلى هدفِها، وبعد أنْ تخطَّتِ البابَ الرئيسيَّ للمتحفِ المصريِّ دلفتْ مسرعةً إلى الطابقِ

الأرضيّ لتكملَ مهمتَها الروتنيةَ الأخيرةَ التي أحسَّتْ من خلالِها أنها أمامَ عبءٍ ثقيلٍ؛ فهي ما زالت تحتَ تأثيرِ حلمِها الذي مات صريعًا والذي أطفَأَ شمعةَ رُوحِها المتألّقةِ.

وفي غيرِ مُبالاةٍ ومن دونِ اكتراثٍ فتحت "جيسيكا" الصندوقَ الخشبيَّ الذي وضعت بداخلِه اللفائفَ وكان أوَّلَ شيء حاولت إيجادَه هو اسمَ صاحبِ هذه اللفائفِ فقطعًا إن كانت هذه اللفائفُ هي كتابُ الموتى فستجد اسمَ صاحبِ هذه المقبرةِ مُدوَّنًا في هذه الأوراقِ وسريعًا ما وقعت عيناها علي الاسمِ؛ فأحسَّت "جيسيكا" بتنميلةٍ في يدِها أوقعت من بينِ أصابعِها القلمَ الكائنِ بينها..! وذلك عندما قرأتِ الاسمَ المُدوَّنَ علي البرديةِ؛ فقد كانت البرديةُ تحمل اسمَ "حور".

فانحنت "جيسيكا" لتلتقطَ القلمَ وأغمضت عينيها للحظاتٍ اختفت خلالها الرعشةُ وعاد إليها الهدوءُ؛ لتنتبَه إلى أنَّ تلك اللفائفَ ليست كما كانت تعتقدُ، فلم تكن هذه اللفائفُ هي كتابَ الموتى – أو جزءًا منه- أو كما يُعرف عند علماءِ المصرياتِ بكتابِ "فصولِ السيرِ في النهار" الذي كان يوضع مع الميتِ؛ ليرشدَه في رحلتِه إلى العالمِ الأبديّ. وأشهرُ كُتُبِ الموتى موجودٌ لديها في المتحفِ البريطانيّ، وهو كتابُ الموتى الخاصُّ بالكاتبِ "أني" وقد قرأَتْه أكثرَ من مرةٍ وقرأَتْ أيضًا معظمَ الدراساتِ التي نُشِرَت حولَه.

وقبل أنْ تبدأَ في إنهاءِ مهمتِها الأخيرةِ انتبهت على صوتِ جرسِ "الموبايل". وعندما وقعت عيناها علي اسمِ المتصلِ أحسَّتْ بوخزٍ شديدٍ أصابَ كرامتَها الجريحةَ بمزيدٍ من الآلامِ؛ فقد كان الطرفُ الآخرُ الذي

ينتظر الإجابةَ هو "مارك" الصغيرَ ابن شقيقتِها الوحيدةِ وقطعًا علمَ من أمِّهِ بأنَّ خالتَه المحبوبةَ والتي تُعتبرُ مَثَلَه الأعلَى- فهي من وجهةِ نظره تُمثِّلُ له "ريتشل وايز"Rachel Weisz الممثلةَ البريطانيةَ المعروفةَ بَطَلَةَ فيلمِ "المومياء" – ستعودُ إلى الوطنِ مُحمَّلةً بعبقِ سحرِ الشرقِ، فهو ينتظر عودتَها من أرضِ الفراعنةِ واللعناتِ السحريةِ بفارغِ الصبرِ؛ لتقصَّ عليه حكاياتِها ومغامراتِها مع المومياءِ الشريرةِ التي تريد أن تسلبَها حياتَها لتسيطرَ علي العالمِ..! وكيف أنها استطاعت بفضلِ إجادتِها للغةِ "الهيروغلوفية" فكَّ الطلاسمِ وإبطالَ تعاويذِ تلك المومياءِ؛ فابتسمت "جيسيكا" في مرارةٍ وكأنها تُحدِّثُ "مارك" الصغيرَ:

• آآآه.. لقد وقعتُ فريسةً لسرابِ الأحلامِ الشريرةِ يا "مارك" وإنَّ نهايةَ فيلمِ بطلتِك المفضلةِ كانت بصحبةِ مومياءَ خرقاءَ باليةٍ ليس وراءها أيُّ حكايةٍ أو مغامرةٍ أستطيع أنْ أقصَّها عليك يا صغيري..

ثم توقَّفَ جرسُ هاتفِها عن الرنينِ، وبحركةٍ فيها كثيرٌ من التشنُّجِ والعصبيةِ جذبت "جيسيكا" الكرسيَّ الخشبيَّ وأخذت مكانَها خلفَ المكتبِ الصغيرِ الموجودِ في الطابقِ الأرضيِّ للمتحفِ المصريِّ؛ لتقرأَ علي مهلٍ ما هو مكتوبٌ وما فحوى تلك البرديةِ التي بين يديها.

فبدأَ يتسرَّبُ إليها -ودون إرادةٍ أو رغبةٍ منها- شعورٌ خفيٌّ لا تعرف مصدرَه إنها أمام برديةٍ غيرِ اعتياديةٍ تحوي شيئًا غايةً في الأهميةِ والخطورةِ.. فقفز في عقلِها سؤالٌ مفاجئٌ: ما هو سرُّ هذا الشعورِ بالأهميةِ والخطورةِ..؟!

أحسَّت أنَّ"مدام كريستيان ديروش"قد بُعِثَتْ من قبرِها وهي من تقف أمامَها وتطرح عليها هذا السؤالَ ساخرةً؛ لأنها دائمًا ما تقفز إلى النتائجِ قبل أوانِها، أو أنها تُحاول أن تُعطيَ الأمرَ أكثرَ مما يستحقُّ؛ لتخلقَ في مخيلتِها شيئًا يستحقُّ أن ترويَه لِـ"مارك" عندما يسألها عن اكتشافاتِها؛ فهي ما زالت غيرُ مُصدِّقةٍ أنها ستعود خاليةَ الوفاضِ دون أيّ شيء يُذكرُ علي الإطلاقِ..! حاولت جاهدةً ألا تتورَّطَ في سجالٍ بين الوعيِ واللا وعيِ، وقررت أن لَّا تتعدى حدودَ ما بين يديها من أوراقِ البرديّ لتبدأَ في القراءةِ المتأنية..

-٢-

- **طيبة : ١٤٢٥ قبل الميلاد.**

ها أنا ذا أقف أمامَه مرةً أخرى بعد اثنينِ وعشرين عامًا مضت منذُ آخر لقاءٍ بيننا بعد انتهاءِ العرضِ الأسطوريّ الذي أقامه للشعبِ؛ ليشهدوا غنائمَ مَلِكِهم المُظفَّرِ من حربِه الطويلةِ ضد الممالكِ السبعةِ المتمردةِ بزعامةِ "ليوماس" ملك "قادش" وفي الطريقِ الطويلِ الممتدِ ما بين أسوارِ "طِيبةَ" والقصرِ الفرعونيّ وقفت جحافل أبناء وادي النيل في مشهدٍ مهيبٍ تئن الأرضُ عن حملِهم وتلهب أنفاسُهم الحارةُ من فرطِ الحماسِ وشدةِ الفرحِ وجوهَنَا.. جاءُوا من كلّ المقاطعاتِ الاثنينِ والأربعين من مقاطعاتِ المملكةِ المصريةِ أو الإمبراطوريةِ المصريةِ التي وضعَ "تحتمس" أولَ لَبِنَاتِها لتصبحَ مصرَ الآن..! ولأولِ مرةٍ في تاريخِها الممتدِ منذُ آلافِ السنينَ تصيرُ إمبراطوريةً وليست مجرَّدَ مملكةٍ.. وقفوا يحبسون الأنفاسَ يتطلَّعون بشغفٍ إلى الموكبِ العظيمِ الذي يتقدَّمُه الفرعونُ المنتصرُ.. الفرعونُ الذي قادَ جيشَه في واحدةٍ من أعظمِ وأهمِّ الحروبِ في التاريخِ المصريّ كلِّه.. الفرعونُ الشابُّ "تحتمس" الثالثُ الذي كان يقفُ شامخًا علي عجلتِه الحربيةِ كأنَّه "رع" يقفُ في مركبِ "آلافِ السنينَ" وخلفَه الأسلابُ التي استولى عليها من "مجدو" مدينةِ الحصونِ التي لا تُقهرُ.. مدينةِ المستحيلِ؛ غيرَ أنَّ هذا المستحيلَ قد انهارَ تحتَ أقدامِ "تحتمس" رجلِ الأحلامِ البعيدةِ..! وها هو يسير على رأسِ موكبِه العظيمِ يستعرض غنائمَه والتي كانت تَضمُّ: ثلاثةَ

آلافِ أسيرٍ، ومثلَهم أيادٍ مقطوعةً - فلقد كانت تُقطعُ أيادي الجُندِ القتلى؛ لتكونَ ضميمةً إلى الأسرَى - وألفين وواحدًا وأربعين فرسًا، وتسعين مُهرًا، وستًّا وعشرين عجلةً حربيةً مغطاةً بالذهبِ من ذواتِ القُضبانِ الفضِّيةِ، وثمانمائةٍ واثنتين وتسعين عربةً من عرباتِ الجيشِ المهزومِ، وأكثرَ من مائتي دِرعٍ، وخمسمائةِ قوسٍ، واستولى جلالتُه علي شتَّي أنواعِ الحيوانِ من المدينةِ- منها ألفٌ وتسعمائةٍ من الحيواناتِ الكبيرةِ، وألفانِ من الحيواناتِ الصغيرةِ، هذا بالإضافةِ إلى الأطباقِ الذهبيةِ، وأقداحِ الشرابِ، والسكاكينِ، مما بلغ وزنُها سبعمائةٍ وأربعٍ وأربعين دينًا، إضافةً كذلك إلى الخواتمِ الذهبيةِ، والفضيةِ، وتماثيلَ من الفضةِ، وأخرى من الذهبِ، وعصا بوجهٍ بشريٍّ، وكراسيٍّ من العاجِ والأبنوسِ، وخشبِ الخروبِ، كلّها مغطاةٌ بالذهبِ، والأبنوسِ، ومرصَّعةٌ باللازورد.

❊ ❊ ❊

وبعد انتهاءِ العرضِ استأذنتُ في المثولِ بين يديه؛ فأنا لم أُطِقِ الانتظارَ أكثرَ من هذا وعزمت علي حسمِ مصيري، فوقفت في انتظارِ الإذنِ بالدخولِ علي الفرعونِ وقبل أن تهمَّ أحزاني وذكرياتي؛ لتأخذَني من أرضِ "طيبةَ" عائدةً بي إلى "مجدو" حتى جاءني الأمر بالمثولِ بين يدَي الفرعونِ فأفشلَ هذه الرحلةَ فحمدت الآلهةَ كثيرًا علي هذا الفشلِ، دخلت لممرِ الأعمدةِ الشاهقةِ اللا متناهيةِ الذي تشعر وأنت تسير فيه أنك تُحلِّقُ فوقَ الحياةِ بانطلاقٍ حُرًّا في السماءِ.. قادني بهوُ الأعمدةِ إلى قاعةِ الاستقبالِ العظيمةِ

حتى وصلتُ إلي قاعةِ العرشِ.. ذلك المكانُ الذي يموت فيه الموتُ علي عظمةِ أبديته..! أروقتُه الشاسعةُ ملونةٌ بألفِ لونٍ كأنها غابةٌ من الألوانِ.. أعمدتُها ضخمةٌ مهيبةٌ تدفع للحلمِ بالأبدية والخلودِ.. كانت تمتزج فيها العظمةُ والجمالُ بطريقةٍ جليةٍ مبهرةٍ.. تقدمتُ حتى انتهى بي المطافُ أمامه وهو جالسٌ على عرشِه الذهبيّ الذي ازدهر بأقصى درجاتِ الطاقةِ والعنفوانِ متوهّجًا بالعظمةِ مثل "أوزوريس" علي عرشِه السماويّ وأمامه تقفُ حاشيتُه جميعُها.. قادةُ الجيوشِ، والوزيرُ الأولُ "آوسر آمون" حاملُ الأختامِ الملكيةِ، ووزيرُ الجنوبِ، ووزيرُ الشمالِ، وبجوارِهم الكاتبُ الملكيُّ الذي كانت مهمتُه كتابةَ كلّ ما يصدرُ من أوامرَ من الفرعونِ، وخلفَه مباشرةً كان يقف "كن آمون" كبيرُ كهنةِ "آمون" بقامتِه القصيرةِ ورأسِه الحليقِ وعينيه الخارجتينِ من مقلتيه كأنهما قرصٌ دوَّارٌ يجعلُه يرى الجهاتِ الأربعةَ في وقتٍ واحدٍ وبطنِه المتدلّي أمامه والذي لم تُفلح معه محاولتُه في إخفائه بشدِّ نطاقِه الأبيضِ الذي كان يلفُّ به خصرَه لدرجةٍ جعلت كُتلَ اللحمِ تبرزُ من جوانبِه..! وقف "كن-آمون" علي أطرافِ أصابعِه في انتظارِ الأوامرِ الملكيةِ التي ستصدر من الفرعونِ؛ ليعرفَ نصيبَ معابدِ إلهِهِ "آمون" من غنائمِ تلك الحربِ التي وقف فيها "آمون" في سفينتِه المقدسةِ كما يدَّعي هذا الثعلبُ في صفِّ الفرعونِ "تحتمس" حتى كتبَ له النصرَ علي الأعداءِ - عجيبٌ أمرُ هؤلاء الكهنةِ.. إنهم يكذبون كما يتنفسون- وبعد لحظاتٍ أشار الفرعونُ لوزيرِه، فتوقف عن الكلامِ وسادَ القاعةَ صمتٌ مطبقٌ وها هو ينظر إلى مباشرةً.. وكانت لنظرتِه قوةٌ ثاقبةٌ لدرجةٍ تجعل الواقفَ أمامه مجبرًا علي إشاحةِ بصرِه بعيدًا عنه، ولكنني في تلك اللحظةِ بادلتُه النظراتِ

نفسَها بشكلٍ جريءٍ؛ فأنا أعرفُ تمامًا تلك الطاقةَ الهائلةَ التي تُشعُّ من عينيه؛ فهو يرى كلَّ شيءٍ ويعلمُ ما أحملُه بداخلي وأني لم أكذبْ عليه قطُّ - الكذَّابون وغير الحقيقيين وحسبُ هم من يجب عليهم أن يخشوا نظراتِه الكاشفةَ - وفي تلك اللحظةِ وقف الفرعونُ ونزل عن كرسيِّ العرشِ وخلفَه تحرَّك أسدُه المهيبُ الوقورُ الذي لم يكنْ مجردَ أسدٍ..! فلقد كان صديقَه المقربَ وحارسَه الشخصيَّ، وتوجَّه "تحتمس" نحوَ صندوقِ الجواهرِ الذي يحملُه رئيسُ البيتِ الملكيّ؛ ليُخرجَ منه أجملَ وأبدعَ جوهرةٍ وأمسك بها وتوجَّه بها ناحيتي ووضعها علي صدري قائلًا :

• تلك الجوهرةُ ليست عطيَّةَ الملكِ لأحدِ أبناءِ شعبِه، ولكنَّها هديةٌ من صديقٍ لصديقِه، أرجو أن تقبلَها..

فأنحيتُ مُقبِّلًا الأرضَ بين يديه وأومأتُ برأسي امتنانًا لهديتِه ثم تحدثت:

• ليأذنْ لي مولاي بالموافقةِ على العودةِ إلى "صاو" مدينتي ومسقطِ رأسي.

فنظر إلى مباشرةً، كانت تلك العينانِ البنيَّتانِ داكنتا اللونِ الحارَّتانِ اللتانِ تجمعانِ بين الأحمرِ والأسودِ عينين ممتلئتين بالنضارةِ الأبديةِ، كانتا عينين عميقتينِ لا مستقر لهما، عميقتانِ بشكلٍ لا نهائيٍّ..! فعندما ينظرُ الإنسانُ في عيونِ البشرِ فإنه سوف يرى نهايةَ تلك العيونِ بكل سهولة، ولكنَّ عينَي "تحتمس" مختلفتانِ جدًا فهاتانِ العينانِ ليس لهما قاعٌ مطلقًا، وكان النظرُ إليهما يُشبه النظرَ إلى مرآتين لا شيء فرديٌّ أو ذاتيٌّ أو شخصيٌّ

في هاتينِ العينين.. لا شيء سوى عمقٍ لا نهائيٍّ حيثُ الخلودُ هو المُستَقَرُّ.. هزَّ رأسَه في هدوءٍ وانفرجت شفتيه عن ابتسامةٍ مواساةٍ..

• هذه هي حياتُنا بالكاملِ عبارةٌ عن حروب مخيفةٍ نُهزَمُ في بعضِها وننتصرُ في بعضِها الآخرِ.. وأنا أعلم أنَّ معركتَك مع الحزنِ لم يُكتب لك فيها الانتصارُ.. كم أُشفق عليكَ يا عزيزي.. ستظلُّ الآلامُ النابضةُ مغروسةً في قلبِكَ المفعمِ بالحزنِ، ورغم أني أودُّ بشدةٍ أن تبقى معي في "طيبةَ" إلا أني لن أمنعَك من العودةِ إلى "صاو" وإلى مغزلِك ونولِك ومعبودتِك "نيث" لعلَّكَ تجد في مذبحِها بقدسِ الأقداسِ ما تبحثُ عنه؛ ولْتهبْكَ القوةَ للنصرِ علي أحزنِك فهي الوحيدةُ القادرةُ على هذا؛ فهي الأمُّ الإلهيةُ لِـ"رع" الذي يُضيئُ في الأُفقِ والتي تُجددُ العالمَ على نولِها يوميًّا..

واستدار عائدًا إلى عرشِه يرافقُه أسدُه الجسورُ الذي جلس بوقارٍ عند قدميه، تراجعتُ خطوتين للخلفِ دونَ أن أُديرَ ظهري للفرعونِ كما تقضي التقاليدُ ولكنْ بعدَ خطوتين فقط التصقَتْ قدمي فجأةً بالأرضِ عندما ملأَ صوتُه الجهورُ القاعةَ قائلًا:

• حووور... "

غارتْ حواسّي في الأرضِ خوفًا من أن يكونَ قد تراجعَ عن قرارِه، فاستجمعتُ قوايَ التي انهارت دَفعةً واحدةً بفعلِ الخوفِ؛ فأنا لن أجرأَ على عصيانِ أوامرِه إن كان قد قرر التراجعَ عن السماحِ لي بالعودةِ إلى

بلدتي، وفي الوقتِ نفسِه لن أستطيعَ البقاءَ بجوارِه.. حاولتُ جاهدًا التماسكَ قائلًا:

- أمرَ مولاي..

فتهَّمل لِلحظاتٍ ليزيدَ من تمزُّقي أمامه قبل أن يتكلَّمَ :

- لديَّ طلبٌ أرجو أن تُنفِّذَه من أجلي يا صديقي..!

فأجبتُ محاولًا ألَّا أُظهِرَ أيَّ ارتباكٍ:

- أنا رهنُ إشارةِ مولاي الفرعونِ..

فقال:

- عاهدْنِي أنْ تُلبِّي النداءَ إن جاءَك رسولي يطرق بابَ بيتِك في يومٍ من الأيامِ.

قررتُ أن أحسمَ الأمرَ منذُ البدايةِ كي لا أُستدرَجَ إلى أيِّ شيء مرةً أخرى فكفاني ما حدث، فكلُّ ما مررتُ به تمَّ استدراجي إليه دونَ رغبةٍ مني فقلتُ محاولًا الضغطَ على الحروفِ كي تصلَه كلُّ كلمةٍ واضحةً لا لبسَ فيها ولا تأويلَ:

- مولايَ يعلم أني دائمًا رهنُ إشارتِه، ولكنَّه يعلم أيضًا أنَّ عودتي إلى هناك مرةً أخرى مستحيلةٌ..

وبابتسامةٍ تُخفي وراءها سرًا دفينًا أجابني :

• ربما تكون حاجتي لك في شيء أخطرَ من العودةِ إلى هناك، فالآلهةُ لم تبُحْ بعدُ بكلِّ ما تُخبِّئه لنا يا صانعَ الكتَّانِ ومحبوبَ أخرِ الأنقياءِ..

ورغم الألمِ الرهيبِ الذي أحدثه بداخلي عندما قال كلماتِه الأخيرةَ - فسقوطُ حجارةِ الأهرامِ فوقَ رأسي كان أهونَ عندي مما ذكرني به- إلا أنني تحاملتُ علي نفسي وأجبته:

• أُعاهدُك أن أكونَ رهنَ إشارةِ "ابنِ رع" سيدِ"طيبةَ "الثورِ القويِّ، العظيمِ بالقوةِ

• لتصحبْكَ السلامةُ إلى "صاو" يا صديقي، ولتعشْ هناك حياةً مديدةً رائقةً..

-٣-

- **صاو: ١٤٠٣ قبل الميلاد.**

ها قد باحت لنا الآلهةُ بما كانت تُخبّئُه لي.. جاءني رسولُه بعد كلِّ تلك السنواتِ وكما عاهدتُه أنْ أُلبّيَ النداءَ.. حملتُ نفسي دونَ ترددٍ أو انتظارٍ من "صاو" التي كانت عاصمةَ المقاطعةِ الخامسةِ من مقاطعاتِ الوجهِ البحريّ، قاصدًا "طيبةَ" في الجنوبِ، تلك التي لم أدخلْها منذُ أن غادرتُها منذ اثنينِ وعشرين عامًا، وقد تعمدتُ عدمَ الذهابِ إليها، ورغم محاولاتِ ابني "نارمر" الذي كان يُلِحُّ عليَّ ويضغطُ بكلِّ الطرقِ أن أرافقَه إلى هناك ولكنّي لم ألِنْ أبدًا ولم أستجِبْ لرغبتِه الصريحةِ ولرغبتي الدفينةِ في الذهابِ إلى "طيبةَ" مرةً أخرى، وكأنَّ الذهابَ إلى هناك سيفتح عليَّ أبوابًا من الأسى لا راحةَ فيها ولا رحمة، فالأفضلُ بالقطعِ أن تظلَّ مغلقةً وألَّا أقتربَ منها مطلقًا.

لم أجد أيَّ عناءٍ في إيجادِ وسيلةٍ للذهابِ إلى "طيبةَ" ففي الميناءِ يوميًا عشراتُ السفنِ تذهب إلى هناك وعلى الفورِ وضعتُ نفسي في قاربٍ كان يحملُ لفائفَ الكتّانِ الأبيضِ الفاخرِ لكهنةِ معبدِ "آمون"الكبيرِ في "طيبة".. حاولتُ بكلِّ ما أُوتيتُ من جهدٍ أن أتوقَّعَ ما هو السببُ الذي من أجلِه أرسلَ "تحتمس" في طلبي بعد كلِّ تلك السنواتِ..؟ ولا أنكرُ أني كنت أتحرَّقُ شوقًا لهذه الدعوةِ في أولِ عشرِ سنواتٍ، ولكنْ توالي السنينَ وعدمُ قدومِها أزاحها من دائرةِ الاهتمامِ والشغفِ حتى تدحرجتْ على مهلٍ إلى سلةِ

النسيانِ ومنها سقطت؛ لتستقر في بئرِ الذاكرةِ المظلم، فلقد وصلت إلى مرحلةٍ من اليقينِ أنَّ كلَّ ما حدث تحت أسوارِ"مجدو" قد أصبح نسيًا منسيًّا على الأقلِّ بالنسبةِ له، فَ"مجدو" كانت بالنسبةِ لي البدايةَ والنهايةَ، كانت هي تجربةُ العمرِ، أما بالنسبةِ لِـ"تحتمس" فلقد كانت تلك البدايةَ فقط؛ فهو لم يتوقفْ طوالَ العشرين عامًا التي قضاها على عرشِ مصرَ، فلقد فتحَ خلالَ تلك المدةِ ثلاثمائةٍ وخمسين مدينةً، وقهرَ الشرقَ من الفراتِ حتى "النوبةِ" في الجنوبِ خلالَ سبعَ عشرةَ حملةً قادها بنفسِه، ورغم أنَّ الموتَ خارجَ الأراضي المصريةِ من المؤكدِ أنه يعوقُ طلبَ الخلودَ إلَّا أنَّ رجلَ الأحلامِ البعيدةِ لم يكن يهابُ شيئًا على الإطلاقِ حتى ولو كان الموتِ.. أحسستُ بدوارٍ وكأني سقطتُ في حفرةٍ كبيرةٍ طافحةٍ برعبٍ غامضٍ لا تُفضى إلَّا إلى المجهولِ، فحاولتُ أن أُوقفَ ذلك الهجومَ الوحشيَّ على عقلي المسكونِ دائمًا بالدوارِ وأن أتركَ إجابةَ هذا السؤالِ الذي يأكلني علي مهلٍ حتى يحينَ وقتُه، حاولتُ أن أصرفَ انتباهي بعيدًا عن "تحتمس" وعن "مجدو" وعمَّا حدث هناك وأن أنشغلَ بحواراتِ البحارةِ العاملين على القاربِ وبكلامِ بعضِ المسافرين الذين كانوا معي، فترامَى إليَّ همسٌ يدورُ بين رجلٍ يبدو عليه أنه أحدُ كهنةِ "طيبة" رغم أنه كان يرتدي ثيابَ العامةِ، ولكنَّ رائحةَ بخورِ الصندلِ التي كانت تُستخدَمُ في معابدِ "آمون" كانت تفوح منه كاشفةً هُوَيَّتَهُ التي يحاولُ إخفاءَها وبين صاحبِ القاربِ.. يخبره فيه الكاهنُ بصوتٍ أقربُ ما يكون إلى فحيحِ ثعبانٍ خرج يتلمَّسُ فريستَه بلسانِه قبل أن يلتهِمَا.. فهمس له الكاهنُ بأنَّ الإلهَ "آمون" قد بات غاضبًا غضبًا

شديدًا على ابنِه "تحتمس" إنَّه نقلَ إليه رسالةً على لسانِ "كن-آمون" كبيرِ كهنتِه مفادُاها:

• إنَّ "آمون" الذي وقف على رأسِ سفينتِه المقدسةِ وأيَّدَ له النصرَ في "مجدو" لن يقبلَ من ابنِه الذي كان يحسَبُ أنَّه بارًا بأنْ يقتطعَ أيَّ جزءٍ من الأراضي المخصصةِ لمعابدِه من أجلِ بناءِ معابدَ للإلَه "رع"..

ساعتَها أيقنتُ أنَّ حربًا تنسجُ خيوطَها على نولِ الخيانةِ وتُعدُّ لها العدةَ من قِبَلِ ثعابينِ "آمون" ضد "تحتمس" فهذه الثعابينُ لا تخرج من جحورِها أبدًا ولا تبدأُ في نشرِ بذورِ التمرُّدِ إلا إذا امتدت يدٌ لتأخذَ منهم ما اكتسبوه باسمِ الإلَه ساعتَها تُزلزلُ مكائدُهم أعتى العروشِ حتى وإن كانَ عرشَ "تحتمس" الذي صنع ما لم يسمعْ به أبناءُ مصرَ على مدارِ تاريخِهم الطويل.

اللعنةُ على كهنةِ "آمون" إنهم جشعون لؤماءُ.. أُقسِمُ: ما هم بكهنةٍ، ولكنهم في الحقيقةِ لصوصٌ سارقي أقوات ، هل تناسَوا أنَّ من يُؤَلّبونَ عليه العامةَ الآن هو مَن جعل إلهِهم الخفيَّ هذا سيدَ آلهةِ مصرَ وهو من منحهم كلَّ شيء..! لقد تنازل لهم عن جزءٍ كبيرٍ من غنائمِ "مجدو" وعن عددٍ لا يُعدُّ ولا يُحصى من الأحجارِ الكريمةِ والذهبِ وأهداهم ألفَ رجلٍ وامرأةٍ من الأسرى الأسيويين من أجلِ إدارةِ هذه الثروةِ الضخمةِ، كلُّ شيء يُؤخذ باسمِ "آمون" ألفُ لعنةٍ تحلُّ عليهم، أُمهاتُ هؤلاءِ الكهنةِ زَنَتْ مع الأفاعي بكلِّ تأكيد.

تململتُ في مكاني من القاربِ وكأنَّ شيئًا يدفعني للقفزِ في الماءِ ليلتهمَني أحدُ التماسيحِ الجائعةِ التي لا تشبع أو - إن كُتِبَت ليَ النجاةُ- أعودُ إلى "صاو" وإلى نولي ومغزلي لأعيشَ هناك ما تبقَّى ليَ من أيامٍ أو شهورٍ أو سنواتٍ بعيدًا عن عفونةِ تلك الحياةِ، ولكني تذكرت أني قد قطعتُ عهدًا على نفسي أمامه أن أُلبِّي النداءَ إذا جاءني رسولُه يطرقُ بابي فاستسلمت للعهدِ وتركت نفسي تسبح مع تيارِ النهرِ الخالدِ ليأخذَني إلى وجهتي.

❊ ❊ ❊

- **طيبة : ١٤٠٣ قبل الميلاد.**

طيبةُ.. دارُ الحياةِ، درةُ الإمبراطوريةِ المصريةِ، مدينةُ الصولجانِ، كانت كبطلٍ سعيدٍ مزهوٍّ بانتصاراته، الأصواتُ القادمةُ من الميناءِ تُصِمُّ الآذانِ وتُحدثُ دويًّا أرَّقَ صداه أهلَ السماءِ، القواربُ المتراصَّةُ على شاطئِ الميناءِ القادمةُ من كلِّ بقاعِ الأرضِ تحجبُ النهرَ العظيمَ من كثرتِها وكأنها حشودٌ هائجةٌ تقف في انتظارِ الأمرِ بالهجومِ، حقًا: إذن ما سمعته عنها من ابني "نارمر" الذي لا ينفكُّ يحكي ويصفُها لي بأنها قد اقترن اسمُها في جنباتِ الأرضِ بمدينةِ الأعيادِ والمرحِ، تحركتُ مأخوذًا بما أرى، ما كلُّ هذه القصورِ..؟ وما كلُّ هذا الجمالِ الصارخِ البارزِ..؟ حقًا إنه رجلٌ مذهلٌ من يجعل عاصمةَ إمبراطوريتِه على هذه الصورةِ من التألقِ الفاتنِ.. كلُّ شيء مذهلٌ من طرقاتٍ، وأسواقٍ، وأبنيةٍ، ومعابدَ، وحدائقَ، حتى الناسُ في الشوارعِ يرتدون ملابسَ لم أرَها من قبلُ في "صاو" هل هؤلاءِ مصريون أم

من "كوش"..؟ أم "فينيقيون"..؟ أم من "قادش"..؟ أم أنهم جاءُوا من "بونت"..؟ تناوبتْ على أنفي العطورُ ما بين عطورٍ نديةٍ مثل أجسادِ الأطفالِ الرضعِ وأخرى متهتِّكةٍ وثالثةٍ خصبةٍ كالأرضِ العذراءِ والمفعمةِ بالاشتهاءِ.. حاولتُ جاهدًا الفرارَ فتناولتني الألوانُ وكأني وسطَ مهرجانٍ من الألوانِ لا نهايةَ له..! وتمايلت أمامي الأجسادُ كانت تلك الأجسادُ لنساءٍ يتحركنَ وثيابُهنَّ مفتوحةٌ وأثداؤهنَّ المتهدلةُ مكشوفةٌ وكأنها ثمارٌ طفحت من النضجِ، وضحكاتُهنَّ عذبةٌ مفعمة بالحرارةِ يتمايلنَ في مِشيَتِهِنَّ كالماءِ المنسابِ في الجداولِ يَروينَ الزهورَ الرهيفةَ، والرجالُ أجسادُهم نحيلةٌ، رشيقةٌ، قويةٌ، وأخرون منهم أجسادُهم ضامرةٌ، رخوةٌ، أو أصحابُ كروشٍ. أحسستُ أني وقعتُ وسطَ شيء باهرٍ، وليست تحتمل روحي هذه الدفقاتِ الهائلةَ (العبيرَ والأصواتَ والألوانَ) كان كلُّ شيءٍ حولي يصدح فرحًا واحتفالًا بالحياةِ فأسرعتُ الخُطى وأنا أتخبَّطُ يغمرني شعورٌ ببرودةٍ تغشى روحي كأني مخمورٌ قضَى كلَّ يومِه داخل حانةٍ تجرَّعَ بمفردِه كلَّ براميلِ الجعةِ فيها حتى فرغت.

❊ ❊ ❊

أمام قصرِ الفرعونِ وسيدِ الأرَضِينَ وقفت ألتقط أنفاسي المذعورةَ أستعيد روحي المخطوفةَ التي سلبتها مني "طيبة".

وقفت أمام أحدِ الضباطِ المكلفين بحراسةِ بواباتِ القصرِ الخارجيةِ وعندما سلمته لفافةَ البردي نظر إليها وأخذ يتناوبُ النظرَ بينها وبيني وكأنه لا يصدق أنَّ شخصًا يبدو عليه -بما لا يدعُ مجالًا لأدنى شكٍّ- أنه من العامةِ، بل ومن الدرجةِ الدنيا منهم يحمل أمرًا ملكيًا ممهورًا بالخاتمِ المقدسِ الخاصّ بِـ"تحتمس" للمثولِ بين يديه، أغلق الضابطُ اللفافةَ بعد أن رمقني بنظرةِ فتورٍ واشمئزازٍ وأمرني أن أظلَّ مكاني وألَّا أتحرَّكَ خطوةً واحدةً؛ ليبتلعَه القصرُ في جوفِه ثم عاد بعد برهةٍ وكأنه كان يتأكدُّ من شيء ما..! ثم أمرني الضابطُ الصغيرُ الذي يبدو عليه الزهو بالمكانةِ التي هو فيها بأنْ أتبعَه حتى وصلنا إلى بهوِ الأعمدةِ فتوقف فجأةً وأشار إليَّ بالتقدمِ ورمقني بنفسِ نظرةِ الفتورِ والاشمئزازِ ثم انصرف، وقفت أتأمل المكانَ الذي لم يتغير فيه شيء بعد كلِّ هذه السنواتِ.. كلُّ شيء كما هو وكأني تركته ساعةً من نهارٍ وليس منذ اثنين وعشرين عامًا مررت بنفسِ ممرِّ الأعمدةِ الشاهقةِ اللا متناهية.. الذي قادني إلى قاعةِ العرشِ العظيمةِ حتى وصلتُ إليه وهو جالسٌ على عرشِه الذهبيّ، فاقتربتُ أكثرَ حتى وقفت أمامه مباشرةً، لم تتغير ملامحُه إلا أنَّ يدَ الزمانِ كانت قد تركت بصمتَها علي وجهِه وحفرَ الكِبَرُ وكثرةُ الحملاتِ العسكريةِ التي قام بها أخاديدَ على قسماتِه.. ماعدا ذلك فقد بقى "تحتمس" كما تركته لقد كان متوسِّطَ القامةِ، عريضَ الصدرِ، مفتولَ العضلاتِ، له بريقٌ كبيرٌ.. كان وجهُه يحمل أهمَّ ما يميزُ مِصريّي الجنوبِ حيث البشرةُ التي تميلُ إلى السُّمرة.. كانت

ذقنه محدودِبةً قليلًا وأنفُه دقيقًا خاليًا من الاعوجاجِ أو الانحراف، كان ذا عينين ضيقتين فيهما بريقٌ وعمقُ محاربٍ صنديدٍ، كانت رقبتُه متوسطةَ الطولِ مع بروزٍ واضحٍ لحنجرته.

وقفت أتأملُه للحظاتٍ ولا أُنكر مدى اشتياقي لرؤيتِه بعد كلِّ تلك السنواتِ لا أعلم لماذا جال بخاطري شيء لم أُفكر فيه إلا في تلك اللحظة.

الكثيرُ منَّا يتجنَّبُ الحوادثَ والمخاطرَ ويديرُ لها ظهرَه مفضِّلًا العيشَ في راحةٍ وهدوءٍ، وقِلَّةٌ هُم من يختارون المواجهةَ والسيرَ بمحاذاةِ الخطرِ متحدِّين الأهوالَ بل والأقدارَ أيضًا.. هؤلاء فقط هم من يُخلِّدُهم الزمانُ.. نظر إليَّ فانفرجت شفتاه المكتنزتانِ العريضتانِ عن ابتسامةٍ وكأنه قد قرأ ما دار في خَلَدي، فقبَّلتُ الأرضَ بين يديه وانتظرتُ.. ليكونَ هو البادئَ بالكلامِ وفجأَني بسؤالٍ مباغتٍ لم أكن أتوقع على الإطلاقِ أن يبادرني به مستفسرًا :

- هل مازلتَ ترفض إلحاقَ ابنِكَ "نارمر" بالجيشِ يا "حور"..؟!

هالني سؤالُه المباغتُ وكيف له أن يعرفَ بشأنِ ما كان يدور بيني وبين ابني، فانفرجت شفتاه عن ابتسامةٍ مماثلةٍ لابتسامتِه الأولى وكأنه قد قرأ ما دار بخلدي مرةً أخرى وواصل كلامه:

- دعه يمتلك زمامَ أمره، لا تعلنْ الحربَ عليه؛ فأنت من سيخسره في النهايةِ، ولا تنسَ يا صديقي أنَّ من يعلنُ الحربَ على ابنه فإنَّ الآلهةَ غالبًا ما تقف إلى جانبِ الابنِ..

فلملمت دهشتي التي تناثرت في أرجاءِ القاعةِ كحباتِ عقدٍ انفرط علي حينِ غفلةٍ وركنت إلى الصمتِ تاركًا له ميدانَ الكلامِ ولكنه باغتني مرةً أخرى بعكس ما كنت أتوقعُ ولاذَ هو الأخرُ بالصمتِ وكأنه يرسمُ في عقلِه خطةً لإحدى معاركِه الحربيةِ وتركني أتلظَّى بنيرانِ السؤالِ الذي مازال يأكلُ عقلي على مهلٍ منذُ خرجت من "صاو" حتى وصلتُ إلى "طيبة" لماذا أرسل في طلبي بعد كلّ تلك السنواتِ..؟.

وشيئًا فشيئًا بدأتُ أشعر أنَّ القاعةَ العظيمةَ قد بدأت في الانحسارِ وأصبحتُ وأنا أمامه كتمثالٍ فقد يديه، أو قاربٍ تحطَّمَ شراعُه، أو قوسٍ بلا سهمٍ، فوجَّهتُ بصري صوبَه مباشرةً لعلَّي أحملُه على كسرِ حاجزِ الصمتِ الذي فرضَه علينا، فما كان منه إلا أن قام من على عرشِه وتوجَّه يمينَه قاصدًا البهوَ المفتوحَ وخلفَه تحرك أسدَه بخطواتٍ ثقيلةٍ وكأنه يجرُّ خلفَه مئاتٍ، بل آلافَ الرؤوسِ التي انتزعها من فوقِ رقابِ أصحابِها وهو يدافع عن صديقِة في ميادينِ المعاركِ التي خاضوها معًا.

وصلنا إلى البهوِ المفتوحِ الذي تستطيع من خلالِه أن ترى "طيبة" ماثلةً أمامك مبهرةً للعين تبعث بشكلٍ إجباريٍّ على البهجةِ المُفعمةِ بالحيويةِ، وعند سورِ البهوِ وقف "تحتمس" وهو يتفحَّصُ مدينتَه الطافحةَ بالجمالِ المتلألئةَ بالنورِ وأخيرًا خرج صوتُه من محبسِه قائلًا بصوتٍ خفيضٍ: جعلني أمدُّ جِذعي كنخلةٍ حرَّكتْها الرياحُ ناحيتَه:

• هذا هو ما أفنيتُ سنوات عمري من أجلِ تشييدِه..! هل تعتقد يا "حور" إنَّ أقدامَ القدرِ ستطؤها يومًا؛ لتجعلَ كلَّ هذه الصروحَ المهيبةَ

المشعة بالجمال هي والرمال سواءً..؟! لقد حدثوني بأنَّ صروحي وعمائري ستحيا أبدَ الدهرِ..

وبصوتٍ أقربَ للهمسِ عندما يصارحُ المرءُ نفسَه بحقيقةٍ ستوجعُه قال:

• ولكنني أدرك أنَّ الجميعَ إلى زوالٍ لا شيء باقٍ إلا هذا النهرَ العظيمَ..

ثم تراجع خطوةً وتقدم حتى وقف أمامي مباشرةً، حتى كادت أنفُه تلامسُ أنفي وواصلَ كلامَه:

• ها هو رسول الموتُ قادم ولن يخطئ هدفه وأنا أراه يقترب مني بخطا سريعةٍ وأشعر شعورَ من يتوق إلى رؤيةِ أرضة واستنشاقِ هوائها بعد قضائه في الغربةِ سنينَ طويلةً .

حاولت أن أخففَ عنه وطأةَ هذا الإحساسِ قليلًا فأجبته:

• حفظتْك الآلهةُ لمصرَ وللمصريين لتعيشَ عمرًا مديدًا يا مولاي ولتظل دائما متجدد الطاقة ..

نظر إليَّ متهكِّمًا على هذا الردّ الساذجِ والذي يعلم جيدًا أنه رجاءٌ ممن لا يملك لتمنّي ما لن يحدثَ أبدًا، وتحرك ناحيةَ المقعدِ الوثيرِ المصنوعِ من خشبِ الأبنوسِ المغطَّى بالحريرِ الورديّ وأسند رأسَه للخلفِ وامتدت يداه على مقبضَيِ المقعدِ الذي نُحِتتْ حوافُّه على هيئةِ رأسِ الإله "حورس" وأخذ يضغط بكلتا يديه علي المقبضين وكأنه يسحقهما، لا أعلم ما كان

يدور في خلدِه في تلك الأثناءِ، هل كان يُنفِّسُ عن غضبٍ بداخلِه لإحساسِه بأنَّ رحلتَه في هذا العالمِ توشكُ على الانتهاءِ..؟ أم أنه يريد أن يستمدَّ القوةَ من إحساسِه بأنَّ رأسَ "حورس" بين راحتى يدِه وأنه قادرٌ علي تحطيمِها..؟ فأنا أعلم ما يحمله "تحتمس" لِـ"حورس" من مقتٍ وكراهيةٍ وُلِدت هناك تحتَ أسوارِ"مجدو" عندما أرسل إليه الإله "حورس" رسالةً يحذره فيها من مغبَّةِ المُضيّ قُدُمًا في حصارِ "مجدو" وإسقاطِها بل إنه هدَّده بأنه إن فعل هذا فسيجلب على نفسِه وعلى جيشِة الدمارَ واللعنةَ إلى الأبدِ.. حدث هذا في أكثرِ الأيامِ ظلمةً وأشدِّها قسوةً "يوم اللعنات" كانت الخيمةُ الملكيةُ تضمُّ بخلافي أنا و"تحتمس" "كن-آمون" كبيرَ كهنةِ "آمون" وقائدَ الجيشِ "مين" وقائدَ فرقةِ العجلاتِ الحربيةِ "ماحو" ورئيسَ الأسلحةِ "بتاح" وأيضًا كانت هناك "سات" آخرُ الأنقياءِ والمرشدةُ الروحيةُ وأبوها الطبيبُ "تيموس" وبمجردِ سماعِنا رسالةَ "حورس" هرول قائدُ العجلاتِ الحربيةِ نحوَ "تحتمس" وخرَّ على وجهِه يُقبّلُ قدميه ويرجوه ويتوسل إليه أن يُصغيَ لِمَا أراده "حورس" حفاظًا على حياتِنا جميعًا، فما كان من "تحتمس" إلا أن هوى بالصولجانِ الذي كان يحملُه فشقَّ رأسَه فوقع "ماحو" على الأرضِ وانسابت الدماءُ بين قدَمَي "تحتمس" الذي تطاير الغضبُ من عينيه وكأنَّ سهمًا ناريًا قد وقع فوقَ كومةٍ من البوصِ الجافِّ في صيفِ نهارٍ حارقٍ وأرعدَ بصوتِه الجهوريّ حتى خُيِّلَ لي أنَّ سكانَ"مجدو" خلفَ الأسوارِ الحصينةِ قد سمعوا ما قاله:

• لن أستسلمَ لمشيئةِ أحدٍ، حتى ولو كانت مشيئةً إلهيةً، "حورس" ابن "أوزوريس" الإله الساحقِ المنتقمِ لأبيه الذي يدَّعي أنه قاهرٌ لِقُوَى الشرِّ

يأمرني أن أترك لِقُوى الظلامِ الفرصةَ؛ لتنمو وتزدهر حتى تصيرَ وحشًا ضاريًا يهدد مصرَ ويجعلها وليمةً سائغةً على مائدتِه، يا له من إلهٍ ماجنٍ مخادعٍ.. أيتها الآلهةُ العمياءُ الصماءُ الخصبةُ بالغباءِ.. اللعنةُ عليكم وعلى حورس..

تيبَّسَ الدمُ في عروقِنا وارتعدت فرائصُنا جميعًا من الخوفِ؛ فلقد كنا على يقينٍ من أنَّ لعناتِ السماءِ جميعَها سوف تنزل علينا؛ لتمحوَ كلَّ أثرٍ لنا على الفورِ.. نظرت بجواري فوجدت أكوامَ اللحمِ المتدليةِ من بطنِ "كن-آمون" وهي تهتزُّ بشدةٍ من فرطِ الرعبِ، حتى "سات" التي لم أرَها يومًا رغم كلِّ الأهوالِ التي مرت علينا قد بدا عليها الخوفُ وهي تنكمش على نفسِها كقطةٍ، وتمايلَ "تيموس" من فرطِ الخوفِ وكاد أن يفقدَ توازنَه وكأنه شجرةٌ تعبث بها الرياحُ وتوشك على الوقوعِ على الأرضِ حاولت أن أنتشلَ نفسي من ذكرياتِ "مجدو" حتى أظلَّ محتفظًا بتركيزي وكاملِ وعيي في حضرةِ الفرعونِ الذي اعتدل في جلستِه وجلسَ منتصبًا وسألني:

- هل مازلتَ تذكر كلَّ ما حدث هناك يا "حور"..؟

فاجأني سؤالُه المباغتُ فبدا القلقُ والارتباكُ عليّ واضحًا، فسألتُه بدلًا من أن أُجيبَه:

- عن أيِّ شيء يقصد مولايَ بالتحديد..؟

فكانت إجابتُه واضحةً وضوحَ الشمسِ في نهارِفصلٍ أخن:

• أقصد كلَّ شيء.. كلَّ شيء يا "حور"..؟

فكانت إجابتي لا تقلُّ وضوحًا عن إجابتِه وكأننا في مبارزةٍ لا فائزَ فيها ولا خاسرَ:

• نعم يا مولايَ أذكر، فكلُّ شيءٍ مطبوعٌ بداخلي كالنقشِ فوقَ الحجرَ..

فأجاب والراحةُ باديةٌ على قسماتِ وجهِه:

• كنتُ على يقينٍ من هذا..

تساءلتُ وقد تملكني الارتباكُ:

• أستميحك العذرَ يا مولايَ؛ فإني ما زلت غيرَ مستوعبٍ لما تقصدُه جلالتُك بالتحديد..

فقام "تحتمس" من مكانِه وتقدم نحوي ووضع يدَه علي كتفي وضغط عليه برفقٍ قائلا:

• اسمعني جيدًا يا "حور" فلقد كنتُ أدخرُك لتلك المهمةِ منذ سنينَ طويلةٍ، وها قد حان الوقتُ لتقومَ بما ادَّخرتُك لأجله..

• مولاي يعلمُ أني لن أتأخرَ عن شيءٍ لو كان الأمرُ في استطاعتي..

نظر إليَّ وكأنه يغوص داخل أعماقي؛ لكي يتأكَّدَ من شيء ما قبل أن يصارحَني بسرِّه الرهيبِ الذي أخفاه طوالَ تلك السنواتِ:

• أريد أن يعلمَ الجميعُ منك ما حدث لنا هناك في "مجدو" يا "حور"..

ولأولِ مرةٍ أتعمد أن أرواغَ في حضرتِه فأجبتُه:

• كلُّ انتصاراتِك دُوِّنت علي جدرانِ المعابدِ يا مولايَ وسار الشعبُ يتغنَّى بها وسيظلُّ يتغنى بها جيلًا بعد جيلٍ، لن ينسى المصريون أبدًا أنك أولُ من أخضع شعوبَ الأرضِ لسلطانِه وجعلتَ مصرَ إمبراطوريةً مترامية الأطرافِ؛ لتكونَ هي سيدةُ العالمِ بلا منازع..

أجاب وقد أطلق عينيه لتسبحا في فضاءِ الكونِ اللا نهائيّ:

• القوةُ هشَّةٌ للغاية يا صانع الكتَّانِ.. والأقوياءُ لابد سيختفون في النهايةِ مُخلِّفين مكانهم لمن يظنُّ أنه أكثرُ منهم قوةً وبأسًا ولا أحدَ يستطيع البقاء في الأخير، وماهو مُدوَّنٌ على جدرانِ المعابدِ سيأتي من يطمسُه بعدي كما فعلتُ أنا بأثرٍ من سبقني..! ما الزمنُ إلا نهرٌ، وما يَفشل الأغلبيةُ في استيعابِه هو أنَّ هذا النهرَ ما هو إلا رحلةٌ ستنتهي مهما طالت، وفي النهايةِ لا شيء باقٍ يا عزيزي.. كلُّ شيء إلى زوال..! إنَّ الموتَ يقينٌ.. إنه الشيء الوحيدُ الذي نعلم أنَّ سهامَه ستصيبُنا مهما حاولنا الفرار منها ولن تخطئَ أحدًا وإنَّ كلَّ الطرقِ تؤدِّي إليه ولا استثناءَ في ذلك لأحد ، وفي النهايةِ.. الموتى لا يحمون إرثَهم والأحياءُ من المؤكد سيبددونه..

أصابت كلماتُه شغافَ قلبي لصدقِه الحقيقيِ في كلِّ كلمةٍ نطق بها فأجبته:

• الموتُ ليس فناءً يا مولايَ، بل هو ميلادٌ جديدٌ، هو مَعبَرٌ ضروريٌّ للحياةِ الأبدية، ولن يستطيعَ أحدٌ مهما حاول أن يمحوَ من ذاكرةِ المصريين ما فعلتَه من أجلهم..

فأغمض عينيه وسحب كميَّةً كبيرةً من الهواءِ ملأَ بها صدرَه حتى كادت أضلاعُه أن تنفجرَ، ثم بدأ يُطلقه علي مهلٍ، ثمَّ واصلَ حديثَة بنبرةِ شجنٍ صادقٍ:

• لا يخشي عدالة أوزوريس الأخيار البعيدون عن الشر ، اذ يعلمون أن لعناته لن تصيبهم ، وإنه ليُخَيَّلُ إليَّ أنَّ شمسَ "تحتمس" قد شارفت على المغيبِ، وأرى أنه قد آن الآوانُ ليعرفَ المصريون ما حدث هناك، فما حدث لم يعد مِلكًا لنا، وأشعر أنه من العارِ أنْ يسقطَ عمدًا من ذاكرةِ التاريخِ، يجب أن نُورِّثَه للأجيالِ القادمة.

• اطمئنَّ يا مولاي، فكلُّ ما فعلته سيظلُّ خالدًا ومنقوشًا علي جدرانِ المعابدِ متحديًا كلَّ شيء.. كلَّ شيء،

• ولكن هناك قصةٌ أكبرُ حدثت لم تُدوَّنْ على جدرانِ المعابدِ ولم تُكتبْ بعدُ يا "حور" وكلانا يعلم ذلك..

فانتابني الفزعُ فلقد أصابَ كبدَ ما كنتُ أخشى أنه يُلمِحَ إليه منذ البدايةِ ولكني كنت أتغابَى عن عمدٍ كمن يرى الفيضانَ ويحسبة شرًّا.. فاندفعتُ قائلًا بصيغةِ التحذيرِ المدموغِ بالخوفِ الذي يُشبهُ الخوفَ الذي أصابني في الخيمةِ يومَ جاءنا تحذيرُ الإله "حورس" وجلب علينا الأهوال:

• ولكنَّ مولايَ يعلم أنه غيرُ مسموحٍ لنا بأن نذكرَ تلك الأحداثَ على الإطلاقِ؛ فذلك سيُعرّضُ أرواحَنا للخطرِ في الحياةِ الآخرة، تلك كانت كلماتِ "سات" الأخيرةَ، وأنت تعلم جيدا أنها لم تكن تنطق إلا بلسانِ الآلهةِ..

كعادته في الاستهانةِ بكلِّ شيء مهما كان خطيرًا أجاب:

• أرواحُنا دائمًا مُعرَّضةٌ للخطرِ من أجلِ أيِّ شيء، من أجلِ أتفهِ الأسبابِ حتى..! فإنْ كان هذا هو الحادثَ فلنُعرّضْها للخطرِ من أجلِ شيء يستحقُّ، لتكونَ التضحيةُ على قدرِ المخاطرةِ، وأنا لا أرى أنَّ هناك ما يستحقُّ أن تُعَرَّضَ أرواحُنا للخطرِ من أجلِه أكثرَ من أنْ يعلمَ الجميعُ الحقيقةَ كاملةً يا "حور"..

أحسستُ بأنَّ البهوَ يدور بي وكأني عَلِقْتُ داخلَ شادوفٍ وبأنَّ حلقي قد انحشرت فيه كميةٌ من النطروان تكتفي لتحنيطِ مئاتِ الجثثِ دفعةً واحدةً، فاستدار مبتعدًا وكأنه أشفق على حالِ رجلٍ حانت لحظةُ انهيارِه على الحضورِ لتضربَه ضربتَها الأخيرةَ، توجَّه إلى حافةِ البهوِ قائلًا بصوتٍ لم أسمع أعذبَ منه في حياتي؛ فقد كانت كلُّ كلمةٍ تصدر منه مثلَ قطراتِ ماءٍ تنساب على شفتَي تائهٍ ضلَّ طريقَه وسطَ صحراءَ شاسعةٍ لا نهايةَ لها:

• إنك أنبلُ وأنقي رجالِ مصرَ بلا شكٍّ يا "حور" إلا أنَّ قلبَك أكبرُ من عقلِكَ..! فأنت لا تؤمن بشيء إلا بعد أن يقتلَه قلبُك تفكيرًا ليخرجَ قرارُك فاترًا، بطيئًا، ولذا سأترك لك الأمرَ لتفكرَ فيه وتُقلِّبَه كيفما تشاءُ وإن كان قرارُك هو الاحتفاظَ بما حدث فلكَ ما تشاءُ، ولكن لِتتحمَّلِ المسؤوليةَ وحدك أمامَ ضميرِك.. أما إن كان قرارُك أن تمضي قُدُمًا لتخبرَ العالمَ أجمعَ بما حدث هناك فلتضعْ أمامك أمرينِ لا تحيدُ عنهما أبدًا..

ثم التفتَ إليَّ وأخذتْ نبرةُ صوتِه صيغةَ القائدِ الآمرِ الذي يُملي شروطَه على خصمِة المهزومِ:

• أولا :- لتغمسْ ريشتَك في قلبِ الحقيقةِ، فقط الحقيقة، لا تحيدُ عنها ولا تتَّبعْ هواك أبدًا، أُكتب ما حدث كما حدث دونَ أن يكونَ لوجهةِ نظرِك تأثيرٌ على الإطلاقِ؛ فأنت تكتب ليس من أجلِ "تحتمس" بل من أجلِ التاريخِ واعلم أنَّ التاريخَ لا مجالَ فيه لوجهاتِ النظرِ الخاصَّةِ..

فسألته مدفوعًا بالفضولِ البشريّ:

• والأمرُ الثاني يا مولاي..؟

• لا تخبر أحدًا مهما كان بما ستكتبُه ولا حتى ولدَك..! احتفظ بما ستكتبُه لنفسِك ولتكنْ وصيتُك الأخيرة لابنِك هي أن يَدفِنَ معك ما كتبته في قبرك..!

نزلتِ الدهشةُ بمِعولِها علي رأسي بكلِّ قوةٍ وغشمٍ:

• ولكن ما فائدةُ ما سأكتبُه إن لَّم أُورِّثه..؟ ألا تريدُ أن تعلمَ الأجيالُ القادمةُ بما حدث..؟! أوليس هذا هو الهدفُ مما سأقومُ به..؟!

• بلى، ولكني سأترك ذلك لمشيئةِ الأيامِ؛ فهي من ستقررُ متى ومَن سيعلم بما حدث..؟ سأجعلُها هي من تختارُ وليس نحنُ ولتكنْ مشيئتُها فوقَ كلِّ مشيئةٍ، أظنُّ أنه قد كُتبَ لنا أن نظلَّ صديقين رغم اختلافِنا يا صانعَ الكتَّانِ..

وتحرك عائدًا لقاعةِ عرشِه يتبعُه أسدُه الحارسُ، ثم التفتَ إليَّ التفاتَتَهُ الأخيرةَ قائلًا:

• قبل أن تغادرَ أودُّ منك أن تمرَّ على الوزيرِ "آوسر آمون" فسيعطيك صندوقًا لا تفتحْه ولا تنظرْ إلى ما بداخلِه إلا بعد أن تنتهي من مهمتِك.. ولتصحبْك السلامةُ إلى "صاو"..

وتركني دونَ كلمةِ وداعٍ واحدةٍ ودونَ أن يعرفَ ما هو قراري الأخيرُ..؟ تاركًا الخوفَ يتصاعدُ داخلي كالموجِ والدوارَ يعصف بي كأني قارب ألقي به وسط بحر غضوب .

-٤-

- **القاهرة : ظهيرة ٢٦ مارس ٢٠١٥.**

انتفضت "جيسيكا" وعادت للخلفِ بسرعةِ البرقِ عندما انتشلَها جرسُ هاتفِها الملعونِ فجأةً ودون سابقِ إنذارٍ مما كانت قد ذابت فيه كحبةِ مِلحٍ سقطت في الماءِ، تلفتتُ "جيسيكا" حولَها وكأنها سقطت للتوّ من فوقِ قمةِ هرمِ الأحلامِ محاولةً استدعاءَ وعيها بسرعةِ الضوءِ لتعرفَ أين هي بالتحديدِ..؟ حاولت السيطرةَ على أنفاسِها من هذا الفورانِ.. كان صدرُها يهبطُ ويصعد مثل مؤشرِ الزلازلِ الذي يُسجّلُ هِزَّةً عنيفةً ضربت أضلاعِها..! حالةٌ فريدةٌ لم تختبرْها "جيسيكا" من قبلُ، فلقد سقطت فيها الحواجزُ بين الوعيِ واللا وعيِ.. بين الحقيقةِ والخيالِ.. بين الممكنِ والمستحيلِ، حالةٌ انمحت فيها الأزمانُ ولم يبقَ سوى الحلمِ أو رسمٍ للوحةٍ كانت منسيةً جاءت من عالمِ الذاكرةِ البعيد؛ لِتضيئَ لك طريقًا من أعماقِ الخيالِ، كثيرًا ما أخذتْها قراءتُها بين عوالمَ مختلفةٍ، ولكنَّ تلك الحالةَ الفريدةَ التي لا وصفَ لها لم تمرَّ بها من قبلُ، انتزعت "جيسيكا" نفسَها من فوقِ الكرسيِّ وكأنها تنتزعُ نفسَها من أعماقِ الهوَّةِ المظلمةِ التي هوت فيها روحُها داخل كونٍ أُفقُه رصاصيٌّ حيثُ شمسٌ بلا حرارةٍ.. فقط برودةٌ قاسيةٌ أحسَّتْ أنها غزت أطرافَها.. التقطت "جيسيكا" هاتفها الذي مازال جرسُه يضغط على حواسِّها بكلِّ خشونةٍ وفظاظةٍ وكأنه كلبٌ صدمته سيارةٌ مسرعةٌ، كان المتحدثُ على الطرفِ الأخرِ سائقَ السيارةِ الأجرةِ الذي طلبت من موظفِ

الاستقبالِ في الفندقِ أن يأتي به ليأخذَها إلى المطارِ قبلَ موعدِ رحلتِها بثلاثِ ساعاتٍ وبطريقةٍ فيها الكثيرُ من التعنيفِ والغلظةِ وكأنَّ الرجلَ كان معها وهو من تعمَّدَ إخراجَها من تلك الحالةِ فأجابت على السائقِ بأنها قد قررت إلغاءَ رحلتِها وأنَّها لن تذهبَ للمطارِ وليست في حاجةٍ له، وأنهتِ المكالمةَ بغضب، واحتلت صورةُ "مارك" الصغيرِ ابنِ شقيقتِها عقلَها فجأةً فارتسمت على ملامحِها البالغةِ الجمالِ ذات الطابعِ الأنجلو سكسونيّ -حيث تنحدر جذورُها الأولى من تلك القبائلِ الجرمانيةِ التي غزت"إنجلترا وإسكتلندا"- ابتسامةُ المنتصرِ الذي حقق انتصاره في اللحظةِ الأخيرةِ وعاد للتوّ إلى طريقِ الحياةِ.. ودت أن تتصلَ بالفتى "مارك"؛ لتخبرَه أن يستعدَّ؛ فهي آتيةٌ إليه ومعها حكايةُ مومياءَ لم يسمعْ بها أحدٌ من قبلُ..! إنها مومياءُ خارقةٌ أكثرَ وملمهةٌ أكثرَ من مومياءِ فيلمِه المفضلِ "لعنة المومياء" ولكنها تراجعت عن إجراءِ هذه المكالمةِ مدفوعةً بالشغفِ وعدمِ القدرةِ على الانتظارِ حتى تعرفَ باقي القصةِ، وعلى الفورِ فتحت غطاءَ الهاتفِ وأخرجت أحشاءَه كي تتأكدَ بما لا يدعُ مجالًا للشكِّ أنها لن تسمحَ له بتكرارِ ما حدثَ مرةً أخرى وأنها تلك المرةً ستعود لبرديةِ "حور" دون رجعةٍ، ولغلقِ كلِّ المنافذِ التي من الممكنِ أن يتسربَ منها أيُّ شيء غيرُ متوقعٍ.. توجهت مسرعةً ناحيةَ بابِ القاعةِ وفتحته وبخطواتٍ رشيقةٍ تتناسب مع جسدِها ذي القوامِ النبيلِ توجَّهتْ ناحيةَ الموظفِ المسئولِ عن القاعةِ لتخبرَه أنها تدرس برديةً هامةً للغايةِ ولا تعلم متى ستنتهي منها؛ لذلك رجتْهُ ألَّا يسمحَ لأحدٍ بالدخول عليها على الإطلاقِ أجاب الموظفُ بابتسامةٍ ظهرت من خلفِها أسنانُه الصفراءُ

المتباعدةُ بأنه سيكون حريصًاعلى ألَّا يُزعجَها أحدٌ مُطلقًا، فودعته بابتسامةٍ من فمِها المرسومِ على هيئةِ حبةِ "الفراولة" كمكافأةٍ له على هذا الوعد.

وبعد أن أتمَّتْ مهمتَها عادت مكانها وبكلِّ خفةٍ بل ولهفةٍ قفزت على الكرسيِّ الذي كانت تجلسُ عليه مما جعل خصلاتِ شعرِها الذي تتركُه يسترسل دائمًا يتطايرُ حولَها وكأنها طفلةٌ استيقظت من نومِها؛ لتجدَ أباها الذي كان في رحلةِ عملٍ طويلةٍ قد عاد لتجدَه مُمَدَّدًا بجوارِها لتقفزَ على صدرِه من فرطِ اشتياقِها له.. فلا شيء صادقٌ في هذا الوجودِ صِدقَ اشتياقِ طفلةٍ لحضنِ أبيها الغائب.

-٥-

- **صاو: ١٤٠٣ قبل الميلاد.**

أيتها الروحُ القلقةُ التي تعانين وتتطلعين لفردوسِك الأبديّ فلترثي لي ولك، فلقد قررتُ أن أمضي في طريقٍ أعرف أنَّ ثمنَ المُضيّ فيه سيكلفني روحي في الحياةِ الأخرى وبالرغم من ذلك وجدت نفسي مرغمًا بكاملِ إرادتي على المضيّ فيه.

-آآه.. لقد عادت الذكرياتُ، تهيمن الذكرياتُ الآن في عظمةٍ على العجوزِ "حور"

عادت مع حاشيتِها من الندمِ والألمِ والمخاوفِ والكوابيسِ والغضبِ، ولكنَّ الذكرياتِ الآن مؤكدةٌ بقوةٍ وأُبهةٍ وكلٌّ منها تصرخ في وجهي وهي تقول:

- قلبُ الحياةِ لا يتوقف له نبضٌ، أنا الحياةُ، أنا الحياةُ العصيةُ التي لا تحتمل..

حقًا.. الذكرياتُ تسيطر عليَّ، تمارس استبدادَها الوحشيَّ الذي يسوقني كما لو كنت ثورًا يلفظ أنفاسَه الهائجةَ الأخيرةَ، إذن: فَلْتمُتْ أيها الأحمقُ ملعونًا ولتنضحْ بالذكرياتِ الآن..!.

❊ ❊ ❊

- **صاو: ١٤٥٨ قبل الميلاد.**

أربعون يومًا مرت ومصرُ راقدةٌ في أحضانِ الحزنِ لموتِ خليلةِ "آمون" المفضلةِ، دُرَّةِ الأميراتِ، مانحةِ السنين، التي تحيي القلوبَ، ابنةِ الشمسِ "حتشبسوت"، توقفتِ الرمالُ عن التساقطِ من الآلةِ الزمنيةِ، كلُّ شيء في مصرَ توقف وغرقَ في سُباتِ الحزنِ إلا نحن.. أنا وأمي وأربعَ عشرةَ فتاةً تمَّ اختيارُهنَّ بعنايةٍ فائقةٍ للقيامِ بالمهمةِ المقدسةِ التي أَوْكلها لنا "سنموت" الوزيرُ الأكبرُ والمديرُ الأعظمُ لبيتِ الفرعونِ.. وهي صناعةُ الكتانِ الذي سيلفُّ به جسدَ الملكةِ ومحتوياتِ قبرِها من ملابسَ ومفروشاتٍ وأطعمةٍ محنطةٍ يجب أن تُغلَّفَ كلَّها بالنسيجِ، لم تكن تلك المهمةُ باليسيرةِ وخاصةً أنَّ الدفنَ دونَ الترتيباتِ التي تليق بالعالمِ الآخرِ تعرض فرصَ الفرعونِ في الحصولِ على الفردوسِ الأبديّ إلى الخطرِ؛ لذلك كانت كلُّ مرحلةٍ من مراحلِ عملِنا أنا وأمي وشقيقتي المحبوبةِ "أوبت" يجب أن تكونَ بالغةَ الدقةِ، ورغم الحماسِ الشديدِ والتفانِي في القيامِ بمهمتِنا إلا أنَّ الإعياءَ كان كثيرًا ما يداهمني على غيرِ العادةِ فلقد كانت الأعباءُ أكبرَ من قدرتي على التحملِ.. كانت ساعاتُ العملِ تمتد منذ شروقِ الشمسِ حتى آخرِ الليلِ، فكلُّ المنسوجاتِ كانت تُصنع أساسًا من الكتانِ الذي يُصنع من أليافِ نباتِ الكتانِ الذي يستغرق نحوَ ثلاثةِ أشهرٍ لكي ينضج، والنباتُ نحيلُ الساقِ بأزهارٍ سنويةٍ زرقاءَ رقيقةٍ، وعندما تموت الأزهارُ تظهر رؤوسُ البذورِ وتكون النباتاتُ جاهزةً للحصادِ، وكانت حِزَمُ سيقانِ الكتانِ تُمسك معًا وتنزعُ من الأرضِ، بدلًا من أن تقطعَ، وبعد جفافِ النباتات تنزع رؤوسُ

البذورِ يدويًا بالهزِّ أو التمشيطِ بلوحةٍ طويلةٍ مسننةٍ تسمى بالمشطِ الهزازِ، ويساعد البللُ بالتعرضِ للماءِ أو الندى مع ضوءِ الشمسِ على تفككِ الألياف في الساق من خلالِ عمليةٍ تُعرف بالتعطين؛ لتصبحَ الأليافُ جاهزةً للغزلِ بعد الغسيلِ والتجفيفِ والضربِ والتمشيطِ.. أليافُ الكتانِ بطبيعتِها ذات ألوانٍ باهتةٍ ذهبيةٍ أو بنيةٍ أو خضراءَ.. يتم استخدامُ (المغرة)(أكسيد الحديد المائي المخلوط بالطين) أو الأصباغَ النباتيةَ؛ لتلوينِ المنسوجاتِ، والواقعُ أنَّ الأسلوبَ الفنيَّ للغزلِ كان ينطوي على عمليتين متميزتين ولكنَّها مترابطتانِ، ففي المرحلةِ الأوليةِ": كانت الأليافُ تُلوَى مبدئيًا ليًا خفيفًا، ثم تكون عمليةُ الغزلِ الفعليّ للألياف في المرحلةِ الثانيةِ للحصولِ على الخيوط، وتشتمل عمليةُ الغزلِ سحبَ الألياف ثم لَيَّها ثم لفَّ الخيط، وعند بدءِ حركةِ المغزل، فإنَّ الغازلَ يسحب أو يشدُّ عددًا قليلًا من الألياف على دفعاتٍ من كتلةِ ألياف، ومع دورانِ المغزلِ تُلوَى الألياف، وعندما يصبح هناك عددٌ كافٍ من الخيطِ الملويّ، يُوقف المغزلُ ويُلفُّ الخيطُ حول جذعِ المغزل، وقد كان يُصنعُ من عصا تسمَّى الجذعَ أو المغزلَ، وثقل يسمى الفلكةَ، وتعمل الفلكةُ مثل الحذافةِ (العجلة الهابطة) في المحافظةِ على انتظامِ زخمِ المغزل؛ بالنسبة للسرعةِ والحركةِ المنتظمةِ وبعد غزلِ ألياف الكتان؛ لتصيرَ خيطًا أو غزلًا، فإنها تصبح جاهزةً لتنسج قماشًا، والنسجُ هو عمليةً شبكِ مجموعتين من الخيوط، أو أكثرَ، وفقَ لنظامٍ محددٍ مسبق من أجل الحصولِ على جزءٍ من نسيجٍ أو نسيجٍ كاملٍ، وتكون المهمةُ الأولى هي تحرير الخيوطِ من المغزلِ ومدَّها على النول، وهو ما ينطوي علي وضعِ

الخيوطِ الرأسيةِ (السدادة) في موضعها على النولِ وشدِّها بإحكامٍ وعندها يبدأ النسجُ الفعلي.

كانت مهمةً غايةً في الشقاءِ والتعبِ، ولكن لم يكن أمامي إلا أنْ أواصلَ ما تمَّ تكليفُنا به وإلا فستكون النتائجُ غيرُ محتملةِ العواقبِ، ونحن لا نقدر علي تحمُّلِ كلفتها الباهظةِ بكلِّ تأكيدٍ، هكذا كانت تهمس لي أمي عندما كانت ترى الإعياءَ قد بلغ مني درجةً تفوق الاحتمالَ وأصبحتُ غيرَ قادرٍعلى مواصلةِ العملِ وخاصةً وأنها تعلم أني ليس لديَّ رغبةٌ ولا شغفٌ بمواصلةِ تلك المهنةِ التي برعت هي وشقيقتي "أوبت" فيها حتى أصبحتْ هي المختصةَ بصنع القفازاتِ الخاصةِ بالملكةِ "حتشبسوت" وقد أسرَّتْ لي في أحدِ الأيامِ بسرٍّ خطيرٍ للغاية كانت مع كلِّ حرفٍ تنطق به تدور عيناها في أرجاءِ المنزلِ كحجرِ الرحى وهو يطحن حباتِ الذرةِ أو الشعيرِ لتصيرَ دقيقًا، وكان صوتُ دقاتِ قلبِها أعلى من صوتِ حنجرتها وهي تخبرني أنَّ الملكةَ "حتشبسوت" ترتدي تلك القفازاتِ التي لم يسبق لأحدٍ من النساءِ ارتداءها قبلها ليس للزينةِ كما يعتقد الجميعُ، ولكن لأنَّ الملكةَ وُلدت وفي يدِها أصبعٌ سادسٌ ومن أجلِ إخفاءِ هذا العيبِ ابتكرت فكرةَ ارتداءِ قفازٍ في يدها، أحسست عندما أفضت لي أمي بهذا السرِّ أنها تُفشي سرًّا من أسرارِ الكهنةِ المقدسين التي لا يعلمها أحدٌ سوى الأنقياءِ منهم وهم أعلى مراتبِ الكهانةِ وأنها بإفصاحِها عن هذا السرِّ قد وضعت حياتَها في خطرٍ مُحدقٍ، ولكن مع مرورِ الوقتِ أدركت أنَّ أمي قد أفصحت لي عن هذا الأمرِ الخطيرِ لسببين: أولهما: أن تُشعرَني بمدى أهميةِ ما تقوم به من عملٍ وإنَّ عملَ النساجين لا يقلُّ أهميةً أو خطورةً أو شرفًا عن مهمةِ الجنديِّ، أمَّا السببُ الثاني

والأهمُّ: فهو أنها كانت تحاول أن تصرفَ انتباهي عَّما كنت أطمحُ إليه من أنْ ألتحقَ بالجيشِ وأنضمَّ إلى فرقةِ العجلاتِ الحربيةِ.. كان ذكرُ هذا الأمرِ على مسامعِ أمي أشبهَ ما يكون بالصاعقةِ التي تضرب الأرضَ وتُشعلُ فيها الحرائقَ التي لا تستطيع سوى الآلهةِ إخمادَها.. كيف لا وهي من اكتوت بنيرانِ الحربِ ولوعةِ الفراقِ عندما فقدت أبي الذي كان جنديًا في جيشِ الفرعونِ "تحتمس" الأول وكان معنى انضمامي للجيشِ أن ألقى نفسَ مصيرِ أبي، فحاولت بكلِّ الطرقِ والوسائلِ أن تبعد عني تلك الفكرةَ أو هكذا ظنت ولكن تلك الفكرةُ لم تفارق خيالي يومًا ولم أكن أتخيل أني سأظل بقيةَ حياتي أدورُ مع المغزل.

❊ ❊ ❊

غريبٌ هو القدرُ الذي يأخذنا في أعنَّتِه إلى حيث يشاءُ؛ فمن حيث أرادت أمي إبعادي عن الجيشِ والجنديةِ وجدتْ نفسَها أنها من كانت سببًا في التحاقي به، حيث صدر أمرُ الفرعونِ الجديدِ الذي تمَّ تنصيبُه في "طيبةَ" منذ أيامٍ بواسطةِ كهنةِ "آمون" بأن يتم استدعاءُ كلَّ الحرفيين المهرةِ من كلِّ أرجاء المقاطعاتِ المصرية؛ ليقوموا بإعدادِ وتجهيز كلِّ ما يحتاجه الجيشُ الذي كان يستعد للخروج في حملةٍ عسكريةٍ كبيرةٍ يكون الفرعونُ نفسُه على رأسها.

❊ ❊ ❊

دعني أحدثكم قليلًا عن هذا الفرعونِ، هو ابنُ الروحِ العظيمة، قويُّ السلطة، الفرعونُ "تحتمس" الثاني الذي تُوفِّيَ وترك "تحتمس" الابن وهو مازال ابنَ خمسِ سنواتٍ وهي سنٌّ لا تؤهله لاعتلاءِ العرشِ فكان لابد كما كانت تقضي التقاليدُ المصريةُ أن يكون هناك وصيٌّ على العرشِ حتى يبلغ الفرعونُ السنَّ التي سيكون خلالَها جديرًا بالجلوسِ على عرشِ المملكةِ المصرية؛ لِذلك تم تعيينُ زوجةِ الفرعونِ الراحلِ الملكةُ "حتشبسوت"؛ لتكون هي الوصيةَ علي عرشِ مصر.

"حتشبسوت" المرعبة..! لقد كان تحوُّلُها إلى ملكٍ يعدُّ وبحقٍّ سلوكًا شنيعًا؛ لأنَّ أيَّ امرأةٍ أيًّا كانت لا يمكن أن تتصدى لاحتياجاتِ البلادِ، هكذا تعالت الأصواتُ من كافةِ ربوعِ المملكةِ المصريةِ عندما أعلنت "حتشبسوت" نفسَها فرعونًا على مصرَ فماجتِ البلادُ وتصدَّر كهنةُ مصرَ المشهدَ الرافض؛ لهذا الإعلانِ وأصبحت الأمورُ مرشحةً؛ لحدوث انشقاقٍ كبيرٍ في البلادِ بسبب خلخلةِ التقاليدِ التي لم يسمع بها أحدٌ من قبل، فمصر مثوى التقاليدِ الراسخةِ، وأيُّ مساسٍ بتلك التقاليدِ كانت عواقبُه وخيمةً، رأى المصريون الظلماتِ تتلاطم من حولِهم كبحرٍ غضوبٍ وكانت ضلوعُهم تئن تحت ضغطٍ عنيفٍ، فالثوابتُ تنهار وتغيب في ضبابٍ خلف ظلمةٍ رابضةٍ فوق الصدورِ.. لا أحدَ يستطيع التخلصَ منها ولا يوجد منها فرارًا، ولكن "حتشيسوت" أعلنتها واضحةً ليغربَ الجميعُ عن وجهي، إنها لحظتي أنا..! كانت أشبهَ بفتاةٍ تركض خلف فراشةٍ مضيئةٍ ظنًّا منها أنها جنيَّاتٌ مضيئةٌ، ولم تكن تفكر أبدًا في أنه في النهايةِ من الممكنِ، بل ومن المؤكدِ أنها ستجد نفسَها غارقةً في مستنقعٍ طينيٍّ، فمن يصنعُ الريحَ لا يحصد إلا الأعاصيرَ

ولكن وراءَ المظهرِ الأنثويّ للملكةِ كانت هناك سراديبُ قوةٍ وعنادٍ؛ فهي كانت تحب الحكمَ والسلطةَ أكثرَ من أيّ شيء أخرَ ونسيت أنَّ السلطةَ تُستمدُّ من الشعبِ وليس من همساتِ المنتفعين في القاعاتِ المظلمةِ فوجدت ضالتها عند كهنةِ معبدِ "آمون" وعلى رأسِهم "حابو سنيب" الكاهنُ الأولُ لِـ"آمون" وقتها والذي كان بمثابةِ قاربِ النجاةِ الذي حملَ الجميعَ وأرشدهم لبرِّ السلامةِ، فاخترع هو وزبانيتُه من كهنةِ معبدِ "آمون" قصةَ ميلادِ "حتشبسوت" التي كانت طوقَ النجاةِ الذي أنقذ مصرَ من الغرقِ، فشاع بين العامةِ ما يلي:-

- إن الإله "آمون" أرسل مبعوثَه "تحوت" للاستطلاعِ فرأى تلك المرأةَ الشابةَ التي تتألقُ من بين كلِّ الأشراف أنها "أحمس" أجملُ نساءِ البلادِ قاطبةً والزوجةُ الكبرى للملك "تحتمس" الأول، وعندئذ تحول "آمون" الرائعُ وسيدُ عرشِ البلادِ المزدوج واتَّخذ مظهرَ جلالتِه زوجَ الملكةِ وقد وجدها نائمةً بجمالِها في قصرِها مثل آهةٍ طويلةٍ تنتظر من يُطلقها، فأيقظتها رائحةُ الإله، وعندما اقترب منها اشتعل حماسُه لها لذلك جعلها ترى شكلَه الإلهي الذي لم يره بشرٌ قطُّ سواها، فاخترق حبُّه جسدَها وغمرَ القصرَ عطرُ الإله الذي كان كلُّ أريجِه قادمًا من بلاد "بونت" وأقدم جلاله هذا الإله علي كلِّ ما تشوَّقت إليه نفسُه وأعطته "أحمس" كلَّ متعة، ثم أعلن "آمون" رسميًا:

- من المؤكد أنَّ هذه البنتَ التي وضعتها في رحمكِ سيكون اسمُها "خينمت ايمن" أيْ: المتحدةُ مع "آمون" وستزاول الوظيفةَ الملكيةَ المأثورةَ

وستمتلك قوتي وتاجي العظيمِ وستحكم الأرضين، فوق عرشِ"حورس" الأحياء..! "

لم يعرف التاريخُ المصريُّ على ما أذكر كذبةً انطلت وراجت بين العامةِ بمثَل هذه الطريقةِ التي روَّج لها كهنةُ "آمون" الذين يعرفون كيف يطلون الأكاذيبَ ويزينونها بطريقةٍ تبدو للعامةِ وكأنها حقيقةٌ راسخةٌ رسوخَ الجبالِ فتتسرب لداخل قلوبِ العامةِ مثل النشوةِ– ألم أقل لكم أنَّ أمهاتِ هؤلاء الكهنةِ زنت مع الأفاعي- وبالفعل صدَّق العامةُ تلك الكذبة وخمدت النارُ قبل أن تأكلَ في طريقِها الأخضرَ واليابس، وتحقق لِـ"حتشبسوت" ما أرادت فلقد صارت الفرعونَ ابنَ "آمون" الذي قدَّسه العامةُ، حقًا هؤلاء العامةُ مثل النساء يبحثن دائمًا عمَّن يضاجعهم فقط ويسقيهم من كأسِ الحقائقِ الكاذبةِ فيتجرعون منه ويسقطون في نهرِ الخطيئةِ بكاملِ إرادتِهم، فكان كهنةُ "آمون" هم الأساسُ المتينُ الذي قامت عليه دعائمُ عرشِ "حتشبسوت" التي تناست أن لَّا كرامةَ ولا شرفَ لعرشٍ تكون دعائمُه الكذب.

وفي تلك الأثناءِ تم إرسالُ "تحتمس" الذي كانت تُكنُّ له "حتِشبسوت" كلَّ العداءِ لاعتباره ابنَ إحدى محظياتِ زوجِها تلك التي كانت تُدْعَى "ايزيس" والتي نجحت فيما فشلت فيه هي وأنجبت له وريثَ العرشِ الفعليِّ والذي انزوى في دائرةِ النسيانِ القاتمةِ بالضبابِ؛ فلقد تم إرساله لإحدى قواعدِ الجيشِ في "منف" التي تركزت فيها معسكراتُ الخيالةِ وانضمَّ إلى أحدِ معسكراتها الكبيرةِ وشاطرَ جنودَها معيشتَهم. والتحق بأحدِ فرقِ

الخيالةِ بادئًا بأدنى درجاتِها فانضمَّ إلى إسطبلِ التربيةِ، أيْ: تربيةَ صغارِ الخيلِ حتى خَبِرَ طباعَها جيدًا وعرف كيف يربّيها وعرف ميزات صفاتِها مما جعله بارعًا في قيادتِها فيما بعد، وأيضًا تعلَّم الرمايةَ وركوبَ العجلاتِ الحربيةِ حتى برع الفتى "تحتمس" وهو ابنُ أربعةَ عشرَ عامًا في تحدٍّ لقادةِ الفرقةِ العسكرية بِـ"منف" وكان دائمًا ما يدخل معهم في مسابقاتٍ في الرمايةِ من فوقِ العجلاتِ الحربيةِ ولقد بلغ من مهارته أنه كان يرمي من فوقِ عجلتِه أربعةَ سهامٍ على أربعةِ أهدافٍ نحاسيةٍ متتابعةٍ فيصيبها جميعًا دون أن يُخطئَ أيَّ هدفٍ مهما كان.

ثم بعد ذلك انتقل إلى معسكرِ "جرجا" التي كانت تُشرفُ على طريقِ الواحاتِ وتتلمذ الفتى الذي شاع صيتُه وبلغت مهاراتُه وإتقانُه للرمايةِ كلَّ معسكراتِ الجيشِ على امتدادها وهناك في معسكرِ "جرجا" تتلمذ علي يدِ قائدِ المعسكرِ القائد" مين " الذي سيصبح قائدًا للجيشِ في حربِ "تحتمس" في "مجدو" والذي كان "تحتمس" يضعُه في منزلةِ أبيه؛ ولكن لأنَّ ما حدث هناك لم يكن في مقدورِ الكثيرين استيعابه؛ لذلك حدث ما لم يكن يخطر علي بالِ "تحتمس" ممن ربَّاه وعلَّمه، لنعودَ إلى البداياتِ الآن وسأقصُّ ما حدث بين "تحتمس" و"مين" حين يأتي دوره.. كان للقائدِ "مين" دورٌ هامٌّ في تربية"تحتمس" وصقلَ مواهبَه العسكريةَ الفذةَ ولقد جمعَ الفتى الذي أصبح علي مشارفِ سنِّ الشبابِ بفضلِ هذا القائدِ بين الثقافةِ العسكريةِ وثقافةِ الكتابةِ، وعلمه كيف يستغلُّ قوةَ ساعدِه في شدِّ القوسِ إلى نهايةِ مداه ويصيبُ هدفَه تحتَ أيِّ ظرفٍ كان..! ولم يكتفِ "تحتمس" بما تلاقَّاه في هاتين القاعدتين من تعليمٍ ومهارةٍ كانت كفيلةً بأن تجعلَ منه قائدًا

عسكريًا بامتيازٍ، ولكنه أراد استكمالَ تدريبه في فرعٍ آخرَ من فروعِ الجيشِ، فالتحقَ بالتدريبِ مع بحارةِ الأسطولِ المصريّ وكما برع في "جرجا" و"منف" أثبت تفوقَه وبراعتَه أيضًا في هذا المجالِ واعتادَ أن يدخلَ في سباقِ التجديفِ مع بحارةِ الأسطولِ وهو في قاربِه الصقر.

وفي اليومِ العاشرِ من الشهرِ الثاني من موسمِ "بيرت" بعد اثنينِ وعشرين عامًا استردَّ "تحتمس" عرشَه من فرعونةٍ استثنائيةٍ كان قدرُها استثنائيًّا بين نساءِ الأرض..!

❊ ❊ ❊

ياليت "رع" لم تأخذه الشفقةُ على البشرِ، بعد أن بدأَ البشرُ تجديفَهم وتأمروا عليه وراحوا يُثيرون القلائلَ ضدَّه بعد أن شاخَ وأصبحت عظامُة من فضَّةٍ، وأعضاؤه من ذهبٍ وشعرُه من اللازوردِ الحُرّ، وعندما ضاقَ ذرعًا بالجنسِ البشريّ في زمنٍ كان البشرُ والآلهةُ يتعايشون معًا على الأرضِ فقرر التخلصَ منهم فأرسل إليهم عينَه متمثلةً في الإله "حتحور" وبالفعل استعرضت هذه الآلهةُ قوتَها ضد البشرِ وأفنتِ الكثيرَ منهم، ثم رجعت إلى "رع" وهي مصممةٌ على العودةِ إليهم مرةً أخرى لاستئصالِهم نهائيًا، وفي هذه اللحظةِ أدركت "رع" الشفقةُ على البشرِ فوجَّه رُسلَه إلى جزيرةِ "ألفنتين" فأحضروه قدرًا كبير من فاكهةٍ حمراءَ اللونِ يُطلَقُ عليها اسمُ "ديدي" ثم أمر بتجهيزِ سبعةِ آلافِ إناءٍ من الجعةِ مزجت مع هذه الفاكهةِ حتى صار لونُ الجعةِ كأنها دماءٌ قانيةٌ متألقةٌ، وفي صباحِ اليومِ الذي عزمت فيه

"حتحور" أن ترجعَ لتدميرِ البشرِ أمرَ "رع" أن يُصَبَّ الخليطُ في الحقولِ، وعندما قدمت "حتحور" أغراها اللونُ الأحمرُ المتألقُ وعبَّتْ منه حتى أصبحت ثملةً تمامًا مما جعلها تغفل عن ضحاياها، ومن ثم أمكن إنقاذُ البشرِ من مصيرِ الفناءِ.. ومع ذلك ظل "رع" ضائقًا بآثامِ البشرِ وأفعالِهم..! فذهب إلى سمائه ممتطيًا ظهرَ البقرةِ السماويةِ التي يرفعها الإله "شو" تاركًا الإله "تحوت" ممثلًا له علي الأرض.

يا أيها البشرُ الآثمون إنكم أكثرُ الضواري توحشًا وفتكًا على ظهرِ الأرضِ، فجميعُ الحيواناتِ تقتل لتأكلَ إلا أنتم تقتلون لتثملوا- وياليتكم تثملون– أيها الجرادُ المنتشرُ، أيها الخفافيشُ القذرةُ، أيها النسلُ الشقيُّ والذريةُ الشريرةُ.. ليت "رع" لم تأخذه بكم رحمةٌ ولا شفقةٌ وترك "حتحور" تقوم بمهمتِها حتى النهايةِ، ساعتَها ما كان "ليوماس" ملك "قادش" سيكون موجودًا من الأساسِ؛ ليفكر أن يجمعَ قادةَ اثنتين وعشرين مملكةً آسيويةً بجيوشِهم ليجتمعوا مثل قطيعِ الذئابِ يشحذون أسنانَهم ليلتهموا مصر.

ظن "ليوماس" أنَّ مصرَ بعد موتِ ملكتِها القويةِ قد أضحت أرملةً مهيضةَ الجناحِ ستسهل وطأتُها والاستمتاعُ باغتصابِها..! فالبشرُ يشعرون بلذةٍ لا تُدانيها لذةٌ أخرى عندما يمارسون الاغتصابَ، وأعتقد أنَّ سببَ هذه اللذةِ اللا متناهيةِ هو أنَّ البشرَ وقتَها يُصبِحون حقيقيين جدًا، ومَن منَّا لا يكون سعيدًا عندما يكون على حقيقتِه..؟! إننا متوحشون بالفطرةِ.

أجبني يا "رع": لأيِّ سببٍ أخذتك الشفقةُ على هؤلاءِ المتوحشين..؟!.

تجمعت جحافلُ "ليوماس" كقطعِ الليلِ الحالكِ بالظلمةِ، وخرج أبناءُ "آوى" من جحورهم تدفعهم شهوتُهم العمياءُ نحوَ فريستِهم ظنًّا منهم أن

الجالسَ علي عرشِ مصرَ بعد موتِ الملكةِ القويةِ ماهو إلا فتى غضٌ لا خبرةَ لديه بشؤونِ السياسةِ والحرب، وهكذا اعتقدوا ومضَوا في تجديفِهم شأنُهم شأنُ أسلافِهم عندما تآمروا علي "رع" غيرَ مُقدِّرين قوتَه وبطشَه حقَّ قدرِهما.

فما كان من "تحتمس" إلا أن يفعل ما فعلةَ "رع" فقام علي الفورِ باستدعاءِ عشرةِ آلاف "حتحور"استدعاهم "تحتمس" ليتجمعوا علي أرضِ "تانيس" للزحفِ بهم للفتكِ بِ"ليوماس" وجيوشه، وإن كان "رع" قديمًا قد أخذته الشفقةُ بالخونةِ والمتآمرين فإنَّ "تحتمس" بطبعِه البشريِّ لم يكن ينتوي فِعْلَ ذلك، وسيكمل مهمتَه حتى النهاية.

❊ ❊ ❊

ملعونةٌ هي أوهامُ العظمةِ وأحلامُ السيطرةِ التي تدفع عجلةَ الحربِ لتدورَ رحاها، وفي النهاية يجلس المنتصرُ مزهوًّا فوق عرشٍ مصنوعٍ من جماجمِ الأبرياءِ الذين ستظلُّ لعنتُهم تطارده حتى في قبره.

- آآآه.. لقد تناسيتُ وصيةَ "تحتمس" أن لَّا أُقحمَ وجهةَ نظري في الأحداثِ وأن أكونَ كالتاريخِ مجردًا، ليسامحني مولاي، ولكني أمقتُ الحربَ ومنظرَ الدماءِ التي تسيل من أجلِ أن تبني صروحَ المجدِ المزيفِ المختلطِ بأوهامِ العظمةِ الفانيةِ تُصيبني بالغثيان.

-٦-

- **تانيس : ١٤٥٨ قبل الميلاد.**

حُمِلتُ إلى"تانيس" كالماشية التي تساق لتقدَّمَ قربانًا للآلهةِ في مذبحِها المقدس، ولولا توسُّلاتُ أمي و"أوبت" شقيقتي للضابطِ الذي كُلِّفَ باقتيادي إلى مذبحي المقدسِ لَمَا علمت لأيِّ مذبحٍ أساق، ترامت إلى مسامعي كلماتُ الضابطِ الذي كان يُخلِّص ذراعي من أظافرِ أمي التي نشبتْها في لحمي متشبثةً بي وهو يخبرها أنهم سيأخذونني إلى "تانيس" تنفيذًا لأوامرِ الفرعونِ الجديدِ "تحتمس" الذي أمر أن يتمَّ جمعُ كلَّ الحرفيين المهرةِ؛ ليساعدوا في تجهيزِ الجيشِ الذي سيخرج في حملةٍ عسكريةٍ للدفاع عن حدودِ مصرَ يقودها جلالتُه لردِّ شعوبِ البحرِ المتآمرين على مصر.

❊ ❊ ❊

"تانيس" سهلٌ كبيرٌ متربٌ بلا دروبٍ، بلا أعشابٍ، بلا أشواكٍ، أرضٌ منبسطةٌ شاسعةٌ بلا حدودٍ.. لدرجةِ أني كنتُ في كلِّ مرةٍ أحاول معرفةَ حدودِها يعود إليَّ البصرُ مهزومًا وكلما كررت المحاولةَ يرتدُّ إلىَ البصرُ مرةً أخرى بنفسِ الخيبةِ حتى استسلمت في النهايةِ وتوقفت عن هذا العبثِ الذي شغلت عقلي به وكأنَّ معرفةَ حدودِ المكانِ ستغيِّر من أمري في شيء..!

صدقت أمي وكذب أبي، فالإنسان يعاني الخوفَ من المجهولِ ولا شيء مجهولٌ أكثرُ من المعاناةِ في الحربِ، ساعتها لا يرى الإنسانُ الأشياءَ جميعَها من حولِه إلا بعينٍ مرتعدةٍ، وأنا أرى أمامي كلَّ شيء في حالةِ انفجارٍ وفوضى ذاخرةٍ بالشراهةِ من الخوفِ، وقفت كمهرجٍ أحمق وسط كلِّ هذا الهرجِ والمرجِ وهذا الصخبِ حيث جاء الألفُ طوعًا أو كراهيةً، قابلت أناسًا كثيرين يسيرون مفزوعين لا تستطيع أقدامُهم حملهم،وكأنَّ كلًّا منهم وُضع فوقَ ظهرِه "أبو الهول"يسير به، استوقفتُ أحدَ الأشخاصِ وسألته:

- إلى أين سنمضي..؟!

أجابني وعيناه تدوران في محجرَيْهما مثل ساقيةٍ متهالكةٍ

- لا أدري شيئًا.. لا أنا ولا الأخرين..!

أحسست أنهم يمضون بالبديهةِ إلى مكانٍ ما مدفوعين إلى السيرِ فيه بفعلِ الضرورةِ القاهرةِ، لا شيء متشابهٌ في "تانيس" إلا الخوف، فكلُّ هذه الوجوهِ المكدودةِ والمتجهمةِ كانت تمضي بسحنةٍ مستسلمةٍ لمن حكم عليهم بالموت.

وفجأةً صَمَّ الآذانَ صوتُ الأبواقِ المرعبةِ ولمحت من بعيد غبارًا كئيبًا يتدحرج مسرعَ الخُطا ناحيتنا، وفجأةً خرَّ كلُّ من حولي ساجدًا، وكأنَّ الرؤوسَ جميعًا قد حصدت بمنجل، لم أشعر إلا بيدٍ خشنةٍ تجذبني لأسفلَ حيث لأمسَ أنفي الترابَ ورغم عدمِ فهمي لما يحدث حولي ورغبتي في الفهمِ إلا أن سرعانَ ما غلبتني اللامبالاةُ وأصبحت مثقلًا بوطأتِها التي منعت عقلي من استيعابِ أنَّ موكبَ الفرعونِ الجديد كان يمر من أمامنا، والتقاليدُ

تقضي أن يخرَّ الشعبُ ساجدًا أثناء مرور موكبِ الفرعونِ وأن لَّا يرفعوا أبصارهم نحوه.

وعلى نحو مفاجئ طغى عليَّ إحساسٌ بالاستياء.. أصبحت مستاءً من الجميع، مستاءً من نفسي، مستاءً من أقدامي المغروسةِ في ترابِ أرضٍ موحشة، وفي تلك اللحظة تقدم نحوي كسهمٍ طائشٍ الضابطُ الذي ساقني إلى حيث أنا أقف، جذبني بكلِّ فظاظةٍ وكأني قطعةُ لحمٍ نتنة، البغضُ الطاغي والمفاجئ؛ لهذا الإنسانِ المتوحشِ هو أكثرُ شيء سيطر علي مشاعري نحوه، صِحتُ فيه أن يتركني، ولكنَّ شيئًا بداخلي دفعني لمواصلةِ السيرِ معه لعلَّه سيعيدني إلى أمي بعد أن اكتشف أنهم أحضروا الشخصَ الخطأ للمكان الخطأ.

❊ ❊ ❊

أخيرًا وحدي..! لم أعد أسمع سوى قعقعةِ بعضِ العجلاتِ الحربيةِ المنهكةِ ينافسها صوتٌ لا أعلم إن كان شخيرًا أم أنينًا الرجال الذين أراهم الآن ممدون حولي في كلِّ مكانٍ وكأنهم كتلٌ من الحجارةِ وقعت من على قمة جبلٍ واستقرت في أسفلِه بعد رحلة سقوطٍ مروعةٍ فسكنت دون حراك نهائيًا.

أخيرًا..! يمكن لي أن أسترخى محاولًا استيعابَ ملخصٍ لهذا اليوم البشع، أردت استعادةَ نفسي والتعاظمَ قليلًا في صمتِ الليلِ، فتوجهت إلى المعبودةِ "نيث" متضرعًا أن تشدَّ من أزري وأن تساندني لتحمل أعباءِ ما

أُسند إليَّ من المهام التي كُلِّفت بها أنا ومن معي، وهم حوالَي أربعين رجلًا.. حيث أمرنا أن نبدأ من الغدِ في صناعةِ الملابسِ الخاصة بالجنود.

كم كنت أحمقَ عندما اعتقدت أنَّ العملَ في المغزلِ بصحبةِ أمي وشقيقتي ومعنا أربعَ عشرةَ فتاةً؛ لتجهيزِ ما يحتاج إليه قبرُ الملكةِ "حتشبسوت" عملٌ شاقٌّ..! ثلاثةُ أيامٍ مرت منذ أن وطأت قدمايَ أرضَ "تانيس" لم أعرف فيها شيئًا هنا سوى العملِ، العملَ المستمرَّ علي مدارِ اليومِ وبلا توقف، ما كنت أُسميه في "صاو" إعياءً هو شيء صغيرٌ تمامًا، ومحدودٌ تمامًا، وضعيفٌ للغاية مقارنةً بهذا العملِ الجبارِ والذي تجد أنك واهبًا له نفسك بكاملها، في كلِّ مكانٍ فوق هذه الأرض المنبسطةِ ينتشر الناسُ، كانوا في الحقيقة يقومون بتنافسٍ رائع، كانوا في الحقيقةِ في سباقٍ محمومٍ مع الزمن، كانوا بقسمات وجوهِهم المسمَّرةِ والمتصلِّبةِ بفعلِ الريحِ والشمسِ والتعبِ يتحلَّونَ برباطةِ جأشٍ وثابتين، كانوا في حالةٍ من السموِّ بروحٍ أقوى مئاتِ المراتِ من العضلاتِ، كانوا مترابطين مثل أوراقِ برديٍّ متلاحمةٍ ومقفولةٍ بإحكامٍ ومدقوقين معًا بضرباتِ الحياةِ، ولكن رغم كلِّ هذه المشقةِ كانت كلُّ الأعمالِ تستهوي القلوب، فلقد كانت صورةُ الفتيةِ وهم يتنقلون في صفوفٍ منتظمةٍ أو في تجمعاتِ التدريبِ يتلقون دروسَ الرمايةِ بالقوسِ أو الطعنِ بالحربةِ أو الضربِ بالبلطةِ جعلت نفوسَ الجميعِ متوقِّدَةً حماسًا ونشاطًا، كانت كلُّ مجموعةٍ من الجنودِ تحت إمرةِ ضابطٍ وكان يعلمهم بالإضافةِ لكيفية استخدامِ الأسلحةِ أنْ يتدرَّبوا على الألعابِ الرياضيةِ التي تجعل الجسدَ مرنًا كالمصارعةِ، وكانوا يُعدُّون أنفسَهم للمعركةِ على شكلِ رقصٍ حربيٍّ منظمٍ بالوثبِ واللفِّ والتلويحِ بالقوسِ في

الفضاءِ وكان يحلو لي أثناء الذهابِ أو العودة من الخيمةِ التي ننام فيها حتى خيمةِ المغزلِ الذي نعمل فيه أن أمرَّ على صانعي الأسلحةِ أشاهد ما يقومون به، كان عملُنا -نحن النساجين صانعي الكتانِ بالمقارنةِ بهم- عملًا بسيطًا، فصناعةُ الرمحِ، أو القوس، أو الجريدةِ، أو المقلاعِ، أو السيفِ سواءٌ كان السيفُ المستقيم أو السيف المحدودب، أو البلطة، أو الدروع وواقي الرأسِ، أو سترة الزرد المصنوعة من الصفائح المعدنية، كانت كلُّها تتطلب مجهودًا مضنيًا وعملًا ذا طابعٍ بدنيّ مجهدٍ، في كلّ مكانٍ كان هناك عمل، في كلّ مكانٍ كان هناك انفجار بالطاقة، لذلك وجب عليَّ تسجيلُ الاعتراف أنه رغم الإعياءِ الحقيقي إلا أني كنت مسكونًا بحالةٍ من الحماس، فكلُّ شيء محيط بي كان علي درجةٍ لا تقاوم من العظمة والنبل، فالجميعُ كان يسكنه إحساس أنَّ كلَّ شيء نفعله هو من أجل الدفاعِ عن أرض "كيمي" أي: الأرض السوداء، أرض مصر، تلك الأرضُ التي نحن نبتُ طينها، وسنبذل في سبيلها كلَّ شيء.

❊ ❊ ❊

أحلام..! دائمًا أحلام..! كلُّ شيء مرَّ بي منذ ذلك اليوم، أشعر دائمًا أني داخل سلسلةٍ متصلة من الأحلامِ وأني سأستيقظ في أيّ لحظة، ولكنَّ الذي كان يحدث أني كنت دائمًا أخرج من حلمٍ لأدخلَ في آخر متصلًا به بشكلٍ لا ينقطع أبدًا، يبدو أنه كلما كانت الروحُ رهيفةً باعدت الأحلامُ بينها وبين الممكنِ فيقع صاحبُها في براثن الأحلامِ المتصلة اللا نهائية.

كانت أولُ سلسلةِ الأحلام عندما تم استدعائي من خيمةِ الغزلِ ونحن غارقون حتى الثمالةِ في العمل فلقد كان كلُّ يومٍ يمضي علينا يمثل عبئًا إضافيًا لأنه مازال أمامنا الكثيرُ من الأعمالِ التي لم تنجز بعد، كنا ورغم المجهودِ المضني الذي نقوم به نشعر أننا لم ننجز شيئًا بعد وكأننا نحرث في مياه النهر لنجففه وقت الفيضان العظيم، في تلك الأثناء جاء القائدُ رئيسُ الأسلحة بشخصه إلى خيمتنا وطلب مني أن أترك ما في يدي وأنا أتبعه دون أن يوضحَ السببَ لهذا الاستدعاء الغامضِ، فلقد كانت قسماتُ وجهِه ولهجتُه وهو يأمرني أن أترك ما في يدي وأتبعه لا تُنبئُ بخير.

سرت خلفه دون أن أعلمَ وجهتنا أو سببًا لهذا الاستدعاءِ المفاجئِ..! وبدأت أُقلِّب في عقلي وأقوم بمراجعةٍ شاملةٍ وسريعةٍ لكلِّ ما مرَّ بي طوال الأسبوعِ الذي قضيته هنا، كنت أُفتش عن الخطأ الذي اقترفته أثناء العملِ، فلم أجد وبنفسِ السرعة كررت المراجعةَ في عقلي ثانيًا وثالثًا فلم أجد أيَّ خطأ فأنا أنفذ ما يطلب مني على وجهِ السرعةِ وبمنتهى الدقة والإتقانِ ومنذ يومين امتدحني المسئولُ المكلفُ بالإشرافِ علينا ووصل إعجابُ الرجلِ بي أن ضمني لمجموعةٍ صغيرةٍ جدًا من النساجين تكون كلُّ مهمتنا هي صناعةُ ملابس القادةِ الكبارِ بدايةً بقائدِ الجيش مرورًا بقائد فرقةِ العجلاتِ الحربية، وقائدِ الجنودِ المستجدين، ورئيسِ القوافل، وقائدِ الجنودِ المأجورين وغيرهم.

دخلت برفقةِ قائدِ الأسلحةِ إلى خيمةٍ كبيرة محاطةٍ بقدرٍ كبيرٍ من وسائلِ الراحة؛ حيث هناك مقاعدُ وأوانٍ وأكوابٌ ذهبيةٌ بل وسريرٌ لم أره

في أيّ خيمةٍ دخلت إليها الفترةَ الماضيةَ، فكلُّ الخيامِ متشابهةٌ.. لا شيءَ فيها غير كومةٍ مطويةٍ في النهارِ، وفي الليلِ تنبسطُ لتكونَ سريرًا مصنوعًا من الخوصِ ووبرِ النخيل، كنت أعتقد بكلِّ سذاجةٍ أن كلَّ الخيام المنصوبةِ في "تانيس" بما أنَّ لها نفسَ الشكلِ ستكون محتوياتُها واحدةً، ولكن لا شيءَ يسيرُ في هذه الحياةِ بالتساوي أبدًا، دائمًا وأبدًا هناك فوارق.

عرفت بعد أن قام رئيسُ الأسلحةِ بتأديةِ التحية للرجل الذي كان يقف أمامنا أننا داخل خيمةِ القائدِ "مين" قائدِ الجيش الذي هزَّ رأسَه بإيماءةٍ بسيطة فهمت منها أن المهمة قد تمت بنجاحٍ فاستدار قائد الأسلحةِ وانصرف وتركني مع القائد "مين" بمفردنا، كان القائد "مين" يحمل وجهًا جامدًا وكأنه تمثالٌ بلا نقوشٍ تفسِّرُه؛ فمهما حاولت أن تعرفَ ما يخبئه لك بداخله فبالتأكيد سوف تصطدم بجدارٍ من الجرانيتِ أو البازلت غيرِ القابل للاختراقِ.. اقترب مني قائدُ الجيشِ بقامتِه الطويلةِ ونظر إليَّ بتفحصٍ بعينيه الضيقتين المثبتتين داخل عظامِ وجهه البارزةِ المغطاة بطبقةٍ رقيقة من الجلد، ودار حولي دورةً كاملة ذكرتني بأحدِ كهنةِ معبد الإله "ثيت" عندما كان يقف يتفحَّصُ مجموعةً من الفتيات وهبتهم عوائلُهم للمعبد لينالوا شرفَ خدمةِ الربةِ "ثيت" حقًا يستحق العامةُ والرعاعُ كلَّ ما هم فيه، ألم يفكر أحدُهم لماذا لا يقبل أيُّ معبدٍ لأيّ إله إلا الجميلاتِ من الفتيات فقط..! هل خدمةُ الآلهةِ هي فقط حكرٌ على الجميلاتِ وحدهن..؟ ألم يفكروا قطُّ في أنَّ هؤلاء الجميلات يُختارون لأنهن سيتحولن من خدمةِ الإلهةِ لخدمةِ رغبات الكهنة.. كلُّ شيءٍ يؤخذ باسم الإلهة حتى الشرفُ والطهارةُ يسلبون باسمِها وبمباركتها. خيل لي أني فتاةٌ أقف أمام كبيرِ الكهنةِ

وإنه سيلسبني شرفي دون أن أجرأ على التململ حتى..! فرفْضُ أوامرِ الكهنةِ رفضٌ للخضوعِ للإلهةِ وتلك خطيئةٌ كبرى لا يغفرها أي إله.

خرج صوته مصحوبًا بأنفاسه الكريهةِ كأنفاس "أنوبيس" إلهةِ الموتى قائلا:

- هل أنت حور..؟!

فأجبته وأنا أقاوم رغبتي في القيئ:

- نعم يا سيدي..
- هل كانت أمك هي الموكلةُ بصناعةِ القفازات الخاصةِ بالملكةِ الراحلة حتشبسوت..؟!
- نعم يا سيدي..
- وهل كنتَ تساعدها في تلك المهمة..؟!
- في بعض الأحيان يا سيدي..
- هل تعرف ما يتطلبُه العملُ في خدمةِ الفرعونِ..؟!
- يتطلب الإخلاصَ، والتفاني، والجهد..

فردَّ بسخريةِ من يمسك بدميةٍ لا قيمةَ لها ويعبث بها كيفما يشاء.

- وأيضًا يتطلب الحذرَ الشديدَ..! لأن أقلَّ خطأ من الممكن أن يكلفك حياتك التي لا قيمة لها..
- أعرف ذلك يا سيدي..
- إذن تعالي معي..

وابتعد.. ليرحمني من أنفاسِه الكريهةِ التي أحدثت بداخلِ معدتي ثورةً عارمةً كادت أن تمزقَ بطني، ولولا أني استيقظت متأخرًا اليوم ولم أتناول إفطاري لكانت ثورةُ معدتي غلبت قمعي لها وأخرجت ما بداخلها..!

تحرك متوجهًا إلى خارجِ الخيمة وأنا خلفه حتى وصلنا بعد خطواتٍ ليست بالبعيدةِ إلى خيمةٍ أخرى ولكنها كانت عظيمةَ البناءِ رفعت فوق دعائمَ من جذوعِ شجرِ الصنوبرِ، وكان سقفها مغطًّى بجلودِ التماسيح، ورغم عظمتِها لكني لم ألحظْها من قبلُ رغم أني كثيرُ التجوالِ في أرض "تانيس". كان يقف أمام الخيمةِ ثلاثةُ عجلاتٍ حربية تتراوح أحجامُها ما بين العجلةِ الكبيرة التي يجرُّها حصانان وتحمل ثلاثةَ أشخاصٍ السائقَ و شخصين من خلفِه، والمتوسطةِ ويجرُّها حصانٌ أو اثنان وهي التي لا تتسع إلا لشخصين، السائقِ ورجلٍ واحدٍ إلى جوارِه، أما العجلةُ الأخيرةُ فكانت العجلةَ الخفيفةَ التي لا تحملُ سوى شخصٍ واحدٍ ويجرُّها حصانٌ واحدٌ وكانت فائقةَ السرعةِ، ولها قدرةٌ كبيرةٌ على المناورة لسهولة التحكم فيها، وعند بابِ الخيمةِ كان يقف أربعةُ ضباط لم يسبق لي أن رأيتُ مثلَهم في التكوين الجسمانيّ والقوةِ العضليةِ فكان بإمكانِ أحدهم أن يحملَ بذراعٍ واحدةٍ بقرةً ضخمةً أو أن يسحقَ جماجمَ عشرين شخصًا مثلي بضربةٍ واحدة.. دلف القائد "مين" لداخل الخيمةِ وأشار للعمالقةِ الواقفين عند الباب إليَّ وكأنه يخبرهم أن لَّا يعترضوا طريقي، وبالفعل وجدت نفسي أنسابُ إلى داخل هذه الخيمةِ العظيمة كقطرة ماءٍ لا يعترض طريقها شيءٌ.

وبمجرد أن أصبحت في داخلِ الخيمة حتى نزلت عليَّ صاعقةٌ لم أكن أتخيَّل أن تضربني ولولا أنَّ عضلاتِ قدمي قد ارتخت تمامًا فلم تعد تقوى على شيءٍ إلا حملَ وزني الضئيلِ لأسلمتُ ساقي للرياحِ مغادرًا أرضَ "تانيس" الشاسعةَ فورًا وبأقصى سرعةٍ؛ فلقد كان الشيءَ الأولَ الذي اصطدمَتْ به عيني هو أسدٌ مخيفٌ وقد فتح فمه علي مصراعيه يتثاءب.. ما أشعرني بأني أقف بين جبلين سينطبقان عليَّ في أيِّ لحظة، ولكن هدأت ضرباتُ قلبي التي كادت أن تخترقَ أضلاعي عندما جلس هذا الوحشُ المفترسُ ووضع مقدمةَ رأسِه بين قدميه الأماميتين وأغمض عينيه كمن يستعدُّ لأخذِ قيلولة؛ أما عن ما كانت تحتوية الخيمةُ فلقد كانت عبارة عن جناحٍ في قصرِ الفرعون، وبمجرد أن طرأ على عقلي كلمةُ الفرعونِ اختطفتني من جديدٍ يدُ الرعب..! هل يُعقل أن أكون الآن واقفًا في الخيمةِ الملكية، خيمةِ الفرعون..؟! وبتردد وجَّهتُ نظري لليمين قليلًا لأجدَه بكلِّ جلالِه وهيبته الطاغيةِ يقف أمام طاولةٍ كبيرة عليها مجسَّمٌ صغيرٌ لمكان ما وبجوارِ المجسمِ خرائطُ متراصةٌ من ورقِ البرديِّ.. حاولت أن أبتلع ريقي من هيبةِ الموقف الذي وجدت نفسي فيه دون رغبةٍ مني ولكني اكتشفتُ أنَّ كلَّ السوائل في جسمي قد تجمدت.

مرت لحظاتٌ من الصمتِ المطبق.. بعدها رفع الفرعونُ "تحتمس" عينيه نحو القائدِ "مين" ولم ينظر ناحيتي حتى وكأني هواءٌ لا وجودَ لي ولا أشغل أيَّ حيزٍ حتى ولو كان ضئيلًا مثل جسمي الهزيل. وسأله بكلِّ جديةٍ قائلا:

- كيف تسير الاستعدادات يا قائد الجيش..؟

وبنفسِ الجديةِ أجاب القائدُ"مين":

- كلُّ شيءٍ يسير وفقَ الخطةِ الموضوعة تمامًا يا مولاي..
- أريد أن أختبرَ وأرى كلَّ شيءٍ بنفسي يا معلمي..!
- ليسمح لي جلالةُ الفرعونِ المقدسِ.. العامةُ من الشعب لا يحلمون أن ينظرَ إليهم الفرعونُ أبدًا وإن تعطَّفَ جلالتُه ونظر إليهم فإنه يُطلُّ عليهم من عِلّيين..! لا أريد لجلالتِك أن تبدأ عهدك بخرقِ هذه التقاليدِ الراسخةِ.

وبابتسامةِ تهكّمٍ كسرت حاجزَ الحزمِ بين الفرعونِ وقائدِ جيشِه قال "تحتمس"

- وهل كان من التقاليدِ أيضًا أيها القائدُ والمعلمُ أن يتولَّى عرشَ مصرَ امرأةٌ..؟!

فصمت "مين" وكأنَّ الردَّ أفحمه فلم يستطِعْ الجواب، وواصل الفرعونُ كلامه:

- دعك من التقاليدِ والقيودِ الملكيةِ التي يفرضها منصبُ الفرعون، فنحن الآن لسنا في عيدِ حبِّ "سد" أو عيدِ "النيروز".. نحن في حربٍ والقائدُ الذي يظلُّ حبيسَ خيمتِه معزولًا عن جنودِه وضباطه لا يختلط بهم في الميدان ويشعرُهم أنه أقربُ إليهم من دروعِهم فلن يستحثَّهم على أن يبذلوا من أجلِه أيَّ شيء..!

فسارع "مين" وكأنه يدفع عن نفسِه تهمةً وُجِّهتْ له:

- ما قصدته يا مولاي..... "..

قاطعه "تحتمس" بحزمٍ وواصلَ:

• هل سيدافع عني أبناءُ "كيب" في الميدان ويدفعون عني سهامَ "ليوماس" وجنودِه وهم يضعون أبصارهم في الأرضِ خشيةَ النظرِ إلى فرعون كما تقضي التقاليدُ البالية..؟! أريد من جنودي وضباطي أن ينظروا إليَّ جيدًا بكلِّ تمعُّنٍ كالزوج عندما يتطلع لزوجتِه لأولِ مرةٍ، الموتُ في الميدان أيها القائدُ "مين" لا يفرّقُ بين فرعونٍ أو قائدٍ أو حتى صانعِ كتانٍ..

ونظر إليَّ فجأةً، كانت نظرتُه المباغتةُ كسهمٍ قد اخترق جمجمتي على حينِ غفلةٍ وعاجلني بسؤاله:

• أَوَ ليسَ كذلك يا صانعَ الكتانِ..؟!

فكان نقلُ حجارةِ الأهراماتِ على ظهري حجرًا تلوَ الآخرِ أهونَ عندي من هذا الموقف الذي وجدت نفسي فيه دون أيِّ استعدادٍ أو تجهيزٍ له، فمنذ دقائقَ كنت مجردَ حِرَفيٍّ يقف وسطَ أقرانٍ متساوي الهاماتِ؛ وإذا بي فجأةً أجد نفسي كنملةٍ تقف أمام ثورٍ.. حاولت أن أنتزعَ نفسي من بين أنيابِ الارتباك الذي يفتك بي فغمغمت بصوتٍ أجزم أنه ليس صوتي على الإطلاقِ..! فلقد انتزعتُه من أحشائي قائلًا:

• التضحيةُ شجرةُ لا تنمو إلا في تربةِ الحبِّ الخالص التي تُسقَى بالدمِ والعرقِ.. لذلك: لو أحبَّ الرجالُ قائدَهم لن يترددوا أبدًا في بذلِ روحِهم من أجلِه ..

نظر إليَّ القائدُ "مين" نظرةً ساحقةً طحنت عظامي حتى صار كالدقيق، وأحسستُ بروحي تُنتزَعُ مني كخصلةِ شعرٍ تُنتزعُ من قطعةِ صوفٍ عندما ترك "تحتمس" مكانه خلفَ المجسمِ الذي كان يقف أمامه وبدأ في الاقترابِ مني.. كانت أنفاسُه الحارةُ التي تسبقُه تلفح وجهي كألسنةِ اللهبِ المستعر، أيقنت ساعتَها أني هالكٌ لا محالة، فكيف لي -وأنا النملةُ التي لا تُرى- أن أتكلَّم في حضرةِ الثورِ العظيم، سيدِ الأرضين، ابنِ"آمون" الممتلئِ بالقوةِ.. يالَحسرةِ أمي..! كيف نسيتُ تحذيرَها بألَّا أكونَ مثل الفيضانِ وأن أُلجِمَ اندفاعي وتهوُّرِي الذي من الممكن أن يُسببَ لي المشاكلَ، وها هو سيتسبب في قتلي بأبشعِ الطرق، حتمًا سُيلقي بي "تحتمس" إلى أسدِه الذي كان يرمقني هو الآخر بنظرةِ الجائعِ الذي ينتظر أن تُجهَّزَ وليمتُه لينقضَّ عليها.. أو سيأمر القائدَ "مين" أن يُتِمَّ تقطيعَ أوصالي وأن أُصلب في وسط أرضِ "تانيس" لتأكلني الغربانُ والطيور الجارحة، ليتكِ هنا الآن يا أمي لتخبري جلالتَه أني أرعنُ مندفعٌ علَّه يسامحني ويشفقُ عليَّ من أجلكِ أنتِ..! وبصوتٍ عذبٍ قال جلالتُه وهو يقف أمامي مباشرة:

- لقد فهمتَ ما عجزَ قائدُ الجيشِ عن فهمِه يا صانع الكتان..!

لم أختبر لحظةَ سعادةٍ في حياتي مثل تلك اللحظة التي رُدت إليَّ فيها روحي وواصل:

- أرجو أن يكونَ إتقانُك لعملِك على نفسِ الدرجةِ من الذكاءِ والفهمِ..! فمن الآن ستكون في خدمتي.. ما اسمُك..؟

أجبته وأنا أتلمَّسُ بعضَ الهواءِ الذي انحسر عني طويلا:

- خادمك حور..

وفجأةً انتبهنا على دخول القائدِ "ماحو" قائدِ الجنود المشاة.. وكان يملكُ "ماحو" جسدًا له تناسقٌ غريبٌ وكأنه تمثالٌ نُحِتَ من قِبَلِ "سنموت" أشهرِ النحاتين والمهندسِ العظيمِ الذي بنى للملكةِ حتشبسوت معبدَها الرائعَ.. وقف "ماحو" بجسدِه الممشوقِ المتناسقِ وعلاماتُ الارتباكِ باديةٌ عليه بوضوحٍ مُخبرًا الفرعونَ أنَّ هناك رجلًا عجوزًا ومعه فتاةٌ يقفان على باب الخيمةِ يريدان أن يَمثُلا أمامَه وأخبره أنه حاول بكلِّ جهدٍ أن يعرفَ منهما السببَ ولكنه لم يستطِعْ وعندما أمرَ الجنودَ أن يبعدوهما عن الخيمةِ بل وعن أرضِ"تانيس" كُلِّها طلبَ منه العجوزُ وألحَّ في طلبه أن أُعطي لجلالتِك تلك القطعةَ من القماشِ فقط.. وحذرني من ألا أنفِّذَ طلبه؛ لأنه قال بكلِّ ثقةٍ أنَّ جلالتَكم ستغضبُ أشدَّ الغضبِ إن لَّم أُنفذ ما يطلبه، فرأيت من واجبي أن أضعَ الأمرَ برُمَّتِه بين يدَي جلالتِك، وفي انتظار ما تأمر به.

مد "تحتمس" يدَه ليأخذَ قطعةَ القماشِ التي كانت ملفوفةً بقطعةٍ من الجلدِ يُشبه جلدَ السرجِ الذي يُوضع على ظهر الخيول، وبمجرد أن وقعت عينُ "تحتمس" علي قطعةِ القماشِ حتى أصابته حالةٌ من السعادةِ التي لم أره عليها طيلةَ مرافقتي له بعد ذلك لدرجةِ أني اعتقدتُ ساعتَها أنَّ قدميه قد ارتفعت من على سطحِ الأرضِ وكأنَّ الإحساسَ المفرطَ بالسعادة يتناسب بشكلٍ عكسيٍّ مع قوةِ الجاذبيةِ فيفقدها تأثيرَها..!

وبسرعةٍ أشار إلى"ماحو" قائلًا:

- ليدخلوا على الفورِ أيها القائدُ"ماحو".. فورًا..

انحنى "ماحو" وتراجع للخلفِ مغادرًا الخيمةَ علي عجلٍ وعينا "تحتمس" معلقتان بقطعةِ القماشِ في نظرةِ حنين طفوليّ..! حاولت أن أمدَّ نظري إليها وهي بين يده أتفحَّصُها لأعرفَ ما سرُّ هذا التحولِ العجيب الذي امتلكه كساحرةٍ سلبته عقله، فلم أجد فيها أيَّ شيءٍ غيرَ طبيعيّ؛ فهي قطعةُ كتانٍ عاديةٌ بل قديمةٌ وباليةٌ يتضح ذلك من الأنسجةِ التي خرجت من سياقها والرتوقِ التي بها، ثم عاد "ماحو" وخلفه الرجلُ العجوزُ والفتاةُ التي لم تكشف عن وجهها بعد، وبمجرد أن رآهم "تحتمس" اندفع بخفةِ الريشةِ التي تطير في الهواءِ ناحيتَهم وفتح ذراعيه وطوَّقَ الرجلَ العجوزَ كأمٍّ تطوق ابنَها الذي فقدته منذ سنواتٍ وفقدت الأملَ في عودته إليها مرةً أخرى، بمجرد أن تقعَ عيناك على هذا الرجلِ تشعر أنك في قلبِ ضاحيةٍ عتيقةٍ كمتاهةٍ موحلةٍ حيث تزحف التجاربُ الإنسانيةُ في محراب عينيه بهيبةٍ ووقارٍ من نوعٍ خاصٍ جدًا، وكأنَّ الهيبةَ والوقارَ قد صنعت خصيصًا من أجل أن تكونَ ملكًا له هو فقط... فلا تملك وأنت في حضرةِ هذا الوقارِ المتألق إلا أن يغمرك إحساسٌ لا يخالطه شك أو ريبةٌ أنك أمامَ رجلٍ نبيلٍ بحقٍّ، بل إنه بلغ أعلى درجاتها.. فالنبلُ في الرجالِ هو أرفعُ مرتبةٍ يُمكن أن يصلَ إليها أحدُنا.. وهنا لا أقصد نبلَ المكانةِ التي تُمنحُ أو تكون رتبةً أو التي تُوَرَّثُ من أبناءِ طبقةِ النبلاءِ لأبنائهم، فكم من نبلاءَ تسكن أجسادَهم

أرواحٌ خربَةٌ، وكم من بسيطٍ هو روحُه أنقى من الورد، وكان "تيموس" بحقٍّ أنبلَ من رأت عيني.

وعلى مهلٍ رفعت الفتاةُ التي كانت برفقةِ "تيموس" الغطاءَ الذي كان يحجب وجهَها، وبمجرد أن أزاحت الغطاءَ غمرَ الخيمةَ نورٌ، وكأنَّ الشمسَ قد أشرقت طاردةً فلولَ الظلامِ دون رجعة.

"سات" كانت ساحرةَ الجمالِ، رقيقةً، حيث تمتزج في عينيها الطفولةُ بالنضجِ والبراءةِ بالهيبةِ، تُشبهه سفينةً ملكيةً تنطلق في النهر مُشرَّعةَ الشراع، تمضي بإيقاعٍ عذبٍ فاترٍ تحتَ الشمسِ المتوهجة، عنقها المكتنز المستديرِ وكتفِيها الممتلئتين تصيبان الأذهان والقلوبَ بالهذيان، صدرُها البارزُ يدفع القماشَ المتماوجَ فوقه مثل خزانةٍ ملأى بالأسرارِ التي تنتظر وقت البوحِ بما بداخلها، ساقاها النيليَّتانِ تحت أذيال ثوبها تُعذِّبان وتُثيران الشهوات الغامضة.

غمرت الخيمةَ حالةٌ من السموِّ المتجلي بالمشاعرِ الصادقةِ من الفرعونِ نحوَ ضيفيه المجهولين والذي احتفى بهم حفاوةً بالغةً صادقةً دون تصنُّعٍ، وبنبرةِ شوقٍ جارفٍ وهو يضع راحتى يدَيه على كتفِ"تيموس".

• كم اشتقت إلى رؤيتك أيها الحكيم، فبرغم كلِّ تلك السنواتِ التي باعدت بيننا إلا أنَّ ذكراك دائمًا ما كانت تزور خيالي.. كم أنا سعيدٌ لرؤيتك..

ونظر إلى "سات" نظرةَ تفحُّصٍ بريئةً خاليةً من أيِّ شهوةٍ، وكنتُ متعجِّبًا كيف استطاع "تحتمس" كبح جماحِ شهوته في حضورِ كلِّ هذه الفتنة الطاغية.. حقًا إنه لرجلٌ جديرٌ بكلِّ احترام.. يبدو أن "تحتمس" كان يرى في "سات" أبعدَ من حدودِ هذا الجسدِ الذي يفور بالأنوثةِ كان ينظر إلى روحِها تنساب تحت سماءٍ بلا غيومٍ.. والرجل إذا نظر إلى روحِ إمرأةٍ سما بإحساسِه بها محلقًا حُرًا فوق الجبالِ كالهواءِ.. أما إذا كانت كلُّ حدودِه الجسدُ فقط هوى إلى مرتبةِ ذواتِ الأربع.. بابتسامةٍ حانيةٍ قال "تحتمس" لِـ"سات":

• كم أنا سعيدٌ أيَّما سعادةٍ لرؤيتِك أنتِ أيضًا يا "سات" ياه لفعلِ السنين.. لقد أخذت منك الطفلةَ البريئةَ وحلت مكانها شابّةٌ فاتنةٌ سيتقاتل شبابُ ونبلاءُ مصرَ من أجل الفوزِ بها..

لم تجبه "سات" سوى بابتسامةٍ عذبة.. فتولَّى "تيموس" الردَّ علي "تحتمس" قائلًا:

• ونحن أيضًا اشتقنا لك يا بني:

• ماذا دفعكم للمجيئ من منف إلى تانيس..؟ ولماذا تكبدتم كلَّ تلك المشقة. ؟

• المشقة تهون من أجل من تُطوَى له المسافاتُ.. لقد جئنا لنكونَ برفقتك يا بني..

وبدهشةٍ غلبت حرارةَ الاستقبالِ وصدقِه، قال تحتمس:

- برفقتي..؟! ولكني أظن أنك تعلم أيها الحكيم أني سأخرج للحرب..
- نعم، نحن نعلم وجهتك جيدًا..
- ولكني لن أقبل لكم أن تتحملا مشقةَ الطريقِ من تانيس حتى دومفكات..

ولأول مرةٍ يخرج صوتُ "سات" من مخدعِه قفالت بثقةٍ عجيبة:

- بل سيطولُ الطريقُ لأبعد من ذلك..!

فساد الخيمةَ صمتٌ لا أعلم أهو لعذوبةِ صوتِ "سات" الذي خشي الجميع أن يتكلم بعدها فيفسدَ النغمَ الذي حلَّق فوقنا كالبخور..! ولكنَّ "تيموس" قطع هذه الحالةَ الرائعةَ قائلًا:

- ليسمحْ لي مولاي..

وبسرعةٍ قاطعًا ما كان ينوي قولَه وكأنَّ ما قاله "تيموس" أصاب "تحتمس" بوخزٍ كوخزِ الإبرِ:

- من فضلك أيها الحكيمُ يكفيني أن أسمعَ منك كلمةَ بني.. بنيَّ فقط.. دون أيِّ ألقابٍ أخرى..

فهزَّ "تيموس" رأسَه بامتنانٍ وعرفانٍ كبيرين وواصل ما كان ينوي قوله:

• لك ما تشاء يا بني.. ليكنْ معلومًا لديك أننا لم نأتِ من "منف" إلى هنا بإرادتنا ولكن ما حملنا على المجيء هي مشيئةُ "تحوت".

• الإله تحوت..؟!

• نعم.. فما لا تعلمه أنه بعد أن غادرتنا منذ خمسةَ عشرَ عامًا التحقت "سات" بمعبدِ "تحوت" وتتلمذت علي يدِ كبيرِ الكهنةِ هناك حتى أصبحت الآن كبيرةَ مُقرئي المعبد، المحافظةُ على المخطوطاتِ المقدسة، وحاملةُ كتابِ الطقوسِ.. ومنذ أن أعلنتَ تعبئةَ الجيشِ وخرجت من طيبةَ قاصدًا تانيس تجلَّى الإله تحوت لسات في منامِها وأمرها أن تتبعك إلى حيث ستذهب لتكون مرشدتك..

• مرشدتي..؟!

ومرةً أخرى عاد صوتُ "سات" لينشرَ بخورَه العاطرَ فوقنا فقالت:

• لست أنا فقط، بل ومعي هذا.. وأشارت نحوي.

أخذتُ أتلفتُ حولي مذعورًا كمن سقط في بيتِ الثعابين علَّني أجد أحدًا يقف بجواري وهو المقصود بتلك الإشارة ولست أنا ولكني لم أجد غيري.. أحسست بدوارٍ مدوٍّ يعصف بي.. ليت أمي لم تلدني، وليت أنوبيس يأتي فورًا ويأخذ روحي حتى أرتاحَ من تلك الدفقاتِ التي تتوالى عليَّ بلا

رحمةٍ أو هوادة. انتبهت من هذا الدوار العاصف على ضحكةِ تهكّمٍ أفلتت من الفمِ الكريه الذي يحمله القائدُ "مين". فتسأل بنبرة تهكمٍ فاضحةٍ:

• وإلى ماذا سترشدان جلالتَه أنت وهذا الأخرقَ الهزيل..؟ أنتِ ما زلتِ برعمةً صغيرةً طريةً لا يجب أن تتعرض لأشعَّةِ الشمسِ الحارةِ حتى لا تذبل..

رمقته "سات" بنظرةِ تَرَفُّعٍ ولم تجِبْ.. فاستأذنَ "تيموس" من "تحتمس" الذي لم يكن على ما يبدو قد عاد من طريقِ الدهشةِ الذي ألقته فيه "سات"..

• لتأذنْ لنا يا بنيَّ أن نرتاحَ من عناءِ السفر..

وعلى الفورِ أجاب "تحتمس" موجِّهًا كلامه لِـ"تيموس" ثم للقائد "مين":

• بالطبع أيها الحكيم.. لتأمرِ الجنودَ على الفو أن يجهّزوا خيمةً مُريحةً للطبيب "تيموس" والعزيزةِ "سات" بجانب خيمتي.. بامتثالٍ وهو يتراجع للخلف تاركًا الخيمةً:

• أمر مولاي الفرعون..

وقبل أن يهمَّ "تحتمس" بسؤالِ "سات" عن معنى ما قالته تقدمت "سات" خطواتٍ حتى وصلت أمام الأسدِ الرابضِ في مكانه، فقام على الفورِ احترامًا وتبجيلًا لهذا الجمال القادمِ إليه ومدت يدها نحوه وأنا أقف وقلبي يكاد يشقُّ صدري من الرعبِ خوفًا عليها من هذا الوحشِ المفترسِ،.

فوضعت يدها عليه فرأيت تلك الأناملَ الرقيقةَ وقد غابت وسط غابةِ الشعرِ الكثيفِ الذي يُطوّقُ رقبتَه، فتمايل برفقٍ واقترب بشدةٍ منها يتمسَّح فيها وكأنه تحول لعصفور لقد حطَّ أخيرًا في عُشِّه بعد عناءِ يومٍ طويل، ويبدو أنَّ "سات" كان يشع منها حبٌّ ثابتٌ ونزيهٌ تمامًا ناحيةَ جميعِ المخلوقاتِ كان يجعلها تستطيع السيطرةَ على أي مخلوقٍ أمامها حتى ولو كان وحشًا مفترسًا، ويبدو أنَّ الحبَّ الصادقَ النزيهَ لديه القدرةُ للسيطرةِ علي أيّ كائنٍ ما كان.

وتقدمت "سات" من "تحتمس"حتى وقفت أمامه مباشرةً.. ورغم أنَّ "تحتمس" لم يكن فارعَ الطولِ إلا أن "سات" بدت وهي تقف أمامه أقصرَ وأمسكت بيدِه ورفعتَها حتى صارت أمام صدرِها المتوهجِ بالأسرارِ الساخنةِ قائلةً بعد أن نظرت بتمعنٍ في بطنِ يدِه:

- ستشعل حربًا يصل لهيبها بين الأرضِ والسماءِ..

وتركت يدَه التي سقطت بجوارِه جثةً خرَّت صريعةً من فورها.

-٧-

• دومفكات.. مدرجات الفيروز ١٤٥٨ قبل الميلاد.

يمكن للمرءِ أن يتمتع بمستوياتٍ روحيةٍ عدةٍ ومختلفة، ولكنْ قليلٌ من بني البشر من يصلون إلى مرحلةِ فهمِ الألغاز النهائية.. كانت "سات" من هؤلاء القلةِ الذين وصلوا لتلك المرحلةِ؛ لذلك كان يغمرني شعورٌ بطمأنينةٍ غريبةٍ تغمر كلَّ جوارحي عندما أجلس في حضرةِ تلك الروحِ المستنيرة؛ ففي حضورها كانت روحي تتفتح كبتلات ترى النورَ لأوَّلِ مرةٍ، فهي كانت قادرةً على منحِ الروحِ تَوَهُّجًا لا يمنحه أحدٌ من أهلِ الأرضِ فلقد كانت "سات" كائنًا أرضيًا بروحٍ سماوية..! رغم صمتِها الدائمِ، فلم أكفَّ عن محاولاتي المستميتةِ؛ لأنْ أعرفَ منها تفسيرًا لما قالته في الخيمةِ في أول لقاءٍ جمعنا، ولكن في كلّ مرةٍ كانت محاولاتي تموت على محرابِ صمتها، فكلُّ مرةٍ أسألُها لا تجيبُ إلَّا بجملةٍ واحدة:

• لا تستعجل الحوادث قبل أوانها؛ فقطفُ الثمارِ قبل أوانها يفسدها..

ومن الطبيب "تيموس" عرفت سرَّ السعادةِ والحفاوةِ الشديدة التي استقبله بها "تحتمس" فلقد كان "تحتمس" يدين بفضلٍ عظيمٍ نحو "تيموس" فحكى لي ما حدث مع الفرعون، فعندما كان "تحتمس" صبيًا يتدرب في معسكرِ الخيالةِ في "منف" وقتها سقط من على ظهرِ حصانٍ وانكسرت قدماه وكان كسرًا كبيرًا ظن الجميع أنه لن يشفى منه أبدًا وأنه

سيعيش بقدمٍ واحدةٍ بقيةَ عمره، ومعني حدوث هذا أن يعرضَ فرصةَ أن يصيرَ فرعونًا عظيمًا للخطرِ.. فالفرعونُ في نظر الشعب هو نصف إله، والآلهةُ يجب أن تكونَ كاملةً منزهةً من أيّ نقصٍ أو عيبٍ وإذا حدث وكان الفرعونُ مصابًا بعاهةٍ أو تشوُّهٍ فإنه دائمًا ما يظل حبيسَ قصره لا يخرج للعامةِ، وإذا اضطرته الظروفُ لمواجهةِ هذا الموقفِ وجب عليه أن يفعل المستحيل؛ ليظهر بمظهر الإنسان الكاملِ الذي لا يشوبه نقصان.

❊ ❊ ❊

من قال: إنَّ الفراعين منعَّمون..! الحقيقةُ أنهم محملون بأعباءٍ ومقيدون بموروثاتٍ تجعل الحياة على رحابتِها واتِّساعِها كَسَمِّ الخياطِ.. كم هم حمقى.. إنهم كمن باع كلَّ شيء بلا شيء واشترى اللا شيء بكلِّ شيء..! أولسنا جميعًا ستصيبنا سهامُ الموتِ في النهاية فَلِمَ كلُّ هذا الانزعاج..؟

يااااه، لوجهةِ نظري اللعينةِ التي تُقحم نفسَها دائمًا معترضةً سيرَ الحوادث.

❊ ❊ ❊

كان لتيموس الذي تعلَّم الطبَّ وفنونَه وأسراره من إله الطب "أموحتب" العظيمِ الذي كان أول مهندسٍ في مصرَ فبنى هرمَ "زوسر" المدرجَ وكان أولَ من تعلَّم فنون الطبِّ كان نابغة، كان ربانَ بحرِ العلمِ والأمينَ على خزائنه، كان المجرد بين الرجالِ والمُشرفَ بالكمالِ والمحترمَ بحكمِ الأزلِ؛ لذلك رفعتْهُ الآلهةُ لمكانةِ إله؛ فقد قام بالاعتناء بتحتمس طوالَ أشهرٍ حتى شفيت ساقُه تمامًا وعاد للحياةِ سليمًا بعد ذلك ليصبحَ من كان معرضًا للعيشِ بقدمٍ واحدةٍ محاربًا صنديدًا لا يُقهر؛ لذلك استحقَّ كلَّ هذا الترحابِ وكلَّ تلك الحفاوة.

كانت الفترةُ التي قضيتها برفقةِ تيموس كفيلةً بأن تتفتحَ فيها عيني على أشياءَ لم أكن أدركها من قبل.. تعلمت منه أن أبصرَ في الظلامِ.. تعلمت أنَّ بداخلِ الإنسانِ قوةٌ خفيةٌ أقوى مئاتِ المراتِ من عضلاته المشدودة.. تعلمت أنَّ العلمَ حياةُ القلب، ونورُ العينِ من الظلمة.. تعلمت منه صدقَ القولِ، وصدقَ العملِ، وصدقَ المودةِ، وصدقَ الأمانةِ، لم أفارقه طوالَ عشرةِ أيامٍ من السير الذي لا يتوقف إلا لكي تلتقطَ الخيولُ والدوابُّ أنفاسَها ومعهم عشرةُ آلاف جنديٍّ وضابطٍ ووسيطة روحية فاتنة، وطبيبٌ كهلٌ، وحفنةٌ من كهنةِ آمون وعلى رأسِهم "كن آمون" كبيرُ الكهنةِ الذي هبط علينا في اليومِ الأخير في "تانيس" قبل الزحفِ كروحٍ سُفليةٍ جاءت من أعماقِ الجحيمِ ويُخَيَّلُ إليَّ -وتلك ليست وجهةَ نظرٍ- بل أكاد أجزم أنها حقيقةٌ: إنَّ مجيئَ "كن آمون" إلى"تانيس" قبل زحفِ "تحتمس" على رأسِ الجيشِ كان دافعُه أنه قد وصلته معلومةٌ أنَّ "سات" كبيرةَ مقرئي معبدِ "تحوت" المحافظةُ على المخطوطاتِ المقدسة وحاملةُ كتابِ الطقوس

سترافق الفرعونَ وجيشه في تلك الحربِ المقدسةِ مما قد يجعل الفرعونَ إذا قُيِّدَ له الانتصار في تلك الحربِ أن يرفعَ من مقامِ الإله "تحوت" ويُعلي من شأن كهنتِه حتى يصيرَ الإله "تحوت" هو سيدُ آلهةِ مصرَ، وكهنتُه هم أصحابُ المقامِ الرفيع فيها – عجبًا لشأن هذه الآلهة التي تُرفَعُ وتُخْفَضُ بمشيئةِ البشر– فكان لزامًا على هذا الثعبانِ الأرقط أن يُحرِّك هذه البطنَ العظيمةَ التي يحملها ويأتي علي وجه السرعةِ من "طيبة" حتى "تانيس" ليعلنَ أنَّ "آمون" العظيم قد أمره أن يكون برفقةِ ابنِه "تحتمس" في حربه المقدسةِ، وبذلك وفي اللحظات الأخيرةِ حفظ "كن أمون" مكانة معبدِه وإلهِهِ الخفيّ وحجزَ نصيبَه من الغنائم.

❊ ❊ ❊

كان هذا هو قوامُ جيشِ"تحتمس" الذي زحف من "تانيس" حتى وصل "دومفكات" التي كانت تنقسم إلى شمالٍ وجنوبٍ.. فشمالُها كان يسكنه "الهروشاتيو" أو أسيادُ الرمالِ كما يحبون أن يُطلقَ عليهم وكانوا يعملون في مناجمِ النحاس والفيروز.

أما الجنوبُ فكان يعيش فيه "المونيتو" وكانوا يشتغلون بالزراعةِ حول الآبار والينابيعِ، فيزرعون النخيل، والتين، والزيتون، وحدائقَ الكرومِ وأيضًا يرعون الأغنامَ على العشبِ المتناثرِ في الصحراءِ حولَ الآبار، وكانوا يرتادون أسواقَ وادي النيل؛ ليبتاعوا ما عندهم من صوفٍ وعسلٍ وصمغٍ ويستبدلوا بضاعتَهم بالحبوبِ والملابس.

عرجنا بعد دخولِنا أرضَ "دومفكات" على طريقِ "حورس" الحربي الذي كان طريقًا ممهدًا.. أراحنا قليلًا من تلك الأرضِ الوعرةِ التي كنّا نسير فيها حتى وصلنا بعد مسيرةِ يومٍ آخرَ إلى آخرِ نقطةٍ في حدود مصر الشرقيةِ، وبالتحديد عند قلعة "سيلة" فأمر "تحتمس" القائدَ "مين" بأن يأمرَ القادةَ والضباط أن تنصبَ الخيامَ ويرتاحَ الجنودُ والدوابُ من عناءِ تلك المسافةِ الطويلةِ التي قطعناها في زمنٍ قياسيٍّ. وقبل غروبِ الشمسِ جاء زعماءُ "الهروشاتيو" و"المونيتو" يقدمون فروضَ الطاعةِ والولاءِ للفرعونِ الذي استقبلهم بترحابٍ وإجلالٍ يليق بمكانتِهم؛ فلقد كانوا دائمًا هم خطُّ الدفاعِ الأول عن الحدود المصرية. عرض زعماءُ القبيلتين على"تحتمس" أن يختارَ من يشاء من أبنائهم للانضمامِ لجيشِه في حربه المقدسةِ ضد "ليوماس" وباقي شعوبِ البحرِ فعهد "تحتمس" للقائدِ "ماحو" بمهمةِ اختيارِ الفتيان الأشداءِ الذين يعرفون فنون القتالِ ولديهم درايةٌ بالقتالِ بالأسلحةِ؛ لينضموا إلى باقي الجيشِ ليرتفعَ عددُ جيشِ "تحتمس" إلى عشرةِ آلافِ وثمانِ مائة مقاتل.

بعد أن بتنا ليلتنا الأولى في "دومفكات" ومع بدايةِ إرسالِ "رع" لضوئه ليدحرَ جنودَ الظلامِ التي تراجعت أمام خيوطِ نورِه التي أعلنت بدايةَ يومٍ جديدٍ كنت قد انتهيت من إعدادِ عدةِ أثوابٍ من أجلِ "تحتمس"؛ ليرتديها.. دخلت إلى خيمتِه حاملًا الصدرةَ وهو عبارة عن ثوبٍ بسيطٍ بكمين قصيرين ويصل إلى الركبةِ ولا يوضع عليه حزامٌ وقصدت أن يكون فضفاضًا كي يستريحَ فيه ويمنحَه قدرةً على ترطيبِ جسمِه وتقليلِ الإحساسِ بالحرارةِ الشديدةِ التي تتميز بها أجواءُ "دومفكات" تلك الأرضُ القاحلةُ المقفرة.. وأول

ما بدا لي عند دخولي لخيمتِه أنه يبدو عليه أنه لم ينم ليلتَه الأولى رغم أن يدَ التعبِ والإعياءِ قد نالت من الجميعِ بشدةٍ ولكن يبدو أنَّ هذه اليدَ لم تصل إلى خيمتِه أو أنَّ هناك ما كان يشغل بالَه لدرجةٍ أنسته تعب هذه الرحلة الطويلة الشاقة.

نظر إليَّ "تحتمس" طويلًا دون أن ينطق بشيء ولأولِ مرةٍ -وربما كانت تلك هي المرة الأولي والأخيرة- التي أعرف ما يدور بداخلِه عندما نظرتُ مباشرةً إلى عينيه.. كانت تلك النظراتُ الثابتةُ ثبوبتَ حجارةِ الأهرامِ تُنبئُ بأنه قد توصل إلى قرارٍ خطيرٍ وأنه على وشك الإقدام على شيء سيغير مسارَ حياتِه وربما مسار حياة كلِّ المحيطين به بل ومسارَ التاريخِ بأكمله؛ فتلك النظرةُ التي رأيتُها في عينِ "تحتمس" في تلك اللحظةُ كانت هي نفسَ النظرةِ التي رأيتُها في عيني أبي عندما قرر وأنا في السابعةِ من العمر أن يترك المغزلَ والنولَ ويلتحقَ بجيشِ الفرعونِ السابقِ في حملته التي ذهبت لقمعِ التمردِ الذي حدث في بلادِ النوبةِ.. وقتها وقف أبي ليخبرَ أمي بقراره ونفس النظرة الجامدةِ في عينيه وكأن الجمودَ يصيب كلَّ خلايا الجسدِ عندما يتخذ الإنسانُ قرارًا مصيريًا، ويعقد العزمَ علي تنفيذه.

تقدمْتُ بضعَ خطواتٍ واضعًا الثوبَ علي مقربةٍ من سريرِه وتراجعت كي أغادر الخيمةَ، ولكنه استوقفني عندما سألني سؤالًا عجيبًا لم أفهم وقتَها، ما المغزى من ورائه وما الهدفُ منه فقال:

- ما معني الشجاعة يا حور ؟!

أحسست أني أمام موقفٍ مهيبٍ ويجب عليَّ أن أزنَ كلَّ كلمةٍ تخرج من لساني، وعلى الفور تذكرت كلماتٍ كنت قد سمعتها من فلاحٍ كان جاري في "صاو" وكنت أستمتع كثيرًا بالجلوس والحديث معه كانت لدية خبرةٌ كبيرةٌ بالحياةِ وكأنه ملكُ العارفين وخبيرُ عالمِ المعاناة، وكنا نجلس ذات مساءٍ في حقلةٍ نتناول زهورَ اللوتسِ المشويةَ التي كانت الطعامَ المحببَ لديَّ، تذكرت ما قاله لي ليلتها عندما سألته:

- من أشجعُ أولادِه من وجهةِ نظره..؟

وكان لديه خمسةُ أولادٍ.. كان أربعةٌ منهم أقوياءُ البنيةِ ضخامُ الحجمِ كلٌّ واحدٍ منهم قادر على جرِّ محراثٍ تجرُّه بقرتان معًا، أما الخامس فكان أقلَّهم حجمًا وكان في أغلب الأوقاتِ طريحَ الفراشِ لا يكاد يشفَى من مرضٍ حتى يداهمه مرضٌ آخرُ.. صمت الفلاحُ قليلًا وكأنه غواصٌ في بحرِ الحياة قد ذهب في رحلةٍ ثم عاد ليهديك جوهرةً ثمينة فقال:

- أشجع أولادي على الإطلاق هو ذلك الضعيفُ العليل باستمرار..!

وعندما رأى دهشتي أجابني بكلماتٍ أحسستُ أني قد اختزنتها في ذاكرتي لمثلِ هذا الموقف الذي أنا فيه الآن فنقلتها لتحتمس كما سمعتُها بالضبطِ فأجبته:

- قد نظن إنَّ الشجاعةَ مرتبطةٌ بالقوة البدنية وإنَّ من شروطِها الضخامةَ في الجسدِ والبنيةَ الصلبةَ الخشنةَ؛ غيرَ أنَّ هذا لا علاقةَ له بالشجاعة، فالشجاعةُ الحقيقة، خُلُقٌ باطنيٌّ من أعمالِ القلوب بل أصلُها

ومنشؤها ثباتُ القلب وصلابتُه في مواجهةِ المخاطر والتغلب عليها.. تلك هي الشجاعةُ الحقيقةُ.

ابتسم بملئ شدقيه وكأنه قد وجد بعد طولِ بحثٍ وعناءٍ الحجرَ الأخيرَ؛ ليكتملَ به بناءُ قراره المصيريّ ولم يعلق بكلمةٍ وتوجَّه ناحيةَ الثوبِ الذي وضعته على مقربةٍ من سريره وكأنه يخبرني أنه لم يصبح في حاجةٍ إليَّ، وقبل أن أغادرَ الخيمةَ قال دون أن يستدير ناحيتي:

- لتخبر "سات" ولتكون معها في خيمتِها لتسمعا ما سيدور بيني وبين القادةِ لمناقشةِ خطةِ الحرب التي وضعتها.

- أمر مولاي.

وتركت الخيمةَ ومضيت قاصدًا خيمةَ "سات" التي كانت ملاصقةً لخيمةِ "تحتمس".. دخلتُ على"سات" خيمتَها فوجدتها في حالةٍ من الهدوءِ والسكينة التامةِ مثل "إيزيس" إلهةِ الأنوارِ السماويةِ الحاملةِ لقرصِ الشمسِ ذاتِ الوجهِ الساطعِ الذي تنبعث منه أشعَّةُ مسراتِ الحياةِ وأفراحِها، كانت حالةُ الغرقِ في التأملِ تزيدها فتنةً وهيبةً، وكنت قد تعودت خلال الفترةِ التي لازمتها هي والحكيمَ "تيموس" على أنه عندما أجدها في تلك الحالةِ أن ألتزمَ الصمتَ حتى تبدأ هي بالكلامِ كي لا أخرجَها من صلواتِها فلقد أخبرتني أنَّ التأمُّلَ هو صلاةٌ عظيمةٌ تتيح للمرءِ إدراكَ حقيقةِ الأشياءِ من حولِه والتي لا يستطيع أغلبُ البشرِ الاستفادةَ من معانيها؛ فَمهما كانت الأشياءُ تبدو تافهةً أوغيرَ ذاتِ قيمةٍ، فالحقيقةُ أن لَّا

شيء في هذا الوجودِ عبثيٌّ بلا هدفٍ وغايةٍ محددةٍ وُجد من أجلها، التفتت إليَّ وكأنها قد فرغت من عبادة التأملِ وقالت بوجهٍ نشرَ الجمالَ أجنحته عليه:

- أُسعِدتَ صباحًا يا صانعَ الكتانِ..

أجبتها والابتسامةُ الهادئة التي تطبع علي وجهي بشكلٍ إلزاميّ لا إراديّ مني، وأنا في حضرتها:

- أسعدتِ صباحًا يا "سات" أين الطيبُ تيموس..؟

- جاءه أحدُ الضباط يشتكي إليه أنَّ كثيرًا من الجنود أصابت أقدامَهم الجروحُ والتقيحاتُ من طولِ المسافةِ التي قطعوها ووعورةِ الأرض التي حملتهم؛ فذهب لمساعدتهم..

- أخبرني الفرعونُ تحتمس بـ..... "

وقاطعتني بكل ثقةٍ:

- أعرف ما أخبرك به..!

حاولت أن أمارسَ شيئًا من طبعي البشريّ وأنا في تلك الحضرةِ الملائكيةِ علَّني أنتزع منها شيئًا ما بالحيلةِ والمكرِ، فقلت مرتديًا ثوبَ المكرِ ومُلتحفًا بعباءةِ الحيلةِ:

- آه.. ياله من غباءٍ..! لقد نسيت أن خيمتَك ملاصقةً لخيمتِه وحتمًا سمعتِ ما أمرني به.. أستميحك العذرَ..

ابتسمت ابتسامةً أم جاءها ابنُها يحاول أن يوهمَها بشيء ما كي يحصلَ منها على إذنٍ بالخروجِ برفقةِ أقرانه..؟ ورغم أنها على يقينٍ من أنه يحتالُ عليها، ولكنها تركته يمارسُ ألعابه الصبيانةَ:

• لا عليك.. فكلُّنا جُبِلْنا على النسيانِ..! ألَا تعلمُ لماذا طلب منك الفرعونُ ذلك..؟!

يبدو أن لعبتي الصبيانيةَ أعجبتها فأرادت أن ترخِيَ لي الحبلَ حتى طرفِه الآخرِ، وأنا بكلِّ سذاجةٍ جذبته بكلِّ قوة. فأسرعتُ قائلًا:

• أشعر يا "سات" أنَّ الأمرَ جدَّ خطيرٌ.. يبدو أنَّ الفرعونَ قد وصلته معلوماتٌ هامة بشأنِ جيشِ"ليوماس" وأغلبُ الظنِّ أنهم قد بدأوا الزحفَ إلينا.

فتساءلت قائلةً

• ولكننا مستعدون جيدًا أليس كذلك..؟!

غلبني القلقُ وحبُّ التشبثِ بالحياةِ، فقلت بنبرةِ طفلٍ مذعورٍ صَوَّرَ له خيالُه أنَّ هناك أشباحًا تحوم حولَه:

• أخشى أن يفاجئنا "ليوماس" وجيشُه بما لا نتوقعه، فيفسدَ خططَ الفرعونِ التي أعدَّها لمواجهته..

وبسرعةٍ كمن يمسك بطرفِ ثوبِ أمِّه التي أحسَّ بوجودِها فأسرع ناحيتَها؛ ليحتميَ بها من الأشباح:

• ولكني مطمئنٌ أنَّ الإله "تحوت" سوف يخبرك بكلِّ ما يخبئه لنا "ليوماس" فنفسد نحن خططه أولًا. أوليس كذلك يا "سات"؟!..

أغمضت عينيها وقالت بهدوءٍ:

• لا ليس كذلك يا حور.. "

اندفعت وكأني أجذب الجزءَ الأخيرَ من الطرفِ الآخرِ للحبل:

• لا..! لماذا أرسلك إذن..؟ ألم تقولي أنه أرسلك لتكوني مرشدةً للفرعونِ في حربه..؟

وفي تلك الأثناء انتبهنا علي حركةٍ داخل خيمةِ الفرعونِ، فتركت "سات" واندفعتُ ناحيةَ جدارِ الخيمةِ الفاصلِ بين الخيمتين، ووضعت أذني أسترقُ السمعَ فلقد عظُمت مخاوفي وكأنَّ اللعبةَ التي ابتدعتها قد انقلبت عليَّ وإنَّ الوهمَ الذي صنعته بداخلِ عقلي قبضَ عليَّ بكلِّ قوةٍ فأحسست أني قد صنعت جلادي بنفسي وكأنَّ "ليوماس" وجيوشَه بالفعلِ قد باتوا على بعدِ خطواتٍ منا وأنه قد أعدَّ خطةً غيرَ متوقعةٍ ستمكنه من هزيمةِ جيشِنا شرَّ هزيمةٍ، وسيكون مصيرُنا الهلاكَ المحققَ، فمن لن تطوله سهامُ جيوشِ"ليوماس" حتمًا ستفتك به تلك الصحراءُ القاحلةُ وستبتلعه الرمالُ العطشَى للارتواءِ من دمائنا. أوقف صوتُ القائدِ"ماحو" أسرابَ الوهمِ الذي يلتهمُ عقلي فلقد كان القائدُ "ماحو" هو البادئَ بالكلامِ في هذا الاجتماعِ الذي ضمَّ الفرعونَ "تحتمس" وقائدَ الجيشِ "مين" ورئيسَ الأسلحةِ "بتاح" . تحدث قائدُ فرقةِ العجلاتِ الحربية "ماحو" بكلِّ تباهٍ قائلًا:

• لقد أخبرني أبناءُ "الهروشاتيو" و"المونيتو" عن وجودِ بعضِ الآبارِ تبعد عنا مسيرةَ نصفِ يومٍ وأرى أن أُرسلَ بعضَ الجنودِ لردمِ تلك الآبارِ لحرمانِ جيوشِ "ليوماس" من الاستفادةِ منها والتمركزِ حولها.

تساءل "تحتمس" موجّهًا حديثه لقائدِ جيشِه متجاهلًا ما قاله "ماحو" ليهزمَ التباهي الذي ملأ نبرةَ صوتِه:

• هل نحن في الموقعِ الأمثلِ الذي يعطينا ميزةَ التفوقِ عند ملاقاةِ جيوشِ العدوِّ الخسيسِ أيها القائد "مين"..؟

بكلِّ ثقةٍ أجاب القائدُ"مين":

• بدون أدنى شكٍّ يا مولاي؛ فتلك البقعةُ الفسيحةُ ستسهل علينا التصدّي لهم بحريةٍ تامةٍ.. سيكون لدينا مرونةٌ في الكرِّ والفرِّ وأيضًا طبيعةُ الأرضِ الشديدةُ الوعورةِ التي تحيط بنا ستمنع جيوشَ"ليوماس" من الالتفاف حولنا لتطويقنا إن فكَّرَ في اللجوء؛ لذلك:

نزلت الكلماتُ من هذا الفمِ الكريهِ على مسامعي كالندى على أوراقِ الوردِ، فأنعشتها أيَّمَا إنعاشٍ؛ فقام "مين" بشرحٍ مستفيضٍ ومطولٍ لطبيعةِ المكانِ الذي يتواجد فيه الجيشُ وأنَّ هذه البقعةَ التي سنواجه فيها جيوشَ "ليوماس" ستمنحنا أفضليةً في الانتصار عليه بلا أدنى شكٍّ.. وبعدها توجَّه "تحتمس" بسؤالِه إلى قائدِ الأسلحة "بتاح" الذي أجاب وكأنه عجلةٌ حربيةٌ اندفعت من على منحدرٍ ساقطةً لأسفلَ بأقصى سرعتِها فتدافعت الكلماتُ من فمِه دونَ توقف:

• الجيشُ مسلَّحٌ بكلِّ الأسلحةِ والعتادِ الذي يحتاج إليها يا مولاي، أما بشأنِ العجلاتِ الحربيةِ فأودُّ أنَّ أزفَّ إلى مولاي الفرعونِ العظيمِ أنَّ الجيشَ أصبح يملك منها ما لم يكن موجودًا من قبلُ، وبخاصةٍ العجلاتِ الخفيفةَ السريعةَ فقد أصبحنا نملك منها المئات.. ومهما كان تسليحُ جيشِ العدوِّ فلن يكونَ بحجمِ تسليحِ جيشنا المظفر..

وساد الخيمةَ صمتٌ طويلٌ لدرجةِ أنه قد خُيِّلَ إليَّ أنَّ الاجتماعَ قد انتهى ولكني أدركت أنه لم يكن قد بدأ بعدُ، وكلُّ ما سبق كان مقدمةً ليس لها علاقةٌ بما يريد "تحتمس" إطلاعَ قادةِ جيشِه عليه، فكلُّ ما ألقوه على مسامعِه كان غيرَ ذي أهميةٍ لما قرره، ولكنَّه أراد أن يُفسحَ للرجالِ حولَه مساحةً للاستعراضِ والتباهي.

وعندما أفرغَ الرجالُ ما في جعبتِهم أخذ "تحتمس" زمامَ المبادرةِ فتوجَّه إليهم بسؤالٍ وكأنه يختبر رجالَه ليقيِّمَ مدى معرفتِهم بتاريخِ من سبقوهم؛ فالقائدُ من الممكن أن لَّا يكونَ على درايةٍ بأشياءَ كثيرةٍ بعيدةٍ عن فنونِ الحربِ إلّا التاريخ، فالقائدُ الذي لا يعرف جيدًا تاريخَ من سبقوه لميادينِ المعاركِ هو بكلِّ تأكيدٍ قائدٌ فاشلٌ مهما ادَّعى عكس ذلك، فكان سؤالُه المباغتُ للواقفين أمامه:

• كم من فرعونٍ سبقونا إلى أبوابِ المملكةِ الشرقيةِ حيث نقف الآن..؟

وبسرعةِ البرقِ قفز القائدُ "مين" ممتطيًا صهوةَ التاريخِ الذي كان بارعًا فيه براعةً لا يدانيه أحدٌ فيه:

• سبقنا الفراعنةُ العظامُ "سنفرو" الذي حارب ضدَّ الساميين الرُّحلِ حتى طردَهم شرَّ طردةٍ، وتبعه "أوسر كاف" ثم "سحو رع" وأيضًا كان هناك الملكُ "بيبي" الأول الذي أرسل قائدَ جيشِه المحاربَ العظيمَ "أوني" فقام بحملةٍ تأديبيةٍ ضد رؤساءِ الرمالِ، وأيضًا جاء إلى هنا الملكُ "سنوسرت"، ثم تبعه "سنوسرت" الثالث وأخيرًا الفرعونُ العظيمُ والمحاربُ الجسورُ جدُّكم "أحمس" قاهرُ الرعاةِ "الهكسوس" هو آخرُ من وقف هنا.

• وما معنى هذا أيها القادةُ العظام..؟"

وسريعًا أزاح القائدُ "ماحو" القائدَ "مين"من على صهوةِ جواده، فقال بكل ثقةٍ:

• معناه أنَّ كلَّ الأسماءِ العظيمة التي سبقتكم إلى عرشِ مصر سُطرَت أسماؤهم بأحرفٍ من ذهب؛ لأنها لم تترد في الدفاع عن أرض "كيمي" ضد الطامعين، وها أنت يا مولاي تبدأ عهدك بالسير على نفس الدرب لتضيف مجدًا جديدًا لأمجادِ العظماء.. سيخلِّده التاريخ بكلِّ تأكيد..

وببرودٍ كبرودةِ الثلجِ قال "تحتمس" لقادته:

• لقد تعلمتم التاريخَ ولكن لم تعملوا به..! وماذا بعد أن نتمكن من دحرِ "ليوماس" وهزيمتِه شرَّ هزيمةٍ..؟ هل سيضمن لنا هذا الانتصارُ ألَّا يجمعَ علينا جيوشَه مرةً أخرى ويعيدَ الكرةَ من جديد..؟

أجاب رئيسُ الأسلحةِ وكأنه يزفُّ إلى "تحتمس" خبرًا أعتقد أنه سيكون سعيدًا به:

• ذلك قدرُ مصرَ زهرةِ العالمِ المضيئةِ الذي يجذب رحيقُها دائمًا الطامعين..ولكنهم أبدًا لن يُفلحوا في نيل ما يسعَون له.. تلك حقيقةٌ راسخةٌ رسوخَ الأهرامات..

• ولماذا لا نفكر في شيء يقضي على هذا الخطر الذي يحوم حولنا باستمرارٍ كتمساح لا يغلق فمه أبدًا وينتظر اللحظة التي ستغفل فيها فريستُه فيلتهمُها..؟ لماذا لا نفكر في تغيير هذا القدرِ المحيطِ بمصرَ..؟

وبنبرةِ استفسارٍ يغلِّفها القلقُ تساءل القائدُ"مين" :

• وكيف لنا بتغيير الأقدار يا مولاي..؟

• أرى أن الدماء التي سنبذلها ونحن واقفون هنا هي نفس الدماء التي سنبذلها في أي مكان أخر..!

عاود "مين" التساؤل مجددًا ولكنَّ النبرةَ فى تلك المرةَ كانت قد طغى عليها القلقُ:

• أظنُّ أننا لم نفهم ما قصدته جلالتُك بالتحديد..؟. هل سمح جلالةُ الفرعونِ بأن يطلعنا علىما يدور في رأسه..!

بحسمٍ قطع "تحتمس" الخيطَ الفاصل بين الشكِّ واليقين؛ ليطلقَ على الجميعِ صواعقَ لم يتخيلها أحدٌ قطُّ، فقال كلماتِه الأخيرةَ التي كانت أحدَّ من السيف الذي قطع به كلَّ الألسنةِ دفعةً واحدةً:

• لن أنتظرَ جيوشَ"ليوماس" لتأتي هي إلينا؛ بل سنذهب نحن إليهم..

وعلى الفورِ التفت مرعوبًا ناحيةَ "سات" متذكرًا كلماتِها في خيمةِ "تحتمس" ونحن مازلنا في "تانيس" عندما قالت: إن الرحلةَ ستطول لأبعدَ من بواباتِ المملكةِ.. شعرتُ أننا نندفع بقوةٍ ناحيةَ المجهولِ لخوض حربٍ أشعل "تحتمس" فتيلها، حربًا يصل لهيبها حقًا بين الأرضِ والسماء.

-٨-

• طريق المهالك ١٤٥٨ قبل الميلاد.

ماتت كلُّ المحاولات التي تبناها القائدُ مين محاولًا إثناءَ "تحتمس" عن قراره المفاجئِ والغريب للخروج لملاقاةِ "ليوماس" وجيوشِه.. بدأت أولى المحاولاتِ عندما طلب القائدُ "مين" متوسلًا من "تيموس، وسات" أن يحاولا إقناعَ "تحتمس" بالعدولِ عن قراره الخطيرِ هذا، وشرح لهما بالتفصيل عواقبَ ومخاطر هذا القرارِ، وللحق كانت كلُّ مخاوفِه في محلِّها ولكنَّ "تيموس، و"سات" اعتذروا بكلِّ حزمٍ عن القيامِ بتلك المهمةِ دون أن يبديا أسبابًا، وعندما أيقن "مين" أنَّ "سات، و"تيموس" لن يكونا الجسرَ الذي يُوصِّلُه لغايته.. فعرج سريعًا على طريقٍ آخرَ فتوجَّه قائدُ الجيشِ صوبَ "كن آمون" الذي كان يوافقه الرأيَ على أنَّ تلك الخطوةَ التي اتخذها "تحتمس" خطوةٌ خطيرةٌ فيها الكثيرُ من التهوّرِ والاندفاع، ورغم مشاركةِ "كن آمون" لرأي قائدِ الجيش إلا أن حسابات نصيبِ معابد "آمون" التي ستتأثر كثيرًا في حالةِ انتصار "تحتمس" ومحالفة الحظِّ له في خطوته المجنونة تلك جعلت "كن آمون" يتراجع للأمام، فهرع سريعًا نحوَ خيمةِ"تحتمس" وأبدى أمامه استعداده للخروج معه حتى أقاصي الأرضِ كما قال، ورغم أنَّ "تحتمس" خيَّره بين المضي معه أو البقاءِ هنا والعودةِ إلى"طيبة" وحاول -وأظنه كان صادقًا- أن يرفعَ الحرجَ عن الكاهن "كن آمون" وطمأنَه أنه لن ينسى أبدًا إصرارَه على مرافقة الجيشِ حتى

"دومفكات" إلا أنَّ أمثال "كن آمون" عميد المحتالين لا يوجد في قاموسِه شيءٌ اسمُه العهد، فلم يجد أمامه إلا أن يُظهِرَ عكسَ ما كان يُضمر ويرافق الفرعونَ مرغمًا بشهوةِ البقاء في دائرةِ الضوءِ إلى أبعد نقطةٍ يصل إليها حتى يضمنَ الفوزَ بالنصيب الأكبرِ من الغنائم.

صدرت الأوامرُ بتحرك الجيشِ من قلعةِ "سيلة" في اليومِ الخامسِ والعشرين من الشهرِ الرابعِ من فصولِ الشتاء مخترقًا الصحراءَ الوعرةَ يقودهم الفرعونُ الشابُّ الذي قرَّر أن يذهب بجيشه إلى حيث لم يسبقه أحدٌ من قبله.

تحرك الجيشُ والجميعُ يشعر أنه يسير نحوَ المجهولِ؛ فما يأخذنا نحوه "تحتمس" شيئًا لم يختبْره الأقدمون لنأخذَ منه العبرةَ ونتعلَّمَ ما الأخطاءُ التي عساهم أن يكونوا وقعوا فيها فنتجنبَها وما الصوابُ الذي فعلوه فنحذوا حذوَهم ونسيرَ على دربِهم فيه، فأكبرُ عدوٍّ على الإطلاقِ بالنسبةِ للإنسان هو المجهولُ، ولكنَّ الأعمالَ العظيمة تكتسب عظمتَها من كونِها هي السابقةُ التي تتمُّ فيها مهاجمةُ الأُسسِ المعروفةِ وتحطيمُها والبدءُ في البناءِ من جديدٍ، وأعتقد بأنَّ هذا هو ما كان يطمح إليه "تحتمس" وهدفه الذي نتحرك صوبه، ولكنْ ليس الجميعُ على نفسِ الدرجة من الشغف للمخاطرةِ؛ فأغلبُ الظنِّ أنَّ بني البشرِ يميلون أكثرَ للمألوفِ ويتجنبون بكلِّ إصرارٍ المجهولَ الذي يظلُّ بالنسبةِ لهم وحشًا غيرَ مروَّضٍ سيفتك بهم ولكن بمجردِ أنْ يتمَّ ترويضُه من أحدٍ يتحوَّلُ هذا الوحشُ بحكمِ العادةِ والأُلفةِ إلى قطٍّ يتخبط بين الأقدام.

بدأ الهمسُ الحائرُ يدور بين الرجالِ وكأنه حجرٌ دوَّارٌ بلا انقطاعٍ، فكان الجميعُ سواءً، مَن كان ابنَ مدينةٍ أو قرويًا.. سواءٌ كان رأسُه نشطةً أو خاملةً.. سواءٌ كان قائدًا أوضابطًا أو جنديًا، حتى لَيُخَيَّلُ إليَّ أنَّ الدوابَ كانت هي أيضًا تتهامس وتُناقش فيما بينها هذا القرارَ بلغتِها الخاصةِ التي لا نفهمها، كان الجميعُ يعاني الخوفَ من هذا القرارِ الغامض الخطير بكلِّ المقاييس، وكان لدى الجميعِ كلُّ الحقِّ، فلم يسبق أن سار الفرعونُ على رأسِ جيشِه لمهاجمةِ الأعداءِ في أراضيهم؛ فلقد جرت العادةُ بأن ينتظرَ الفرعونُ عدوَّه على حدودِ المملكةِ المصرية سواءٌ كانت الحدودَ الشرقيةَ أو الجنوبيةَ ويعيدهم مدحورين من حيث جاءوا ثم يعود لأحضانِ وادي النيلِ الفسيح وأحضانِ أبناءِ شعبِه وأكاليلُ الغارِ علي رأسِه. ولكنَّ الفرعونَ تلك المرةَ قَلَبَ المعادلةَ رأسًا على عقبٍ؛ فلم تُسجِّل النقوشَ على جدرانِ المعابد قطُّ ولم نقرأ في أي برديةٍ في أيِّ معبدٍ من معابدِ مصرَ أنَّ أحدًا من الفراعنةِ فعل ذلك من قبل، ويبدو أنَّ سببَ ذلك كان أنَّ أبناءَ مصرَ عندما يسمعون صوتَ الرعدِ القادمَ من السماءِ خلف الأهراماتِ العظيمةِ يسعدون بذلك أيَّما سعادةٍ؛ لأنهم يعرفون أنَّ هذا إنما يعني بركةَ المطرِ، فهم يعيشون بشكلٍ مباشرٍ ضمنَ معرفةٍ أمنة بأنَّ الآلهة في المعابدِ سوف تعتني بهم وسيُلَبُّون كلَّ احتياجاتِهم فها هو الفيضانُ يأتي كلَّ عامٍ محملًا بالخير معلنًا في كلِّ مكانٍ البهجةَ معلنًا للجميع في كلِّ مكانٍ أنهم قد صاروا ضامنين خبزَ العامِ القادم، ولكنَّ "تحتمس" اختار تخطِّي الحدودَ الآمنَةَ؛ فلقد كانت رغبتُه الجامحةُ وشغفُه غيرُ القابلِ للخمودِ لتحقيقِ ما لم

يسبقُه إليه مخلوقٌ غيره يدفعانه للأمام في اتِّجاه طريقِ المواجهةِ رافضًا الاستماعَ لأيِّ وجهةِ نظر أخرى.

❊ ❊ ❊

وبعد مسيرةِ ثلاثةِ أيامٍ بدأت الأرضُ الوعرةُ التي كانت تحملنا تتغيَّر طبيعتُها من أرضٍ مليئةٍ بفتاتِ الصخورِ وبقايا الحجارةِ المتكسرةِ ذات الحوافِّ المدببةِ التي نبتت بها الأشواكُ التي كانت تُدمِي الأقدامَ. إلى أرضٍ رمليةٍ شديدةِ النعومةِ كأننا نسير في البحرِ؛ فمهما كان وزنُ مثلي حتمًا ستغوص قدماك في الرمالِ ليتحولَ المشيُ فوق تلك الرمالِ كالتحرك فوق أرضٍ صمغيةٍ.. فكلُّ خطوةٍ نخطوها تحتاج إلى مجهودٍ مضنٍ مُحطِّمٍ للأعصابِ مدمِّرٍ للسيقان وعلى الفورِ أسرع أبناءُ "الهروشاتيو" للقائدِ "مين". يحذرونه من مواصلةِ السيرِ في تلك الرمال الناعمةِ؛ فهم لديهم خبرةٌ بطبيعةِ أرضِ الصحراء ومسالِكها ودروبِها، فهم أبناءُ تلك الطبيعةِ ومن نبتِها وأكَّدوا له أنه من الممكن أن تبتلعنا هذه الرمالُ داخلها؛ لذلك يجب علينا التوقفُ فورًا والعودةُ إلى "دومفكات" حفاظًا على أرواحِنا من هذا الطريقِ المُهلكِ، فنحن لن نقوَى على مواصلةِ السيرِ فيه أكثرَ من يومٍ أُخَرَ على الأكثرِ::! وبعده ستنفُقُ منَّا الخيولُ والدوابُّ وستطمسُنا الرمالُ تحتها بكلِّ تأكيدٍ، ورغم موافقةِ القائد "مين" على كلِّ ما ذكره أسيادُ الرمالِ من أبناء "الهروشاتيو" ورغبتِه القاتلة في العودةِ حفاظًا على أرواحِ أبناء

الجيشِ إلا أنه قد أيقن أن السهمَ قد خرجَ من القوسِ ولا مجالَ لإعادته مرةً أخرى فسلَّم أمرَه لِـ"آمون" وأيقن أننا هالكون لا محالة.

كان الجيشُ عالقًا في هذه المحنةِ الكئيبةِ كسربٍ ضلَّ طريقَه في الظلمةِ التي يبدو أنه لا خروجَ منها، وبدأت قُوى الرجالِ والدوابِّ تخورُ ويتسرَّبُ إليهم جميعًا اليقينُ بأننا على مشارفِ الهلاكِ المحققِ.. حقًا إنَّ الخروجَ من وادي النيلِ مغامرةٌ مهلكةٌ، ولكننا مجبرون بالسير خلف الإنسانِ الذي لا يكلُّ مطاردةَ حلمِه أبدًا.. استجمعتُ كلَّ ما تبقَّى لي من قوةٍ وحاولت أن أصلَ إلى"سات" التي كانت تسبقُني ببضعِ خطواتٍ كي أرجوها أن تبتهل إلى الإله "تحوت" وتتضرع إليه علَّه يسمعها؛ لننجوَ من هذا الهلاكِ المحققِ، ورغم أنَّ كلَّ خطوةٍ في تلك الرمالِ الملعونةِ هي العذابُ بحدِّ ذاتِه إلا أنني كنت مُصرًا على اللحاقِ بها متحديًا المشقةَ رغم التعبِ المضني الذي حلَّ بي، ولكن قبل أن أصلَ إليها توقفتُ فجأةً عندما رأيتُ الأجواءَ من حولي يتبدل لونُها إلى الاحمرارِ بسرعةٍ كبيرةٍ ومن تحتِ قدمَيَّ تتطايرُ حبيباتُ الرمالِ مرتفعةً، وكأنَّ شيئًا يسحبها لأعلى وإذا بي أرى أمامي جدارًا مُموَّجًا يميل لونُه إلى الاحمرارِ وهو يتحرك نحونا بقوةٍ وسرعةٍ مخيفةٍ جعلتِ الدوابَّ والخيولَ من حولنا في حالةِ هياجٍ شديدٍ، ولولا أقدامُها المغروسةُ في الرمالِ لأطلقت سيقانَها للرياحِ هربًا من ذلك الجحيمِ،كان كلُّ شيء من حولِنا في حالةِ فورانٍ وبلا نظامٍ بسببِ صخبِ العاصفةِ التي تقترب منَّا مسرعةً:

- اللعنةُ عليك يا تحتمس..

كانت تلك هي الكلماتُ التي خرجت من أفواه كلِّ من كان يحيط بي ونحن نرى تلك العاصفةَ المخيفةَ، والتي توشك على التهامِنا وهي تقتربُ منَّا..! طرأ على عقلي سؤالٌ غريبٌ وهو: إن كانت الطبيعةُ قاسيةً إلى هذا الحدِّ فلماذا نحن مطالبون بأنْ نكونَ رحماءَ..؟ أولسنا أبناءَ تلك الطبيعةَ..؟! وقبل أنْ أجدَ إجابةً لسؤالي أفقت على صوتِه الجهوريّ يشقُّ الجموعَ التي تستعد لتُلاقِي هزيمتَها من تلك العاصفةِ المرعبةِ.. فعلًا صوتُه صوتُ العاصفةِ.. كان "تحتمس"يصيح بأنْ تقتربَ الصفوفُ من بعضِها وتتلاحمَ الأجسادُ وأن نربطَ أنفسَنا بأقربِ رجلٍ إلينا أو أقربِ دابةٍ منَّا كي نُشكِّلَ ثقلًا لا يُمكِّنُ العاصفةَ من حملِنا في طريقِها.. أرسلتُ عينيَّ بنظرةِ غريقٍ يبحث عن طوقِ نجاتِه وكان طوقُ النجاةِ الذي أرسلتُ عينيَّ بسذاجةٍ أبحثُ عنه كان "كن آمون" متمنيًا في تلك اللحظةِ أن يكونَ هو أقربَ الرجالِ مني؛ فلن أجدَ أثقلَ منه في الجيشِ كلِّه لأربطَ نفسي معَه كي لا تحملَني العاصفةُ في طياتِها، فبوزني وحجمي هذا سوف أكونَ صيدًا سهلًا لها..! ولكن خاب ظني ولم تعثر عيني على "كن آمون". وفي شدةِ انزعاجي وخوفي فلقد كنت في الحقيقةِ أقف أرتعد من الرعب. اللعنةُ الأبدية ستمتلكُ روحَك يا "تحتمس" فبِسبب حماقتِك وشغفِك بحلمِك جلبْتنا إلى هنا، كان الغضبُ والخوف يحرقني وأنا أرى الموتَ يقترب لا يفصلني عنه أيُّ شيء، وفجأةً ودفعةً واحدة أُخمِدَتْ كلُّ براكين الخوفِ والغضب التي كانت متفجرةً بداخلي عندما لامست يدي تلك الأناملُ الرقيقةُ التي شعرتُ بها تمسكُ بيدي وتضغط عليها فعرفتُ على الفورِ أنَّ تلك اليدَ الحانيةَ التي احتوت يدي هي يدُ "سات" فَسَرتْ في أوصالي رعشةُ طمأنينةٍ طردت كلَّ

الفزعِ والرعب الذي تملَّكني وبعدَ أنْ كنت أنتفض خوفًا من أن تبتلعَني العاصفةُ تمنيت بشدةٍ لو فعلتِ العاصفةُ معي هذا المعروفَ وحملتني أنا و"سات" إلى أرضٍ بعيدةٍ ليس فيها أحدٌ سوانا. أنا وهي فقط.

لا أعلم ما الوقتُ بالتحديدِ الذي أخذتْه العاصفةُ حتى تجتازَنا، فلقد كنت غارقًا في حلمِ أني أصبحتُ أنا و"سات" في أرضٍ لم يطأْها قبلَنا أحدٌ، وكأننا نُعيد أسطورةَ الخلقِ من جديدٍ؛ حيث بدأ كلُّ شيء من اتحادِ الإله "جب" بالآلهةِ "نوت".

حقًا إنَّ أكثرَ شيء يستمد منه المرءُ معارفَه المريرةَ هي السفرُ لأرضٍ مجهولةٍ..! فلقد كانت تلك التجربةُ التي مررنا بها في هذا اليومِ العصيب مضنيةً مريرةً بحق؛ إلا أنني كنت الوحيدَ من بين عشرةِ آلافِ رجلٍ الذي كنتُ أشعر بعكس ما كان يشعر به كلُّ من كان حولي؛ فلقد شعرتُ أني الشخصُ الوحيدُ الذي إبتسمتْ له المصاعبُ والأهوال ووضعته بالقربِ من "سات" لتتحولَ المحنةُ إلى منحةٍ -وما أجملَها من منحةٍ حصلت عليها-.

قدَّمتْ لنا العاصفةُ هديةً لم نكن نتخيلُها على الإطلاق، فلقد رفَعَتْ معها كمياتٍ هائلةً من الرمالِ الناعمةِ التي كانت تعوق قدرتَنا على التحركِ لتتركَ لنا الحصى والحجارةَ الكبيرةَ، ورغم أنها كانت تدمي الأقدامَ إلا أنها كانت في كلِّ الأحوالِ أرحمُ من تلك الرمالِ الناعمةِ الملعونة.

❊ ❊ ❊

بدأ الليلُ القاهرُ يَشيدُ إمبراطوريتَه فوقنا، إمبراطوريةٌ مظلمةٌ رطبةٌ وملأى بالرجفاتِ، فصدرت الأوامرُ أنْ نتوقف؛ لأننا سنبيت ليلتَنا هنا.. فافترش الجنودُ الرمالَ ولم يكن هناك ما يلتحفون به إلا السماءَ كي يلتمسوا قليلًا من الراحةِ وأيضًا لترتاحَ الخيولُ والدواب.. كنا بحقٍّ منهكين، مطحونين، معذبين ورغم ذلك كانت البرودةُ القارسةُ التي غزت الرمالَ تمنعنا من النومِ وتمنيت لو تبزغ الشمسُ لتنقذنا بحرارتِها من لسعاتِ هذا البردِ الأصمِّ القاسي.. مع أننا كنا ندعو في النهارِ أنْ يُسرعَ الليلُ بخطواته نحونا؛ لنتخلصَ من حرارةِ الشمسِ.. هكذا نتمنى في الصيفِ وكذا النقيضُ في الشتاءِ، فاذا تحققت رغبتُنا شعرنا بالندم.

جلس الرجالُ ملتصقين لعلَّ حرارةَ الأجسادِ تخفف قليلًا من شدَّةِ هذا البردِ.. كنت أريد النومَ بشدةٍ أكثرَ مما أريد الحياةَ، وتصادف أن وجدتُ أنَّ من يجلس ملتصقًا بي هو الرجلُ الذي كان مسئولًا عني أثناء انضمامي لطائفةِ النساجين، ورغم قِصَرِ المدةِ التي قضيتُها في العملِ تحت إمرةِ هذا الرجلِ إلا أني كنت أُكنُّ له مودةً كبيرة لبشاشةِ وجهِه ودماثةِ أخلاقِه؛ وقد خفف لقائي بهذا الرجلِ الذي أحاول جاهدًا تذكُّرَ اسمِه، ولكنَّ ذاكرتي تأبَى هذا.. فالمهمُّ أنَّ وجودَه بقربي بعث في نفسي قليلًا من الدفءِ لتنتعشَ أوصالي قليلًا وأتناسَى شيئًا من هذا البردِ القارسِ، ولكنني لاحظت نبرةَ شجنٍ وحزنٍ كبيرٍ مع كلِّ كلمةٍ تصلُ إليَّ منه، فحاولت أن أخففَ عنه وكنت أعتقد أنَّ الوضعَ الذي نحن فيه هو السببُ في هذا الحزنِ..! فلا شيء يبعث علَى الحزنِ أكثرَ من العجزِ وأنت تصارع كالعجائزِ قُوى الطبيعةِ الفتيَّةِ الغاشمةِ وتجرجرُ على الأرضِ الوعرةِ خلفك ذكرياتِ حياةٍ كنت

تملك فيها زمامَ أمرِك، ولكنه أخبرني أنَّ ما يُحزنُه ليس هو الوضع الذي نحن فيه؛ إنما هو بسببِ أنَّ صديقنا "تيتا" لم تُكتب له النجاةُ من العاصفةِ التي أبت أن تمضي فارغةَ اليدين فأخذته معها.

وقع الخبرُ على صدري كصخرةٍ ثقيلةٍ حطمت أضلاعي، فقلت:غيرُ مستوعبٍ هذا الخبرَ المشؤم.

• "تيتا" ذلك الشابُّ الوسيمُ الذي كانت لديه قدرةٌ عجيبة علي رسمِ الابتسامةِ على وجوهِنا ونشر الفرحِ بيننا كأنه رسولُ آلهةِ السعادةِ والمرح في الأرض..

فهزَّ رأسَه تأكيدًا لكلامي وتركني أحترق بنيرانِ الحزن والألمِ من وقعِ هذا الخبرِ المشؤم، فمن قابل "تيتا" حتى ولو لمرةٍ واحدةٍ لن يستطيع نسيانَه أبدًا بقيَّةَ حياته.. إنه كائنٌ ينشر السعادةَ أينما حلَّ.. لا أحدَ يدري من أين أتى بتلك المقدرةِ الفريدة وهذا الحسِّ الصارخ من خفةِ الظلِّ التي تجعله يُحوِّلُ أيَّ موقفٍ وكلَّ موقف مهما كان إلى مادةٍ للفكاهة التي تجعل أضلاعَك تكاد تنفجر من كثرةِ الضحك، ولحُسنِ حظي ظللت ملازمًا له طوال الفترةِ التي قضيتها في خيمةِ النساجين ونحن في "تانيس" كنت أجد متعةً كبيرةً في رفقته؛ فهو لا يتوقف عن الضحكِ في أيِّ مكانٍ حتى في الجنازات كما أخبرني ذاتَ مرةٍ؛ لذلك لا يسيرُ في أيِّ جنازةٍ على الإطلاق..! وعندما كنت أنظر في وجهِه وهو نائمٌ كنت أري ابتسامتَه لا تفارقه وكأنه يغوص في بحرٍ من الأحلامِ السعيدة المبهجة، وفي إحدى المراتِ سألته: هل حياته رائقةٌ صافيةٌ إلى هذا الحدِّ الذي يجعله لا يتوقف عن الضحكِ

وإضحاكِ كلِّ من حوله..؟ فصمت وعيناه الجميلتان يشعُّ منهما شيء طيبٌ منعشٌ كالندى ثم قال:

- سأعطيك لمحةً عن حياتي..

وعلمتُ منه أنه هو العائلُ الوحيد لأسرتِه المكونةِ من أُمِّه الكفيفةِ التي فقدت بصرَها من كثرةِ الحزنِ والبكاءِ لفقدانِ أبيه الذي كان يعمل صيادًا ومزَّقه أحدُ تماسيحِ النهرِ وتركه هو يُصارع الفقرَ والعوَزَ وفوقَ كتفِه يحمل عبءَ ثلاثةِ شقيقاتٍ كانت إحداهنَّ مصابةً بعاهةٍ جعلتها قعيدةً إلى الأبدِ وإنه يعمل في مغزلِ خالِه الذي لا ينفكُّ يُعَيِّرُه طوال الوقتِ ويُؤنِّبُه بفقرِه وفقرِ أبيه الذي لا دخلَ له فيه..! صعقت عندما علمت بكلِّ تلك المآسي التي يعيش فيها "تيتا" ورغم ذلك يبدو لمن لا يعرفه أنه أسعدُ مخلوقٍ على وجهِ الأرضِ..! ساعتَها نظر إليَّ وأطلقَ ضحكةً ملأت الفضاءَ من حولي.. ضحكتُه التي كانت تشعُّ صريحةً وكبيرةً ومازال صداها يرنُّ في أُذني إلى الأن، وأخبرني أنَّ الدنيا مخزنُ غلالٍ ممتلئٌ ببذورِ الحُزنِ اللا نهائيِ وأنَّ حياتَنا لا تنفكُّ تُلهبُنا بسوطِها فتُدمي قلوبَنا وأرواحنا ونظلُّ منذ أنْ نَشِبَّ حتى نُساقَ إلى المقبرةِ تربةً خصبةً وعميقةً لهذه الأحزان التي تزدهر سنابلُها بداخلنا ونظلُّ بكلِّ حرصٍ وغباءٍ نرويها بقطراتِ الدموعِ ونرعاها بالهم ونظل نعيشَ دائمًا تحت سماءٍ رماديةٍ كئيبةٍ من غيرِ أن نُفكِّرَ أبدًا أنْ نهزمَ هذه المآسي والظروفِ التي تبتلعُنا بداخلِها، ولكني قررت أن أجعلَ قلبي أرضًا جدباءَ لا ينبت فيها الحزنُ..! وأكمل وهو يواصل ضحكاتِه:

• هل تعلم أنَّ في كلِّ مرةٍ تضحك فيها من قلبك توجِّهُ صفعةً مؤلمةً للحزن..؟. لا تتوقف عن الابتسامةِ يا صديقي، فالضحك هو الدواءُ السحريُّ القاهر لكلِّ مآسينا وظروفنا وهو القادر على هزيمةِ جحافلِ الحزن؛ لذلك لن أمنحَها متعةَ الانتصارِ المستمر عليَّ أبدًا، بل إني سأُخرج لساني لها وسأُغرقُ المرارةَ بفيضانِ المرحِ والضحك ما دمت حيًا، ولن أنقطعَ عن نشرِ سنابلِ السعادةِ لتحلِّقَ القلوبُ بعيدًا عن هذا العفنِ السقيمِ المسمَّى بالحزن".

أفقتُ من ذكرياتي مع "تيتا" عندما سقطت دموعي الحارةُ على قدمي التي كادت تتجمَّدُ من البرودةِ . شعرتُ أنَّ الحياةَ لم تعد تتحتمل كلَّ تلك الصفعاتِ التي كان يوجِّهُهَا لها "تيتا" فقررتْ أن تتخلصَ منه وهاهي قد ارتاحت أخيرًا عندما قتلت رمزَ البهجةِ والسعادة..! اللعنةُ على تلك الحياةِ التي تتعمد قتلَ أيِّ شيء يدعو للثورةِ على الأحزانِ ليُخلِّصَ البؤساءَ من تعاستِهم.. اللعنةُ على الحربِ التي تكون سببًا في قتل هذه الزهرةِ المتفتحةِ التي كانت تُسمَّى "تيتا".. ما ذنبُ أُمِّه الكفيفةِ وشقيقاتِه اللائي ينتظرنَ الآن في "أبيدوس" بفارغِ الصبرِ قدومَ شقيقِهم وعائلِهم الوحيدِ.. من قال: بإنَّ الحربَ تقتل نفسًا واحدةً..؟! لا وحقِّ الآلهةِ.. إنها عندما تقتل شابًا فهي بذلك تقتل وراءَه ما لا يقلُّ عن شخصين أو ثلاثةٍ أخرين.

أشرقت علينا شمسُ اليومِ الجديد وقد بتُّ ليلتي في كمدٍ وحزنٍ لم أشعر بهما من قبلُ.. طاف في خيالي المصيرُ الأسودُ الذي ينتظر أمي وشقيقتي "أوبت" إذا أصابني ما أصاب "تيتا".. لترقدْ روحُك في سلامٍ أبديٍّ يا من

أدخلت الفجرَ في القلوب المعتمةِ بالحزن.. سلامًا أيها الكائنُ الصافي الحالم "تيتا".

❊ ❊ ❊

ورغم أننا كنا في حاجةٍ إلى المزيدِ من الراحةِ إلا أنَّ توقُّفَنا في تلك الليلةِ منحنا بعضًا من استعادة القُوى الجسديةِ والعقليةِ لمواصلة السير.. بدأنا نعيد تنظيمَ الصفوفِ كما أمرَ الضباطُ لمواصلةِ الزحف مرةً أخرى، وبعد السيرِ لمدةٍ لم تتجاوز نصفَ النهارِ بدأت طبيعةُ الرمالِ التي نسير عليها تتغير مرةً أخرى وبدأتِ الأرضُ تدريجيًا تنحدرُ بينا حتى وجدنا أنفسَنا بفعلِ الانحدارِ الشديدِ للرمال نسير في منخفضٍ تحيط بنا الكثبانُ الرميلة البيضاءُ من ثلاثِ جهاتٍ؛ أمَّا الجهةُ الرابعةُ فكانت طريقًا منبسطًا يحدُّه من اليمين ومن اليسار أبنيةٌ كثيرةٌ ولكنها متهالكةٌ تكاد تتداعَى وتتساوى بالأرض ولكنَّ شيئًا ما يمنعها من هذا الفعل.. كنت ما أزال لم أتخلص من أحزاني على فراق العزيزِ "تيتا" وأسير بلا وعيٍ بين الصفوفِ وإذ بِـ"سات" تمسك يدي ويدُها الأخرى تتوجَّه نحوَ صدرِها محاولةً كتمَ شهقةِ فزعٍ خرجت منها فألتفتُ نحوها لأرى في عينيها نظرةً تُعبّرُ عن انفعالٍ شديدٍ فسألتها مسرعًا:

- ماذا حلَّ بكِ..؟

أجابت وصدرُها يعلو ويهبط من شدةِ الانفعال:

- ابقَ مكانك.. لا تتحرك..

وتركتني وأسرعت مخترقةً الرجالَ متوجّهةً ناحيةَ "تحتمس" الذي يتقدم الصفوفَ فوق عجلتِه الحربيةِ فتوقف عندما رآها تهرول ناحيتَه ونزل من فوقِ عجلتِه، وبالتالي توقَّف الجيشُ من خلفه ونظراتُ الجميعِ معلَّقةٌ ناحيةَ "سات" و"تحتمس" الذي بدت عليه علاماتُ الدهشة تلتها علاماتُ التفكيرِ والإنصات العميقِ؛ كما بدا على "سات" من خلالِ حركةِ يديها وذراعيها التي تطوّحُها في الهواء أنها تخبره بشيء هامٍّ وخطيرٍ للغاية وأنا أقف وعقلي محمومٌ مشوَّشٌ لما يحدث محاولًا أن أفهمَ شيئًا، وبعد أن فرغت "سات" من كلامها استدعى"تحتمس" القائدَ "مين" والقائدَ "ماحو" والقائدَ "بتاح" وقادةَ الجنودِ المشاةِ، وبعد أن تحدثَ معهم صدرت على الفورِ الأوامرُ الصارمةُ بالتالي :

• سوف يتغير تشكيلُ الصفوفِ؛ ليمشي كلُّ ثلاثةِ رجالٍ معًا متجاورين وغيرُ مسموحٍ لأيِّ أحدٍ أن يخاطبَ زميله أو يتفوَّهَ بأيِّ كلمةٍ مهما كانت حتى نعبرَ ذلك الطريق..

وتمَّ التأكيدُ علي هذا الأمرِ العجيب بأنه غيرُ مسموحٍ وتحت أيِّ ظرفٍ أن يتحدَّثَ أحدٌ مع زميلهِ، وإنَّ مَن يخالف ذلك فسيُعرِّضُ نفسَه للموتِ الفوريِّ بضربةٍ من سيفِ الضابطِ المسئولِ عن كلِّ مجموعة، والأغربُ من هذا أنه تمَّ إصدارُ الأوامرِ لكلِّ الجنودِ أن يُكمّمُوا أفواهَ الدوابِ بوضعِ كمماتٍ على أفواهِها تمنعها من أيِّ شيء عدا التنفس.

وفي أثناء إعادةِ تشكيلِ الصفوفِ مرةً أخرى وتكميمِ أفواه الدوابِّ من خيولٍ وحميرٍ وماشيةٍ اقتربتُ من "سات" محاولًا أن أفهمَ منها حلًّا لتلك

الألغازِ المتواليةِ والتي تبثُّ الرعبَ في النفوسِ وما وهذه التعليماتُ الغريبةُ..؟ وما سببها..؟ فأخبرتني:

• إننا سنعبرُ مدينةَ الأرواحِ المعذبةِ..

سألتها وأنا أرتجفُ من الخوفِ عن سرِّ هذا الانفعالِ الشديد الذي يمتلكها، فأخبرتني بقصةِ هذه المدينةِ قائلة:

• لقد كانت تلك الأرضُ قديمًا واحةً يملؤها الحبُّ وترفرفُ السعادةُ بجناحيها على كلِّ ساكنيها.. يغمرهم شعورٌ بالرضا انعكس على كلِّ شيء في حياتِهم الهانئةِ الجميلة، فلم يكن أحدٌ من أهلِ هذه الأرضِ يعرفُ معنى الشكوى أو التذمُّرِ أو الضيقِ.. كان الكلُّ قانعًا وراضيًا بما وهبته لهم الآلهةُ التي كانت في أشدِّ درجاتِ الرضى عنهم؛ لأنهم كانوا يعيشونَ بسموٍّ وسلامٍ فوهبتهم كلَّ النعمِ ولم تُصِبْهم بأيِّ نوعٍ من صنوفِ التعبِ والمشقةِ التي يتكبَّدها بنو البشرِ عادةً في حياتهم، ولكن لأنَّ الإنسانَ بطبعه متمردٌ أحمقٌ حدثَ وأنِ استحوذَ على قلوبهم الفجورُ وأعلنوا التمردَ على هذه النعمِ التي وُهِبتْ لهم، فبعدَ أنْ كانت مدينتُهم عامرةً بالرخاءِ انطلقوا بكلِّ قوةٍ في طريقِ الخطايا المقيتةِ فبدأوا يقتتلون فيما بينهم بوحشيةٍ مخربين الطبيعةَ الجميلةَ التي وُهِبتْ لهم ودمروها بكلِّ فجورٍوغباء ووصل عبثُهم مداه عندما تعمَّدوا قتلَ الحيواناتِ والأرواحِ البرئيةِ التي تعيش معهم بهدف التسليةِ وإشباعِ رغبةِ القتلِ التي سيطرت على نفوسِهم.. كأنَّ حشودًا من الشرِّ تُعربدُ في عقولِهم فارتكبوا كلَّ ما هو بشعٌ وفظٌّ وقذرٌ.. فلم تحتملِ الآلهةُ كلَّ هذه الخطايا فحكمت عليهم باللعنةِ وبأنْ تُحبسَ أرواحُهم في ذلك المكانِ لا يغادرونه أبدًا. وإنَّ هذه الأرواحَ قلقةٌ جدًا وتعيش في حالةٍ من

السُّباتِ ولا تقبل أن يقلقَ عزلتَها الكئيبةَ أحدٌ، ومن يفعلْ ذلك حتى ولو لم يكن متعمِّدًا فهي من سيقضي عليه على الفورِ؛ فهي أرواحٌ شريرةٌ قاسية،لذلك يجب أنْ نمرَّ دونَ أن نُحدثَ أيَّ جلبةٍ أو ضوضاءَ..

وفي لحظةٍ شعرت بالندمِ للتصميمِ على فهمِ هذا اللغزِ؛ فأحيانًا كثيرةً يكون عدمُ الفهمِ مريحًا جدًا.

بدأنا في السيرِ نحوَ مدينةِ الأرواحِ المعذبةِ.. كان الجنودُ يمشون بعضُهم إلى جوارِ بعضٍ على رِسلِهم دونَ أنْ يجرُأَ أحدُهم على مخاطبةِ زميلِه بكلمةٍ، بل كانوا يسيرون كأشباحٍ متعاقبةٍ بوجوهٍ مكدودةٍ متجهّمةٍ..تلقَّتْنا رائحةُ نتنِ الأوراقِ المتعفنةِ التي رقدت في المستنقعاتِ المنتشرةِ على جنباتِ الطريقِ وإلى جانبِ بركِ المياه النتنةِ تلك تنتصب المباني مهجورةً وصفوفُ أعمدةٍ منعزلةً وكأنه معبدٌ قد تمَّ تحطيمُه على عجلٍ وأطلالُ جدرانٍ يكسوها اللونُ الرماديُّ الباهتُ وبدأ المشهدُ وكأنك واقفٌ على بوابةِ عالمٍ شبحيّ تسكنه الأحزانُ التي لم تجد لها مكانًا وسط عالمِ البشر؛ فكان لزامًا عليها أن تبقى هنا لتندبَ حظَّها العاثرَ وتنتظرَ دورَها عندما ترحلُ السعادةُ عن بعضِ المدنِ لتحلَّ ضيفًا ثقيلًا عليها. شعرت ساعتَها وأنا أتحرك وقلبي منقبضٌ كأنه قطعةُ إسفنجٍ تضغطُها أصابعٌ غليظةٌ أني وجدت إجابةَ سؤالٍ كان يطاردني كالبعوضِ البغيضِ.. لماذا تحلُّ الأحزانُ دائمًا ضيفًا ثقيلًا عندما يحطُّ رحالَه، ولماذا يأبى الرحيلَ سريعًا..؟ عرفت الآن أنه في حالةِ رحيله لن يجدَ له موطنًا غيرَ هذا المكانِ البشعِ الذي نقف نحن على أبوابه؛ لذلك هو يأبى الرحيلَ عندما يستوطن مكانًاآخرَ رافضًا بكلّ إصرارٍ العودةَ إلى موطنِه الأصليّ هنا.. وللحقّ هو معذورٌ..! فلا أحدَ يجرؤ على

العودةِ إلى هنا حيث كلُّ شيء في هذا العالمِ قد انقرض وحلَّت به لعنةٌ من القاعِ السحيقِ لعالمِ اللعنات، ونشر السكونُ والصمت أجنحتَهما علينا حتى باتت أنفاسُنا هي ما تُحدث الضجيجَ في هذا المكانِ البشعِ، ومع أقلِّ حركةٍ كانت تتقشر بقايا الجصِّ وتسقط قطعٌ من الحجارةِ من الجدرانِ المتداعيةِ كأنها زمجرةٌ غاضبةٌ من تلك الأرواحِ التي أُلقِيَ بها في غياهبِ هذا الجحيمِ..! ومع كلِّ خطوةٍ نخطوها في ذلك الطريقِ ونتعمق بداخلِه أكثر يصبح الجوُّ حارًا ثقيلًا وتصبح أيُّ محاولةٍ للتنفس بشكلٍ طبيعيٍّ أو التلَمُّسِ لبعضِ الهواءِ الباردِ ضربًا من ضروبِ المستحيلِ، ومن خلالِ شقوقِ الجدرانِ المتهالكةِ كانت تتسربُ أبخرةٌ قاتمةُ اللونِ كانت تخترق بروائحِها البشعةِ أجسادَنا، والغريبُ جدًا أنَّ ضوءًا يُشبه ضوءَ الشمسِ كان يغمر هذه الأطلالَ من حولنا ولكنني اكتشفت أنه ليس ضَوءَها؛ فضوءُ الشمسِ دائمًا ما يكون مصحوبًا بالدفءِ الذي يمنح حواسَّكَ الإذنَ بالعودةِ للحياة ولكنَّ هذا ضوءٌ كئيبٌ إذا بقيت فيه فترةً فسيسلب منك رُوحَك بلا أدنى شكٍّ وقبلَ أن أفهمَ ما هو هذا الضوءُ، ومن أين مصدرُه أُصبتُ بالفزعِ الشديدِ عندما رأيتُ أفعى تخرج من شقوقِ في الجدرانِ متوجِّهةً ناحيةَ البحيرةِ لتغرقَ في مياهِها الراقدةِ.. كان مكانًا مرعبًا بحقٍّ ولم يكن أمامنا إلا أنْ ننفذَ التعليماتِ كما أخبرتنا مرشدتُنا "سات" التي بدونِها لم نكن لنستطيعَ على الإطلاق عبورَ ذلك الطريقِ الذي كان سيلتهمُ أروحَنا بكلِّ تأكيد.

❊ ❊ ❊

وبعد أنْ عبرنا مدينةَ الأرواحِ المعذبةِ تلك أحسسنا أنَّ أرواحَنا كانت رهينةً ورُدَّتْ إلينا مرةً أخرى..!؛ لذلك غمر الجميعَ إحساسٌ كبيرٌ بالراحة، وتوجَّهت العيونُ صوبَ "سات" تشكرها ممتنةً لها أيَّما امتنانٍ، وعندما اقتربتُ منها لأُعبّرَ لها عن شكريَ الخاصِّ إذا بها تخبرني أنْ أُوفِّرَ هذا الشكرَ حتى نعبرَ الطريقَ الأخيرَ؛ فهو أصعبُ من الطريقِ الذي خرجنا منه.. غارت حواسِّي كلُّها في الأرضِ عندما قذفت في وجهي هذا الخبرَ المرعبَ فسألتُها مسرعًا:

- عن أيِّ طريقٍ تتحدثين يا "سات"..؟

فأشارت بيدها ناحيةَ طريقٍ لم تستطِع هضبةٌ عاليةٌ أن تحجبَ رؤوسَ الأشجارِ النابتةِ فيه من الظهور. وبعد أن عبرنا تلك الهضبةَ العاليةَ بدت أمامنا تلك الأشجارُ التي تمنح النَّفْسَ شعورًا تلقائيًا بالكآبةِ.. وقف "تحتمس" على عجلتِه الحربيةِ مخاطبًا جيشَه ليخبرَهم أننا سندخل إلى تلك الغابةِ التي ستقودنا إلى هدفنا الأخيرِ الذي جئنا من أجلِه، وطلب من الجميعِ أن يلتزم بما سيقولُه حرفيًا، وكانت تعليماتُ "تحتمس" التي تلاقَّها من "سات" تتلخَّصُ في الآتي:

- سوف تقابلنا داخلَ تلك الغابةِ مجموعةٌ من الحشراتِ الغريبةِ التي لم نرَ مثلَها من قبلُ؛ وأنا أحذركم جميعًا من أن يعترضَ أحدُكم طريقَها.. دعوها تمرُّ دون أن يرفعَ أحدٌ يدَه ناحيتَها محاولًا إبعادَها عنه؛ فأيُّ محاولةٍ لإبعادِها سيكونُ مصيرُها الفشلَ..! بل إنها ستتجمَّعُ وتهاجمُ

من يحاول إبعادَها؛ فحفاظًا على حياتِنا يجب التحلّي بالصبرِ وتنفيذِ ما أمرتُكم به الآن..

فهزَّ الجميعُ رأسَه بالموافقةِ، وحاولنا التماسكَ كي نجتازَ هذه المحنةَ الأخيرةَ.. كان الرجالُ في الحقيقةِ يعانونَ وضعًا مأساويًا؛ فلا نكاد نخرج من محنةٍ حتى ندخلَ في أخرى أشدَّ منها وطأةً.. لم يعد هناك في الحقيقةِ أيُّ انشغالٍ أو اهتمامٍ بالمعركةِ الكبيرةِ التي خرجنا من أجلها؛ فكلُّ تفكيرِنا كان مُنصبًّا على معركتِنا مع هذا الطريقِ الذي يعذبنا بصبرٍ وإصرارٍ لا مثيلَ لهما ويأبى أن نخرجَ منه أحياء.

بدأنا في التحركِ عبْرَ الغابةِ الكثيفةِ الداكنةِ وفجأةً هبط علينا المساءُ، وقبل غروبِ الشمسِ التي تركناها خلفنا من لحظاتٍ وبمجردِ أن لامست أقدامُنا أرضَ الغابةِ حتى هبَّتْ علينا رياحٌ غريبةٌ تنشر حولنا سكونًا من نوعٍ لم آلَفْهُ من قبلُ.. خُيِّلَ إليَّ أنه سكونُ القبورِ؛ حيث الحياةُ قد فرَّتْ مذعورةً وحلَّ محلَّها السكونُ الأبديُّ برهبتِه الموحشةِ، وفجأةً حدث ما حذَّرنا منه "تحتمس" وكنَّا في ترقبٍ وانتظارٍ له منذ اللحظةِ الأولى، فهاجمتنا أسرابٌ من الخنافسِ الطائرةِ، فوقفنا جميعًا مذعورينَ من منظرِها فهي ليست كالخنافسِ التي نعرفها في مصرَ..هي تقريبًا أكبرُ قليلًا من العصفورِ وأصغرُ من الهددِ.. وقفنا متسائلين عما يجبُ علينا فعلُه غيرَ إبعادِها.. لأننا نعرف أنَّ محاولةَ إبعادِ تلك الخنافسِ الطائرةِ الغريبةِ سيجعلُها تتجمع حولنا أكثرَ فأكثرَ حتى تلتهمَنا؛ لذلك كان علينا أن نتركَها تمرُّ في سلامٍ، ولكنَّ هذا المرورَ لم يكن مصحوبًا بالسلامِ أبدًا فلقد كان يرافقه العذابُ والألمُ

متمثلًا في تلك الأصواتِ المزعجةِ التي كانت تخرج منها، فقد كانت كفيلةً بأنْ تُحدِثَ ثقبًا في أُذنك تشعرُ به في مؤخرةِ رأسِك وكأنها موجةٌ رعديةٌ تُحدث اهتزازاتٍ عنيفةً داخل جمجمةِ رأسِك تجعلك ترتجفُ بعنفٍ شديدٍ..وكان في حكمِ المؤكدِ أنَّ بقاءَ هذا الوضعِ حتمًا سيتسبب في انفجارِ أدمغتِنا في أسرعِ وقت؛ لذلك تحتَ وطأةِ هذا الوجعِ الحادثِ في الأدمغةِ حاول بعضُ الرجالِ إبعادَ هذه الخنافسَ عنهم؛ فكان ما رأيناه مفزعًا بحقٍّ فبمجردِ أن لامست يدُ الجنديِّ تلك الحشرةَ حتى تراجعت للخلفِ قليلًا ثمَّ بسرعةِ البرق انقضَّت عليه ومعها أعدادٌ هائلةٌ من بني جنسِها الملعونِ.. هذا وما هي إلا برهةٌ قصيرةٌ للغايةِ حتى استحالَ الجنديُّ الذي كان يقف أمامنا بكاملِ شحمِه ولحمِه إلى هيكلٍ عظميٍّ لا أثر لقطعةِ لحمٍ كانت تكسوه..! وبسرعةٍ أمسكت "سات" بطرفِ ثوبِها ومزقته وبنفسِ السرعةِ التقطت قطعًا من الطينِ اللزجِ من الأرضِ ووضعته في طرفِ الثوبِ الممزقِ ووضعت قطعتين في أُذنها وعلى الفورِ قمنا واحدًا تلوَ الآخرِ بنفسِ ما فعلته "سات" فحشونا آذَنَنا بقطعِ الطينِ اللزجِ ليتوقَّفَ هذا الهجومُ الوحشيُّ ولنشعرَ بأنَّ أروحَنا كانت على وشكِ أن تغادرَ أجسامَنا ولكنَّها قد رُدَّت إلينا قبل سقوطِ آخرِ حبةِ رملٍ من الساعةِ الرمليةِ؛ فانقطع تمامًا الصوتُ المدوّي المفجّرُ للأدمغةِ الذي كان يصدر من تلك الخنافسِ المتوحشة.

وبدأنا في مواصلةِ التحركِ داخلَ الغابةِ، وكلَّما واصلنا التقدمَ تزدادُ الظلمةُ وكأنها دائرةٌ كلَّما تقدمتَ خطوةً اكتملت إحدى حلقاتِها، وعلى مبعدةٍ رأينا ضوءًا يتأرجح متقدمًا نحونا فحاولنا التقدمَ مسرعينَ ناحيتَه، ولكنَّ انتزاعَ أقدامِنا من هذا الطينِ اللزجِ عمليةٌ محطِّمةٌ لأعصابِ وأوتارِ

القدمين؛ غيرَ أنَّ الرغبةَ في مغادرةِ هذه الغابةِ كانت أقوى من هذا الطينِ اللزجِ الذي يُعيق الحركة.

وبمجردِ أنْ نخرجَ سالمين من تحتِ طغيانِ تلك الغابةِ المقيتةِ لا نقدر على أيِّ شيء سوى السقوطِ على الأرضِ غيرَ مصدقين أننا رغم كلِّ هذه المهالك ما زلنا على قيدِ الحياة.

- لماذا أخذتَنا نحوَ هذا الطريقِ المليءِ بالمهالكِ واللعنات يا "تحتمس"..؟ لماذا..؟

أكاد أجزمُ أنَّ كلَّ مجدِ الدنيا لا يساوي شيئًا أمام تلك الأهوالِ والمصاعبِ التي تكبَّدناها.. فلقد كان اجتماعًا عظيمًا للقيامِ بتوزيعِ العذابِ والرعبِ على الجميعِ بالتساوي لنتحولَ إلى كائناتٍ بائسةٍ رخيصةٍ لا ثمنَ لها؛ فلا شيء يميتُ الروحَ أكثرَ من العذاباتِ المتواليةِ ورغم أني أشعرُ الآنَ بالخزي الشديدِ والآلامِ المبرحةِ من تذكرِ تلك الرحلةِ المرعبةِ إلا أني لا أستطيعُ إلا أن أستعيدَ مرارتَها فلقد تعاهدتُ ألا أخفيَ شيئًا مهما كان مؤلمًا ".

-٩-

- **بلدة "يحم" ١٤٥٨ قبل الميلاد.**

لا أهميةَ على الإطلاق أن يأتي الموتُ من السماءِ أو من تحتِ الأرضِ؛ فهو حينما يأتي من أيّ مكانٍ يكون وحشًا هائلًا مرعبًا.. لم يكن الجيشُ الذي تحرك من قلعةِ "سيلة" في اليومِ الخامسِ والعشرين من الشهرِ الرابعِ من فصولِ الشتاءِ مخترقًا الصحراءَ الوعرةَ ومنها مررنا بتلك الطرقِ المرعبةِ التي اختطفت بعضًا منَّا، ورغم أنَّ العددَ الذي فقدناه لم يكن كثيرًا إلا أنَّ مجردَ التفكيرِ في خسارةٍ ولو كانت روحًا واحدةً كان هذا مؤلمًا بحقٍّ، لم يكن هو ذلك الجيشَ الذي وصلت طلائعه في اليومِ الحادي عشرَ من الشهرِ الأولِ من فصولِ الصيفِ إلى بلدةِ "يحم"، فلقد كشفت لنا تلك الرحلةُ عن سلاسلَ من الحسراتِ والتجاربِ الممزوجةِ بكلّ البشاعاتِ فأصبح أملي الوحيدُ هو عدمَ المعرفةِ، عدمَ التعلم، عدمَ الإحساسِ بأيّ شيء إلا بتمسكنا بهذه الحياةِ رغم كلّ شيء هو تمسُّكٌ لا يصيبه السأمُ أبدًا.. في هذا اليومِ نزلَ جيشُ "تحتمس" سيدُ الحياةِ، إلى البريةِ الخضراءِ الشاسعةِ ذات التلالِ الوعرةِ كان المناخُ في تلك البقعةِ التي نزلنا فيها مختلفًا عن المناخِ الذي اعتدنا عليه في مصرَ الحارةِ دائمًا معظمَ أيامِ السنة؛ أما هنا حيث الفضاءُ أكثرُ زُرقةً وعمقًا كان الجوُّ معطرًا بالفواكِه وبأوراقِ الشجرِ حيث كلُّ شيء هادئٍ وأشجارُ الزيتونِ منتشرةٌ على التلالِ من حولِنا حقًا كان كلُّ شيء نقيًّا وساطعًا.

أمر "تحتمس" الجيشَ بأن يضربَ خيامَه في تلك البريةِ الخضراءِ معلنًا أنها ستكون قاعدتَنا للانطلاقِ نحوَ هدفِنا الأخيرِ الذي زحفنا كلَّ تلك المسافةِ من أجلِه.

شعر الجميعُ بلا استثناءٍ أننا في الفردوسِ وأنَّ تلك الطرقَ المرعبةَ التي ممرنا بها كانَ لابدَّ من المرورِ بها حتى نصلَ إلى هذا الفردوسِ حيثُ الجوُّ المعتدلُ واللونُ الأخضرُ الذي يحيط بنا من كلِّ جانبٍ والذي منحنا قدرًا كبيرًا من الراحةِ وساعدنا على التخلصِ سريعًا من مرارةِ وتعبِ الأعصابِ الذي صادفناه في تلك الرحلةِ الموحشةِ بحق.

أينما كان.. على البحرِ أو على الأرضِ في أجواءٍ من مشتعلة أو تحت سماءٍ بيضاءَ صافيةِ الزُّرقةِ لا يعرف "تحتمس" شيئًا اسمُه الراحةُ.. إنه كنيلٍ وحشيٍّ، فتي، مندفعٍ، مجنونٍ، ذي عنفوان، لم تهزمه المسافات كنيلِ مصرَ.. وبمجرد وصولِنا وعلى الفورِ بعد أن التقط الجنودُ والضباطُ أنفاسَهم وبدأوا في التخلصِ من آثارِ الرحلةِ الطويلةِ المرهقةِ أرسل "تحتمس" بعضَ أبناءِ "المونيتو" الذين كانوا يجيدون التخفّي بما لديهم من قدرةٍ على التقصّي ليقفوا على مواقعِ العدوِّ ومكامنِه ثم يعودوا إليه سريعًا حاملين كلَّ ما علموا به عن جيوشِ "ليوماس".

❊ ❊ ❊

ومع انحدارِ ضوءِ النهارِ الأولِ علينا في "يحم" نزلت سهامُ الليلِ فغشيت الوادي فابتلعته في جوفِ الظلمةِ وحلَّ سكونٌ عظيمٌ في الأجسادِ المتعبةِ من عناءِ الزحفِ الطويلِ.. دفعني الفضولُ كي أرى الليلَ في تلك البريةِ الخضراءِ، فجلست عند مدخلِ خيمتي أنظر إلى الجبلِ وفي عزلةِ السهولِ ووميضِ النجومِ غمرتني أحاسيسُ معقدةٌ كتلك التي تتصارع في قلبِ الإنسانِ في الساعاتِ المهيبةِ للحياة.

وفي تلك الأثناءِ انتبهتُ على صوتِها الحاني يأتيني من كلِّ الجهاتِ في وقتٍ واحد..! كان صوتُها كقطراتٍ مسكرةٍ سقطت على مسامعي فأصابت أطرافي رعشةٌ خفيفةٌ وكأنَّ جيوشًا من النملِ تغزوني فتدغدغ مشاعري.. قائلةً:

- هل تسمح لي بمشاركتي لك تلك اللحظةَ يا "حور"..؟!

لم ألتفت إليها.. فقد كان يكفيني شعوري بقربِها مني في هذا الوقتِ الساحرِ؛ فلقد منحني هذا الشعورُ لذةً أكبرَ من لذةِ النظرِ إليها وكأني أردت أن أدعَ مخيلتي ترسمُ لي صورتَها كيفما تشاء.. من يدري.. ربما هي تجلس الآن بجواري وهي ترتدي ثوبًا شفافًا يكشف ما تحته من كنوزٍ مخبئةٍ..! أغمضت عيني ليزدادَ استمتاعي بخيالاتي المتوقدةِ التي أطلقتُ لها العنانَ الجامحَ..

بالفعل يا عزيزتي "سات" أنت ترهقينني فوق كل الحدودِ وبلا أي رحمةٍ، يا عزيزتي الغاليةُ كيف تريدين أن أُفكرَ فيكِ..؟ أراكِ الآن تسترخين على أقمشةٍ في رهافةِ بشرتِك.. تنامين مستسلمةً للحبِّ الذي لا مفر منه إلا اليه، إلا إلى حبي العميقِ العذب الذي يصعد نحوك مثلَ فيضانٍ النهر في

أوجِ قوتِه فأرى عينيك تحدقانِ فيَّ مثلَ نمرةٍ غير مروضةٍ امتزجت فيها البراءةُ المتوحدةُ بالشبقِ اللا نهائي.. ذراعيك اللتين تتطوحان في الهواءِ وساقيك النيليتين وفخذيكِ الناعمين كالنور متماوجين يمرَّانِ أمام عيني فأزحف كجريحٍ نحوَ كنوزكِ التي لم تعد دفينةً..! وعيناك الجميلتان متعبتانِ فلتبقي طويلًا دونَ أن تفتحيهما حيثُ تفاجئك اللذةُ لتشعلَ روحكِ بصواعق الشهواتِ المتقدةِ لتجعلكِ أفعى متلويةً على نيران العشقِ لتنطلقَ كلُّ هذه التنهداتِ الصغيرةِ التي تملأُ قلبَكِ فتأتينَني فاتنةً قويةً معطرةً بنيرانِ الأنوثةِ مصبوغًا مراتٍ ومراتٍ بلعابِكِ الرقيقِ فأمتصُّ منهما رحيقَ الحياةِ حتى أذوبَ في حرارتِهما للأبدِ.. آآآه..! لا تُطفِئي شعلاتك.. فلتُدَفِّئي قلبي البارد.. يا أيتها الشهوةُ المعذبةُ الملتهبة ، فلتستجيبي لتوسلاتي ولتكوني دائمًا أميرتي.. أيتها الحبُّ العفيفُ كيف يمكن التعبيرُ لكي عمَّا أحملُه.. يا حبةَ العنبر الكامنةَ بين ضفَّتي كتابِ الطقوسِ المقدسة.. يامن تصنع فرحتي وتوهُّجي.. أنتِ النقية.. أنتِ المعبودُ الخالدُ.. سلامًا لكِ في كل العصور والأزمان سلاما لك في الحياةِ وفي الخلودِ:

- قلبك مفعمٌ بأكثرَ مما يحتمل يا حور..

لفحتني كلماتُها بسوطِ الحقيقةِ فأحسست بالشوكِ يغوص في جمجمتي، فلم أملك إلا أن أطوّحَ ظهري للخلفِ، وأخرجت تنهيدةً أحسست معها أنها ستشعل النارَ في البريةِ الخضراءِ وقلت والخطُّ الفاصلُ بين الوعي واللاوعي يوشك على الانقطاعِ:

• إنها بلدةٌ رائعةٌ.. هل هي كذلك..؟! أم أنه الغرام إلى بلدٍ نجهلُه فيبدو لنا للمرةِ الأولى أنه نعيمٌ، ولكنَّ الحقيقةَ غيرُ ذلك، ووراءَ هذا النعيمِ جحيمٌ لا يُحتمل..؟

لم أشعربعدها بأيّ شيء.. هل كانت ما تزال واقفةً..؟ أم أنها هربت من خيالي الجامحِ الذي هو بالتأكيد اخترق روحَها فأحسَّتْ به..؟ لا أدري ماذا حدث..؟ ولكنني أعترف: لن أنسى ما حييتُ سكراتِ النشوةِ التي عشتُها في تلك الليلةِ الساحرةِ..!.

صدقت "سات" فيبدو أنَّ قلبي كان مفعمًا بالفعلِ بأكثرَ مما يحتملُ؛ فلقد هاجمتني أعراضٌ مرضيةٌ غريبةٌ لم أُصبْ بها من قبلُ، فبعد تلك الليلةِ التي سحرتنا بالنشوةِ كنتُ أشعر بنبضاتِ قلبي تتسارع بشكلٍ كبيرٍ مع إحساسي الدائمِ بالدوارِ وبالتعبِ الشديد في أيّ حركةٍ أقوم بها وغزتْ أطرافي برودةٌ جعلتني أرتجف بشدةٍ وأصبحت غيرَ قادرٍ على الحركةِ نهائيًا.. ظللت في خيمتي لا أغادرُها وليس لديَّ أيُّ قدرةٍ على الحركةِ، وبعد مرورِ يومٍ كاملٍ على بقائي في خيمتي على غيرِ العادةِ -فأنا كثيرُ الحركةِ أحبُّ الانتشارَ والتواجدَ في كلّ مكانٍ- جاءت "سات" لخيمتي لتعرفَ ما سرُّ هذه الغيبةِ غيرِ المعهودةِ، وعندما رأت ما بي من أعراضِ الوهنِ والضعفِ الشديدِ استدعت على الفورِ الطبيبَ "تيموس" الذي حضر على عجلٍ وترك ما كان منهكًا فيه حيث إنَّ العديدَ من الجنودِ والضباطِ قد أُصيبوا بأمراضٍ مختلفةٍ نتيجةَ تلك الرحلةِ المرعبةِ من "دومفكات" حتى وصلنا إلى هنا، وعندما استمع إلى ما أُعانيه من تلك الأعراضِ أخبرها بأني مصابٌ بعِلَّةٍ

مُسمَّاةٍ "واح" يعني أنَّ لديَّ فقرٌ في كميةِ الدمِ المفترضِ أن تكونَ بداخلِ جسمي وعلى الفورِ وصف لها العلاجَ الذي يجب أنْ آخذَه كي أتماثلَ للشِّفاءِ مما أعانيه.. أن تطبخ ما مقداره ٣٣/١ تين. ٨/١ ملح بحر. ٨/١ خبز صابح.٣/١ حب عرعر يطبخُ ويصفَّى ويُؤخذُ على أربعةِ أيام.. أربعةُ أيامٍ والملاكُ "سات" تعتني بي لا تفارق خيمتي إلا في المساءِ، وقبل أن أستيقظَ تَحضُرُ إلى خيمتي.. كان وجهُها هو أولَ ما تتفتح عليه عيناي..أحسست أننا مخطئون في الحكمِ على الأشياءِ من حولِنا وأننا نستدعي الغضبَ والتذمُّرَ من كلِّ محنةٍ تمرُّ بنا دونَ أن نتريَّثَ لنرى الحقيقةَ كاملةً.. للحقيقةِ أنَّ وراء كلِّ محنةٍ منحةً، ولكن لا نشعر بها فستائرُ المحنةِ تمنعنا أن نرى المنحَ المخبأةَ في طياتها..أربعةُ أيامٍ ورغم ضعفي الذي أثَّر على قدرتي على التحدثِ كثيرًا إلا أنه رغم ثقلِ الكلماتِ كانت مراقبةُ عيني المستمرةُ لها كانت تغني عن أيِّ كلماتٍ.. كانت "سات" وبحقٍّ متجددةً كلما أمعنت النظرَ إليها تكشَّف لك شيءٌ جديدٌ من سحرها.. إنها حقًا جميلةٌ مثل اللهب، مثل ثمرةٍ معطرةٍ بالبراءة، مثل البحرِ حين يسبح فيه القمرُ عاريًا.. اكتشفت أنني لم أكن أحتاج مطلقًا لوصفةِ الطبيب "تيموس" فقربُها كان وحدَه هو الذي كان يشفيني.. في كلِّ مرةٍ كانت تلتقي عيني بعينيها كنت أشعر أنها تفتش في أسرارِ قلبي فتصلني نظراتُها كنسمةٍ رقيقةٍ لتلقي بحبِّها الذي استقرَّ في قلبي كصخرةٍ أُلقيَ بها في قاعِ النهرِ لتستقرَّ فيه إلى الأبد.. وفي صباحِ اليومِ الثالث؛ ذلك اليومُ المشهودُ الذي لن أنساه ما حييت؛ ذلك اليوم الذي رقد فيه مريضَ فقرِ الدمِ لا يقوى على شيء كانت هي من تتولَّى عني كلَّ شيء حتى أنها كانت تطعمني بيدها.. كانت عيناي تتفحصان كلَّ خليةٍ في وجهها..

أحسست أنَّ الأرضَ والسماءَ تبتسمانِ لي وتضيئُ في أعماقِ روحي شمسٌ سيظلُّ دفؤها بداخلي إلى الأبد عندما نظرت في عيني.. لتشعلَ نيرانها أفكارًا قرأتها جيدًا وكأنها تقرأ في كتابِ الطقوسِ السحرية ثم منحتني أعظمَ هديةٍ تلاقيتها في حياتي منحتني قبلة.. يااااه.. يالروعةِ هذا الشعورِ الذي مازال قلبي يرتجف كلما مرت ذكراه.

منحتني قُبلةً لتوقظَ في حقولِ الورود وتدفعَ الهمومَ إلى الرحيلِ وتأمرَ موسمَ الحصادِ بالنماءِ وتستدعي الربيعَ حسب مشيئتها.

كما أنَّ الموتَ مسألةٌ لحظيةٌ.. كذلك كانت السعادةُ التي وهبتني إياها "سات" .. لحظةٌ عندما لامست شفتاها شفتَيَّ، حقًا إنَّ أعظمَ قصصِ العشقِ وأصدقَها تلك التي لا يقول فيها العاشقان لأحدهم كلمةَ "أحبك" سقط كلُّ شيء من حولي، سقط الوجع، سقط الحزن، سقط الخوف، سقط الموت، سقط الآلم، العالمُ بكلِّ ما فيه سقط ولم يبقَ منه إلا شيء واحدٌ وهو "سات".

كنت في حلمٍ، ولكن للأسفِ الشديدِ الأحلامُ لا تدوم أبدًا..استيقظتُ من حلمِ قُبلةِ "سات" علي قدوم زائرٍ لم أكن أتخيل زيارتَه لي أبدًا لقد حضر "تحتمس" بنفسِه ليطمئنَّ على خادمِه "حور".. بمجرد أن دخل حاولت جاهدًا النهوضَ -فلا يجوز في حضرة الفرعون أن أظلَّ ممدًا وهو يقف أمامي- فأشار إليَّ ألا أُجهدَ نفسي.. نزل من عرشِه السماوي وجلسَ بجواري.. من أنا، ومن أكون كي يمنحني ابنُ "آمون" وسيدِ الأرضين هذا الشرفَ..؟ وبابتسامةٍ أشرقت بها روحي قال:

- لقد افتقدنا وجودَكَ يا صانعَ الكتان..

حاولت أن أجيبَ ولكنَّ هيبةَ"تحتمس" والمفاجأةُ التي أحدثها حضورُه غيرُ المتوقعِ جعلتني في حالةٍ من الارتباكِ وعدمِ المقدرةِ على ترتيبِ كلماتي فتولت ملاكي ومحبوبتي الردَّ عليه قائلةً:

- عمَّا قريبٍ سيعود..

نهض "تحتمس" من جواري وتقدم إلى "سات" وأمسك بيدِها ونظر في عينيها قليلًا وكأنه يريد استكشافَ شيئًا ما قائلًا:

- أيهما سيعود أولًا يا عزيزتي سات..؟ هو أم رُسلي..؟

قالت بثقةٍ: من يعرف الأشياءَ المخبأةَ خلف أستارِ الغيبِ.

- لن يعودوا؛ فلقد هلكوا.. فلتُسرع بإرسالِ رُسلٍ جددٍ..

باستفسارِ من يريد أن يقطعَ الشكَّ باليقين:

- هل أنتِ متأكدةً مما تقولين..؟!

فأجابت بكلِّ ثبات

- إن كان لديك رفاهيةُ الانتظارِ فلتنتظر حتى تتأكد بنفسِكَ..

هزَّ رأسَه وأسقط يديها من يديه، ثم ترك المكانَ ومضى.. وأنا لا أدري هل كان الهدفُ من قدومِه هو الاطمئنانَ حقًا على خادمِه..؟ أم كانت زيارةً الهدفُ منها معرفةُ مصيرِ رُسلِه..؟.

❊ ❊ ❊

عادت عيونُ "تحتمس" الجديدةُ من أبناء "المونتيو" سالمةً هذه المرةَ؛ فلم تلقَ مصيرَ مَن سبقوهم الذين هلكوا بفعلِ مهاجمةِ قطيعٍ من الذئابِ الضالةِ لهم حتى أجهزوا عليهم.

عادت الرسلُ حُبلَى بالأخبارِ، وانتشر الخبرُ بين صفوفِ الجيشِ سريعًا أنَّ رسلَ الفرعونِ الجددَ قد عادوا بعد استطلاعِ قواتِ العدوِّ.. وعلى الفورِ أمرَ جلالتُه أن يُعقدَ مجلسٌ حربيٌّ مُوسَّعٌ ضمَّ كلَّ القادةِ من الصفِّ الأولِ والثاني وضمَّ أيضًا "سات" و"تيموس" و"كن آمون" وأنا بعد أن تعافيت تمامًا من مرضى واستردتُ كاملَ عافيتي، ولكني فقدتُ قلبي الذي وهبتُه لها للأبد، وفي الخيمةِ الملكيةِ وقف "تحتمس" كنجمةٍ متوجهةٍ وسط هالةٍ من النجومِ التي تُحلِّقُ حولَه قائلًا:

• إنَّ ذلك العدوَّ الخاسئَ "ليوماس" قد جمع كلَّ جيوشِ شعوبِ البحرِ، وكلَّ أُمراءِ الأقاليمِ الذين كانوا متحالفين معنا وأنه يقول على حسبِ ما وصل إلى مسامعِنا: سأقف في "مجدو" بجيوشي لمحاربةِ جلالتي، فحدثوني ما يدور بخلدِكم في هذا الخطبِ،

فأجاب جلالتُه قائد الجيشِ قائلًا:

• لقد وصلتنا المعلوماتُ بأنَّ العدوَّ على أتمِّ الاستعدادِ خارجَ أسوار "مجدو" وأنَّ عددهم قد أمسى هائلًا وأنه إن أردنا مواجهته هناك في تلك البقعةِ التي اختارها هو عند أسوارِ"مجدو" فهناك طريقان يجب أن نختارَ

أحدَهم، الطريقُ الأولُ يؤدِّي إلى "تا عناخ" وهو سهلٌ فسيحٌ، والآخرُ يقع في الجهةِ الشماليةِ من بلدةِ "قانا" وأيضًا هو سهلٌ فسيحٌ..

وأشار "تحتمس" بالصولجانِ الذي يمسكه ناحيةَ الخارطةِ الكبيرةِ المصنوعة من جلودِ الماعزِ التي رُسِمَ عليها بشكلٍ مفصلٍ ودقيقٍ كلُّ الطرقِ المؤديةِ إلى "مجدو":

• وهل سيترك لنا العدوُّ الفرصةَ لنهاجمه في تلك السهولِ الفسيحةِ..؟ لا بد وأنه قد استعدَّ وتحسَّبَ؛ لذلك فوضع قوَّاتِه على فمِ هذين الواديين الفسيحين ليسدَّ علينا الطريقَ إلى "مجدو".. بالتأكيدِ هو فعل ذلك.. وماذا تقترحون أيها القادة..؟

أجاب "مين" وهو يشير بالسيفِ القصيرِ الذي يمسك به ناحيةِ الخريطةِ:

• كِلَا الطريقين مناسبٌ تمامًا.. سواءٌ كان الطريقُ الأولُ المؤدي إلى "تا عناخ" أو الطريقُ الثاني من بلدة "قانا" فكلاهما سهولٌ فسيحةٌ..

بقلقٍ عقَّبَ أحدُ قادةِ الصفِّ الثاني. لم أعد أتذكرُ اسمَه الآن قائلًا:

• ولكننا بذلك سنتكبَّدُ خسائرَ كبيرةً في القوات لأنهم يفوقُوننا عددًا..! لذلك يجب التغلُّب أولًا على تلك الميزةِ التي يمتلكها العدوُّحتى يتسنَّى لنا إحداثُ توازنٍ بين الجيشين..

عقَّب القائدُ "مين" بامتعاضٍ من ملاحظةِ هذا القائدِ الصغيرِ وتساءل في أنفةٍ:

• وكيف لنا أن نتغلَّب على تلك المعُضلةِ..؟

سريعًا أجاب قائدُ الجنودِ المشاةِ:

• يجب على الفورِ أن نستدعي مزيدًا من القوات من مصرَ حتى تتوازنَ الكِفَّتان.

بعدمِ اقتناعٍ أسرع القائد "بتاح" وهو يغرس سيفَه في مقتلٍ لوأدِ ذلك الاقتراحِ قائلًا كعادته عندما يتحدث باندفاعٍ كعجلةٍ حربيةٍ مسرعةٍ:

• ولكنَّ هذا سيحتاج إلى وقتٍ طويلٍ.. ومن الممكن إذا أحسَّ العدوُّ منَّا تقاعسًا عن الزحف إليه أن يأتيَ هو إلينا بجيوشِه الجرارةِ؛ وبهذا نكون في موقفِ المدافع وسيهزمنا حتمًا متفوقًا علينا؛ حيث إنَّ أعدادَهم تبلغ أضعافَ أعدادِ جيشنا..

بحزمٍ وجَّه القائدُ "مين" للجميع نظرةً ساحقة وكأنه يأمرهم بالتوقف عن إبداءِ أيِّ رأيٍ:

• ليس أمامنا إلا أن نسلك أحدَ الطريقين.. ليس أمامنا حلٌّ آخرُ..

وصمت كلُّ القادة مما دل على أنَّ الرسالةَ التي أراد "مين" إرسالَها إليهم قد وصلت للجميع عدا "تحتمس" الذي قال وهو يتمعنُ النظرَ في

الخريطةِ التي أمامه، وهو يميل بنصفِه العلويّ ويقترب منها وكأنه قد اكتشف اكتشافًا لم يكن يتوقعه على الإطلاقِ:

- ذلك ليس صحيحًا على ما أعتقد.. فأمامنا خيارٌ آخر..

تساءَل "مين" في دهشة:

- ما هو جلالتك..؟

وأشار بصولجانِه ناحيةَ طريقٍ يقع بين جبلين:

- هناك طريقٌ آخرُ إلى "مجدو" يمر عبرَ هذا المضيقَ..

مفزوعًا وكأنَّ شوكةً قد اخترقت باطنَ قدمِه؛ فجعلته يتلوَّى.. قال القائدُ "ماحو":

- ولكنْ هذا مضيقٌ صغيرٌ للغاية يا مولايَ لن يسمحَ لنا بالمرورِ فيه معَ مُعدَّاتنا وعجلاتنا الحربية..!؛ فهو لا يسع فردين معًا في آنٍ واحدٍ يسيران جنبًا إلى جنبٍ..

بكلِّ هدوءٍ وتبسيط لما حاول "ماحو" جعْلَه شيئًا عسيرًا قال "تحتمس":

- لنسيرَ فيه جنديًا إثرَ جنديٍّ وجوادًا خلف جوادٍ ونُفكِّكَ العجلاتِ الحربيةَ ونحملَها على روؤسِنا هي والمعداتِ ثم نعيد تجميعَها مرةً أخرى بعد عبورِ المضيقِ الذي سيوصِّلُنا إلى بلدةِ "عرونا" الواقعةِ هنا خلف خطوطِ

جيشِ"ليوماس" وعندما يكتمل تجمُّعُ الجيشِ ننقضُّ عليه انقضاضَ الصقورِ من السماء على فرائسها مستفيدين من عنصرِ المباغتةِ حيث إنه لن يتوقع أبدًا أن نهجم عليه من تلكِ الجهةِ. وساعتَها سنحرمه من ميزةِ تفوقه العدديّ علينا..!

حدث اضطرابٌ في الخيمةِ وبدأ الجميعُ يتبادلون نظراتِ الدهشةِ وكأنَّ عقولَهم قد رفضت رفضًا تامًا هذا التبسيطَ ولفظته في احتقار من فرطِ جنونِه وعدم قابليتِه للتطبيقِ العمليّ لما تنطوي عليها من مخاطرَ كبيرةٍ من وجهةِ نظرهم.

ولم ينتظر القائدُ "مين" طويلًا فتحدثَ بلهجةٍ حازمةٍ مُعلنًا أمام الجميعِ رفضه القاطعَ لذلك القرار:

• تلك مخاطرةٌ غيرُ محسوبةٍ ونتائجُها كارثيةٌ بكلّ المقاييسِ الحربيةِ؛ فلو بلغ العدوَّ_الذي ينشر حتمًا عيونَه الخفيةَ التي تحوم حولنا؛ ليعرفَ أخبارنا مثلما فعلنا نحن، وحتمًا سيعرف أننا سلكنا هذا المضيقَ_ فسينقضُّ علينا من أعالي الجبالِ ويصيدُنا بسهامِه ونبالِه كالذبابِ واحدًا تلوَ الآخرِ دون أيَّ عناءٍ، وإن لَّم يكتشف ذلك فمن يضمنُ أنه بمجرد وصول طلائع القوات إلى"عرونا" وما زالت بقيةُ القواتِ لم تصل بعدُ أنه لن يرسلَ علينا جنودَه ويقضي على المقدمةِ ونصبح في قبضته كالأسماك الطريحةِ في شبكةِ الصياد..؟!. نحن لو سلكنا ذلك المضيقَ فإننا بذلك نُلقي بأنفسِنا في التهلكةِ المحققةِ دون أن نكلَّفَ العدوَّ أيَّ مشقةٍ تُذكرُ.. وستكون

هزيمةً نكراءُ لا شرف فيها ولا تضحيةَ تستحقُّ كلَّ ما عانيناه في تلك الرحلةِ التي كانت خاطئةً منذ البداية..!.

وبغضبٍ هوى "تحتمس" بصولجانه على الخريطةِ التي أمامهم فأحدث صوتَ دويٍّ كبيرٍ لدرجةِ أنَّ أسَدَه الرابضَ في أحدِ أركانِ الخيمةِ قد نهضَ مفزوعًا وأطلق زمجرةً مهيبةً وكأنه يشارك في غضبة صاحبه ويرجوه أن يأذنَ له ليفترسَ كلَّ الموجودين في الحال.. توتَّرت الأجواءُ بشدةٍ وعلت حرارةُ الأنفاسِ داخل الخيمةِ وبدأ الجميعُ يجد صعوبةً في التنفُّسِ ودقاتُ القلوبِ بدت أعلى من دقاتِ الطبولِ التي تسير أمام الجيشِ لتحفيزه وتنظيمِ خطواته.

قطع "تحتمس" حالةَ الصمتِ والترقُّبِ تلك مُعلنًا واضحةً لا لبسَ فيها ولا تأويل:

• مادُمت حيًّا، ومادام الإله "رع" يُحبُّني، ومادام والدي "آمون" يرعاني، ومادام نفسُ الحياةِ يُنعشني بالقوةِ، فاعلموا أني لن أسلُك إلا هذا الطريقَ الضيقَ المؤدي إلى "عرونا" وليذهب منكم من يشاءُ في أحدِ هذينِ الطريقين الآخرين اللذين تحدثتم عنهما، وليتبعني منكم من يريد أن يسلك الطريقَ الذي سيتخذه جلالتي، واني لأقسم بِـ"آمون" ربِّ تيجانِ الأرضِ وساكنِ الكرنكِ أني لن أسلك إلا هذا الطريقَ مهما حدث.."

❊ ❊ ❊

إننا حقا رجالٌ متباينون جدًا بمجرد أن نختلفَ.. ويحدث هذا عندما يرى فردٌ واحدٌ منَّا ما تعجز الجموعُ عن رؤيته ويؤمن هو وحده بما لا يمكن لأحد الإيمانُ به..! كان "تحتمس" وكأنه في ذلك الوقتِ يريد من رجاله الإيمانَ بإلهٍ جديدٍ لم يسمعوا عنه من قبلُ ولم يروه حتى، وكان من المستحيلِ أن يقدِّسَ أحدٌ إلهًا لم يسمع به من قبل.. أحسست بالرجالِ وهم يقفون أمامَه ممزقين بين الخوفِ من الهلاكِ الذي يدفعهم إليه بجموحٍ أهوجَ وبين الانصياعِ والولاءِ الذي تُحتِّمه التقاليدُ المصريةُ والعسكريةُ معًا لسيدِ الأرضين صاحبِ مصرَ الفرعونِ ابنِ "آمون" ممثَّلِ الآلهةِ في الأرض.. أحسُّوا أنهم أمام إعصارٍ سيعصف بهم بل وبمصرَ كلِّها.

انفضَّ الاجتماعُ بعد أن اكتوى الجميعُ من لهيبِ تلك الأجواءِ المتوترةِ التي لم يسبق لها مثيلٌ.. خرج الجنودُ من خيامِهم هائمين وصاروا أشبهَ بالنملِ الذي داهمَت جحورَه مصيبةٌ فخرجوا مسرعين غيرَ مستوعبين ما يحدث، ثم أخذوا يتجمعون في أفواجٍ صغيرةٍ وهم يتساءلون عن مدى صحةِ ما سمعوا: أنه قد دار بين الفرعونِ وقادته غيرَ مصدقين إطلاقًا ما سمعوه؛ فمَن كان موافقًا على مضضٍ من القادةِ والجنودِ على الزحفِ نحوَ "مجدو" وعدمِ الانتظارِ في "دومفكات" مدفوعًا بالانصياعِ والولاءِ للفرعونِ أصبحوا الآن رافضين رفضًا قاطعًا وعلنيًّا لهذه الخطوةِ المجنونةِ التي اختارها "تحتمس" والتي حتمًا ستودي بالجيشِ إلى أن يصبحَ فريسةً سهلة بين أنيابِ العدوِّ يلتهمُنا على مهلٍ لأننا نحن من وضعنا أنفسَنا طواعيةً دون إجبارٍ على مائدته.

شعرت أنَّ المعسكرَ على وشكِ الانفجارِ في أيِّ وقتٍ كمِرجلٍ لم يعد يحتمل دفقاتِ البخارِ الرهيبة التي صنعتها النيرانُ المشتعلةُ تحته وإنَّ الأمورَ مرشحةٌ للخروج عن السيطرة.

وقبل المغيبِ قليلًا استدعانا "تحتمس" أنا و"سات" و"تيموس" فذهبنا إليه ونحن لا ندري كيف الخلاصُ من هذا الموقفِ..؟ أو لأكونَ أكثرَ دِقَّةً وأمانةً -لم أكن أدرك أنا أنَّ لمثلِ هذا الموقفِ من طريقٍ للخروجِ منه- فالجيشُ كلُّه في جانبٍ و"تحتمس" في الجانبِ الآخرِ وليست ثمَّةَ وسيلةٌ للتقريبِ بين الجانبين..!

دخلنا على "تحتمس" الذي كان يجلس وفي يدِه كأسٌ ذهبيةٌ مملوءةٌ بشرابِ الجُعَّةِ، وقد انتهي للتوِّ من التهامِ فَخِذِ ثورٍ مشويَّةً.. وقفنا أمامه في انتظار الإذنِ بالكلامِ فبادر "تحتمس" بسؤالِ "تيموس" عندما رفع عينيه من على الكأسِ ونظر إليه مباشرةً قائلًا:

- هل سمعتَ أنَّ أحدًا من الفراعنةِ تجرأ عليه قواده بمثل ما تجرأ به اليومَ القادة من التبجُّحِ والرفضِ لأوامري أيها الحكيمُ..؟

أجابه "تيموس" محاولًا التخفيفَ من حنقِه الذي غلبه؛ فظهر على قسماتِ وجهِه:

- قد يختلفُ الرجال في تقدير الأمور وكلاهما على صوابٍ يا بُنيَّ..

ويبدو أنَّ محاولةَ "تيموس" قد فشِلت فشلًا ذريعًا فواصلَ "تحتمس" كلامَه بنفسِ الحنقِ:

• ولكنَّه ليس اختلافًا، بل هو خوفٌ، وأنا أمقتُ الخوفَ والخائفين بشدَّةٍ.. أمقتُهم لدرجةِ الغثيانِ.. أمقتُهم لدرجةِ أني أريد أن تنزلَ عليهم كلُّ لعناتِ "رع" فلا يبقى منهم أحدٌ على وجهِ الأرضِ..

وكأنَّ "تيموس" قررَ عدمَ اليأسِ فكرَّرَ محاولةَ التخفيفِ من تلك الحالةِ التي امتلكت زمامَ أمرِ"تحتمس" فقال "تيموس" :

• ليس الجميعُ من بني البشرِ متساوين..! فلولا اختلافُنا لصِرنا صُورًا متطابقةً تعطي نفسَ المنظرِ.. تلك طبيعة البشر

وصمت "تيموس" في انتظارِ نتيجةِ محاولاتِه ولكنَّ "تحتمس" خيَّبَ ظنَّه، فواصل كلامَه وهو يقطع الخيمةَ ذهابًا وعودةً مثل الثورِ المهتاجِ:

• لقد سقط الجميعُ في عيني بلا كرامةٍ ولا عذرٍ عندي لأحدٍ، وإني لأرى أمامي أوراقًا جافةً متيبسة لا حياة فيها جرفتْها رياحُ الجبن، وكنت أحسبُهم فيما مضى محاربين أشدَّاءَ لا يهابون الموتَ، بل كنتُ أظنُّهم يهرولون مسرعين يطلبونَه في ميادينِ القتال..

قررَ "تيموس" التخلّي عن سياسةِ التهدئةِ فرأى أن يتحدَّث كأبٍ ينصح ابنَه بشيء من التعنيفِ:

• إنَّ إعتقادَك بأنك قادرٌ على أن تفعلِ أيّ شيء هو ما جعلنا في مثلِ هذا الوضعِ.. لم يسبق لأحدٍ من الفراعنةِ أن فعلَ ما تنوي أنت القيامَ به الآن..! الجميع يعلم ذلك.. هكذا يخبرنا التاريخُ الذي يجب أنْ نتعلَّمَ من حكمتِه يا بني..

بتهكمٍ وكأنَّ الجُعَّةَ قد بدأت تلعب بعقله أجاب "تحتمس" بسخريةٍ لا تليق بمقامِ الحكيمِ والطبيب الوقورِ:

• التاريخ.. التاريخ..! ما التاريخُ إلا خدعة تشكَّلت على هيئةِ تمثال أجوف بواسطةِ من قاموا بليّ عنقِ الحقيقة. وإني أرى الحقيقةَ تتراءى أمامي واضحةً جليَّةً لا لبسَ فيها.. أننا في استطاعتِنا فعلُ أيّ شيء مهما كان، ولكنَّ الخوفَ والتردد يضربان بيننا وبين اكتشافِ مكامنِ القوةِ بداخلِنا بسورٍ ليس له بابٌ ويوهمُنا أنَّ كلَّ الأبوابِ موصدةٌ بحجرٍ اسمُه التاريخ..

أيقن "تيموس" أنَّ أيَّ محاولةٍ من محاولات إثناءِ "تحتمس" عن قراره محكومٌ عليها بالموتِ المحتَّمِ؛ فهو رجلٌ لا يتزحزح أبدًا، فقال باستسلامِ مَن يركنُ إلى القُوَى العُليا التي في يدِها أن تُغيِّرَ ما لا نستطيع نحن بني البشرِ تغييره:

• لندعوا الآلهةَ أن يُلهموا جلالتك الحكمةَ والرأيَ السديدَ؛ لإنقاذ البلاد مما هي مقبلة عليه من خطر عظيم ..

وعلى حينِ غفلةٍ وبجرأةٍ أطلقت "سات" قذائفها ناحيةَ "تحتمس" ولا أدري أكانت تريد أن تثنيَة عن قرارِه أم أنها كانت تدفعه للمضيّ قُدُمًا فيه..؟ فقالت:

- لماذا تُصرُّ على التحدِّي يا "تحتمس"..؟!

كانت تلك هي المرةُ الأولى التي أسمع فيها أحدًا ينطق أمامي باسمِ جلالتِه مجرَّدًا من أيّ ألقابٍ..! شعرت وأنها مازالت تراه ذلك الفتى الجريحَ المسئولَ عن تربيةِ الخيول الذي مكث أشهرًا يتداوى في بيتِ أبيها.. شعرت أنَّ الإله "تحوت" قد تجلَّى في "سات" وهو من يخاطب الفرعونَ من خلالها.. خطفَه السؤالُ المباغتُ ولهجةُ "سات" التي لم يكن يتخيل أن يتكلم بها أحدٌ في حضرته.. وقبل أن يجيبَ عاجلته "سات" على لسانِ الإله "تحوت" قائلةً وهي تطلق سهمَه الثاني:

- يجب أن تتعلمَ أنَّ أيَّ شيء ممكنٌ.. بما في ذلك الهزيمة..

سحب "تحتمس" نفسًا عميقًا وألقى بنفسِه على أقربِ أريكةٍ وكأنَّه ينتزع عُصارةَ الماضي المؤلمِ من أعماقِ الذاكرةِ التي تئنُّ من حملِها فأراد أن يُخرجَها مهما كانت درجةُ الألمِ:

- الهزيمةُ..! لقد تجرَّعتُ من كأسِها حتى آخرِ قطرةٍ.. لقد سرتُ في دروبِها الخربةِ وتنفَّست هواءها النتنَ.. دخلتُها مرغمًا؛ فبدلًا من أنْ أكونَ طفلًا يلهو ويأمر فيطاعُ وتكون أحلامُه الطفوليةُ أوامرَ يجب الانصياعُ لها وتنفيذُها على الفورِ لكوني ابنَ الفرعونِ العظيمِ سيدِ البلادِ الذي يسجدُ

الجميعُ أمامه؛ إذا بي أجد نفسي في أحدِ معسكراتِ الخيالة تحت أقدامِ الخيولِ أعتني بها، أُطعمها، وأسقيها، وأمسح روثَها بكلتا يديَّ هاتين، وكأني ابنُ خطيئةٍ رفض والدُه الاعتراف به فألقاه على قارعةِ الطريقِ فخطفته يدُ المارةِ.. لا أحدَ في هذا العالم يُحدثُني عن الهزيمةِ؛ فلقد اكتفيت منها حتى الثمالةِ ولكني قررت أن أُحطِّمَ ذلك الكأسَ..

وبغضبٍ هائلٍ وعصبيةٍ مفرطةٍ ألقى "تحتمس" الكأسَ من يدِه فسحقه كذرَّاتِ الترابِ وواصل كلامَه وهو في حالةٍ من الهيجانِ:

• لن أتجرَّعَ بعد اليومِ إلا من كأسِ الانتصارِ، سأرتوي منه حتى الثمالةِ، سأنتصر على كلِّ شيء حتى وإن كان المستحيلَ، سأطوِّعُة حسبَ مشيئتي وسأُرغمُه على الانصياعِ لي وتنفيذِ ما أطلبه منه وسيأتيني صاغرًا ذليلًا..

فاقتربت منه وأمسكت يدَه قائلةً:

• من حيث أرادت زوجةُ أبيك "حتشيسوت" أن تهزمَك نحتت بداخلِك القوةَ المتأصِّلةَ التي تشكَّلت من صخورِ الألمِ والمعاناةِ.. لم تكن ستعرف أبدًا تلك القوةَ لو كنت طفلًا مُدلَّلًا يلهوا في الحدائقِ ويطارد الفراشاتِ ويردِّدُ الأغاني كالفتيات.. لتتضرع من كلِّ قلبِك أن تسكنَ روحُ "حتشبسوت" الفردوسَ الأبديَّ؛ لأنها هي مَن صنعت منك ما أنت فيه؛ فمن حيث أرادت هزيمتَك صنعت انتصارك..

وبعد أنِ انتهت "سات" هدأ "تحتمس" تمامًا وكأنَّه كان يسير في طريقٍ بلا نهايةٍ وفجأةً اكتشف أنه قد وصل لنهايةِ الطريقِ الذي كان يُعذبه، وبلهجةِ توسُّلٍ لا تليقُ بفرعونٍ تساؤَل "تحتمس"

- أصدُقيني القولَ يا "سات": ماذا يخبِّئُ لي المستقبلُ..؟

ضغطت على يدِه في حنانٍ قادرٍ على إخمادِ نيران البراكين المتفجرةِ بداخلِه وإزاحةِ ستائرِ الظلامِ التي تحجبُ العقولَ إذا حلَّ عليها الغضبُ لتنيرَ أمامَه طريقٌ كان يحسبُها من شدةِ الظلمةِ أنها طريقٌ مسدودٌ:

- صدِّقني.. لا توجد عندي إجابةٌ لهذا السؤال، ولكنْ يجب أن تعلمَ أنه أيًّا ما كان ما سيصيبُنا فلا تهرب من قدرِك أبدًا.. فحينما يكون دربُك شديدَ الوعورةِ وكلُّ خطوةٍ فيه محفوفةٌ بالمخاطر فحافظ على عقلِك هادئًا؛ فهو طوقُ النجاةِ فيما هو قادمٌ، وعليك أن تحذرَ.. فلا تُضيِّقِ الخناقَ على رجلٍ يائسٍ شديدَ اليأسِ، حتى أصغرُ المخلوقات تُكشِّرُ عن أنيابِها قبل أن تُسحَقَ..!

انتهى الاجتماعُ الثاني وذهب كلٌّ منَّا إلى خيمتِه لا أحدَ يعرف ماذا سيحمل لنا الغدُ من مفاجآتٍ والتي حتمًا ستكون مفاجآتٍ غيرَ سعيدةٍ.

❊ ❊ ❊

دوَّتِ الأبواقُ في البرّيةِ الخضراءِ وأعادت صدى دَوِيّها التلالُ المحيطةُ بنا لتصنعَ منها أصواتًا مرعبةً.. كانت تلك الأبواقُ تُعلن الأمرَ الفرعونيَّ بتجمعِ الجيشِ بكاملِ تشكيلاتِه ومعداته وأسلحته.. وكأنَّ الحربَ ستبدأُ الآن.

رغم أنَّ عددَنا لم يكن هائلًا؛ إلا أني لم أرَ الجيشَ كلَّه مجتمعًا بهذا التنظيمِ وبكاملِ عددِه وتسليحه في مكانٍ واحدٍ، فدائمًا ما كنتُ أراهم وهم يسيرون صفوفًا متباعدةً في أثناء رحلتِنا الطويلةِ من "تانيس" حتى هنا وعندما كنَّا نحطُّ الرحالَ في أيِّ مكانٍ.. كانت تلك الأعدادُ تنتشر كحباتِ المِلحِ التي نُثِرَتْ فوق الأرضِ، فأصبح عددُها شيئًا صغيرًا للغاية، أمَّا الآن فأنا أراهم يقفون مثلَ عيدانِ الذرةِ منتصبين داخل الحقل.

توجهتُ مسرعًا ناحيةَ خيمةِ الفرعونِ.. ولأولِ مرةٍ منذ أنِالتحقتُ بخدمتِه أُفاجَأُ بالحرسِ يمنعونني من الدخول على جلالتِه؛ ليُخبروني أنَّ جلالةَ الفرعون أَمَرَهم بعدمِ السماحِ لأحدٍ بالدخولِ عليه وأنَّه ليس في حاجةٍ لي اليوم.

عدتُ من حيثُ أتيتُ مثقلَ الخطواتِ وكأني أجرُّ في قدمي كلَّ رمالِ الطريقِ من "تانيس" حتى "يحم" .. كان إحساسي أني من الممكنِ أنْ أعودَ لأنضمَّ لزملائي النساجين وأهبطَ من تلك المرتبةِ التي رفعتني إليها الأقدارُ دونَ سعيٍ مني نحوها يزيد من ثقلِ خطواتي.. لم يكن السببُ على الإطلاقِ حزنٌ مني أني سأعود كما كنت، ولكنَّ إحساسَ الإنسانِ منَّا أنه في قلبِ الأحداثِ وعلى إطِّلاعٍ دائمٍ بها وبكواليسِ ما يحدثُ أولًا بأولٍ يعطيك بريقًا

خفيًّا وهالةً من الأهميةِ بأنك لن تستطيعَ بعد ذلك أنْ تعودَ لصفوفِ الجماهيرِ تتلمَّسُ الأخبارَ وتبحث عنها مثل عاهرةٍ تبحث عمَّن يروي ظمَأَ جسدِها ويُطفِئُ نارَها التي لا تهدأُ جذوتُها، وأعتقد أننا في تلك النقطةِ بالذات -نقطةِ البحثِ عن الأخبارِ وعن القراراتِ التي تمسُّ حياتَنا ومستقبلَنا كلِّنا- عاهراتٌ لا تنطفئُ لنا نيرانٌ.

❊ ❊ ❊

تعلقت العيونُ وقبلها الأفئدةُ ناحيةَ الخيمةِ الملكيةِ، فالشخصُ القابعُ بداخلها وحيدًا الآن هو صاحب الكلمةِ الفاصلةِ فيما هو قادمٌ؛ فبكلمةٍ ستخرج من فمِه ستحيا آلافُ الأرواحِ وبكلمةٍ أخرى ستزهق آلافُ الأرواحُ.. ما أصعبَ انتظارِ كلمةٍ تكون الفاصلةَ بين الموتِ والحياة..! وبعد وقتٍ خُيِّلَ للجميعِ أنه مرَّ كدهرٍ دوَّتْ الأبواقُ ثانيةً معلنةً خروجَ الفرعون من خيمتِه.. خرج للجموعِ وهو يرتدي نقبةً قصيرةً تصل من الخصرِ حتى أعلى الركبةِ، وهي عبارةٌ عن قطعةٍ مستطيلةٍ بيضاءَ من الكتانِ مُثبَّتةٍ حول الوسْطِ بحزامٍ كان يبرز من تحتِه طرفُ النقبةِ الرفيعِ مشدودًا إلى أعلى مثبَّتًا بمشبكٍ أنيقٍ وفوقه السترةُ الحربيةُ التي تغطِّي منطقةَ الصدرِ والبطنِ، تلك السترةُ المصنوعةُ من الجلدِ الخامِ المغطَّى بالحراشفِ البرونزيةِ، وعلى ظهره الجرابُ الذي يحوي السهامَ البرونزيةَ ويضع على رأسِه عصابةَ الرأسِ التي كانت على شكلِ شريطٍ تسمَّى الحلقةَ.. مزينةٌ من الأمامِ برأسِ كوبرا ونسرٍ بارزينِ للأمام.. على حينِ كانَ مُمسكًا بيديه القوسِ الخاصِّ به والصولجانَ

الذهبيَّ المزينَ برأسِ حيوانِ الإله "ست" رمزَ النفوذِ والسلطة الملكية..كان يقف في عربتِه الحربيةِ وإلى جوارِه أسدُه، وكان الاثنان يقفان بكلِّ كرامةٍ وقوَّةٍ يستحقونها.. كان منظرُهما وهما يخترقان الحشودَ يبعث في النفسِ إحساسًا يهزم في قلبِ الرجالِ أيَّ خوفٍ ويسحقُه ليحلَّ محلَّه إحساسٌ ملءَ الصدورِ بأنهم أمامَ قائدٍ جسورٍ لا يهاب أيَّ شيء حتى الموت..كان "تحتمس" في ذلك الوقتِ قويًا بشكلٍ رائعٍ.. جسدُه ووجهُه يُشِعَّانِ بقوةٍ وتركيزٍ يصل مداهم وتأثيرُهم لكلِّ الرجالِ.. كان واقفًا على أصابعِ قدميه في توازنٍ عجيبٍ حيث يمتصُّ جسدُه كلَّ حركةٍ من حركاتِ العجلةِالحربيةِ وهي تتحرك على تلك الأرضِ الوعرةِ؛ حيث بدا منتصبًا وساكنًا بشكلٍ مثيرٍ للإعجابِ والفخرِ، كما لو كان هو "رع" ذاتَه قد وقف في عجلتة الحربية.

وبعد أن وصلَ لنهايةِ الصفوفِ المحتشدةِ وبعد أن تأكَّدَ أنَّ ما أرادَ أنْ يوصِّلَه لجنودِه وضبَّاطِه قد وصلَهم كما كان يريد بهذا الاستعراضِ.. عاد مرةً أخرى سالكًا نفسَ الطريقِ حتى وصلَ إلى ربوةٍ عاليةٍ بعضَ الشيء يستطيع الواقفُ عليها أن يكشفَ الوادي كلَّه فترجَّلَ من على عربتِه وخلفه تحرَّك أسدُه وفي كلِّ لفتةٍ وحركة من الاثنين يبعثان في النفوسِ بها قوةً خفيةً تتضائل أمامها أعظمُ مخاوفِكَ لتصيرَ هباءً منثورًا.. وصل "تحتمس" إلى الربوةِ ووقف مُستطلِعًا بعينيه اللتين تشبهان عينَيِ الإله "حورس" قواتِه، ثم دوَّى صوتُه الجهوريُّ في أرجاء البريةِ الخضراءِ.. كان صوتُه قويًا واضحًا لا تشوبه شائبةٌ، ولا تختلجه رعشةٌ أو رجفةٌ تُوقِفُ اندفاعَه الهادرَ كصوتِ الرعدِ، فصاح في الحشدِ قائلًا:

• أيُّها الأسود.. أبناءَ الأرضِ الحُرَّةِ.. وصل إلى مسامعي أنكم صِرتم تحبون الحياةَ وتمقتون الموتَ، ولكني لا أهابه، هلمَّ إليَّ أيها الموتُ الحبيب؛ فأنت آتٍ لا محالةَ.. إني أرى الموتَ أمامي وأفتح له ذراعيَّ؛ فالموت من أجلِ مصرَ بالنسبةِ لي هو الحياةُ التي أتمنَّاها وأتوق إليها بكلِّ شغفٍ.. ها أنا أقف أمامكم تحت الشمسِ التي تجوب السماواتِ في قاربِ ملايين السنينِ، وستظلُّ تجوبُه لملايينَ أخرى من بعدي وبعدكم وسنتركُ جميعًا مكاننا بلا استثناءٍ.. لن يبقى منَّا شيء إلا ما سنقوم به من تضحيةٍ وبذلٍ من أجلِ مصرَ ونيلِها، وشعبِها، ومعابدِها، ومنازلِ عزِّها.. نحن حزبُ مصرَ الذي سيصون أرضَها.. أرضُ مصرَ التي كانت وستظلُّ دنيا مسحورةً؛ فهي أمُّ البلادِ صاحبة الأقاليم المتسعة ومقصدُ الضعيفِ والقادرِ، والتي تموج موجَ البحرِ بشعبها الذي يملئ وادي النيلِ، أما شبابُها فلم أسمع يومًا أنهم تخلَّوا عنها؛ فهم دائمًا على العهدِ، فإنْ أردتم المحافظةَ على هذا العهدِ الذي جئنا جميعًا من أجلِه فليتبعني منكم من يريد أن يسلك الطريقَ التي سيتخذها جلالتي لأنَّ الأعداءَ الذين يمقتهم الإله "رع" سيقولون: لقد سلكنا طرقَ أخرى؛ لأننا نخاف بأسَهم وبطشَهم.. لقد توهَّمتِ الخنفساءُ أنها صارت أسدًا.. إنَّ سيدَكم المظفرَ سيكون في طليعتِكم لاقتحامِ ذلك المسلكِ الوعرِ الضيقِ ولقد أقسمتُ بِـ"آمون" وبكلِّ معبودٍ على أرضِ مصرَ ألَّا أسلكَ إلا هذا الطريقَ الذي سيقودنا للنصرِ على أعدائنا الذين يمقتهم الإله "رع" وسأتقدَّمُ طليعةَ جيشي بنفسي لأدافعَ عنكم ضدَّ أيِّ أذىً وأكونَ أولَ المضحين؛ فدمي المقدَّسُ ليس عندي أغلى منه لافتداءِ مصرَ والدفاعِ عنها به، فمن أراد أن يتبعني فليأتِ خلفي لنسيرَ رجلًا في أثرِ رجلٍ وجوادًا في أثرِ

جوادٍ حتى نصلَ إلى غايتِنا وندحرَ عدوَّنا الخسيسَ الذي لن يكون أكثرَ من خنفساءَ ملعونةٍ نسحقُها بلا رحمة..

وبعد أن أنهى كلماتِه الحماسيةَ التي ألهب بها الصدورَ نزل من على الربوةِ والجنودُ يضربون الأرضَ بأقدامِهم من فرطِ النشوةِ التي خلقها الحماسُ بداخلِهم والتي أشعل "تحتمس" بكلماتِه فتيلَها ودون أن يلتفتَ خلفَه تقدَّم بصحبةِ أسدِه متوجِّهًا ناحيةَ المضيقِ حتى وصل إلى مقدمتِه والتي نُحِتَتْ بفعلِ قُوى الطبيعةِ على شكلِ فرسِ النهرِ المقدسِ حينَ يفتحُ فمَه.. فحوافُّ الجبلين القابعِ بينهم المضيقُ فيها بروزٌ وكأنها أسنانٌ مدببةٌ عملاقةٌ تنتظر من يقترب منها لتتطبقَ عليه وتلتهمَه مما يبعث الخوفَ بحقٍّ داخل نفوسِ أكثرِ الرجالِ صلابةً ورباطةَ جأشٍ ولكنَّ "تحتمس" لم يكن عابئًا بأيِّ شيء وكأنه يحمل قلبًا قُدَّ من الصخرِ، ولن تكونَ هناك أيُّ قوةٍ على وجهِ الأرضِ قادرةً على الوقوف في وجهِه.. دخل بكلِّ جرأةٍ لفمِ المضيقِ الذي ابتلعه بداخلِه فغاب عن أنظارِنا التي كانت تراقبُه بشغفٍ.. وكحباتِ الرُّمَّانِ المتساقطِ من فوقِ الأغصانِ بدأ الجنودُ والضباطُ التحركَ خلف مَلِكِهم مدفوعين بالولاءِ المقدسِ للفرعون ساروا خلف بعضِهم ناحيةَ فمِ المضيقِ متناسين كلَّ المخاوف التي كانت تعصف بهم بالأمسِ؛ ولكنَّهم اليوم أصبحوا في حالٍ آخرَ.. لا يوجد في قاموسِهم شيء اسمُه الخوف وكأنَّ "تحتمس" قضى عليه بسهمِ شجاعتِه فأصابه في مقتلٍ فانتزعه من صدورِ رجالِه ليتحقق له ما أراد.

❊ ❊ ❊

انتصفت الشمسُ وبدأت تميل للغربِ ونحن ما زلنا نسير في هذا المضيقِ الوعرِ رجلًا تلوَ الرجلِ ودابةً تلوَ أخرى.. تلك التي تحمَّلت العبءَ الأكبرَ والنصيبَ الوافرَ من حمل المعدات والأسلحةِ والعجلاتِ الحربية التي تم تفكيكُها وما تبقَّى بعد ذلك حملناه على روؤسِنا وأكتافنا، ومع كلِّ خطورةٍ كنا نشعر أننا نسير في طريقٍ لم تطأها قدمٌ من قبل متوجهين نحوَ المجهول غيرَ عابئين بأيِّ شيء أصبح كلُّ شيء متساويًا في أعيننا، النصرُ كالهزيمة، الحياةُ كالموت، الشجاعةُ كالتهور..! كنا كنعوشٍ متحركةٍ تسير مع حركةِ الشمس إلى البرِّ الغربي من العالمِ حيث الخلودُ هو المثوى الأخيرُ.

كنت أسير في المنتصف حيث "سات"من أمامي ومن خلفي الحكيم "تيموس" وكنا من الطليعةِ التي ابتلعهم المضيقُ لا يفصلنا عن "تحتمس" سوى عددٍ قليلٍ من الرجالِ الذين دخلوا قبلنا.. كان وجودي بين "سات، وتيموس" قد بعث في نفسي شيئًا من الطمأنينةِ؛ لأنهم حتمًا سيأخذان روحي معهم وسيدلونها على الطريقِ ولن يتركوها تتعرَّضُ للخطرِ في العالم الآخر.

ياااه.. يا للعالم الآخرِ الذي لا ننفكُّ نفكر فيه..! إننا مولعون بمشهدِ المقبرةِ الحانية نضيع حياتنا ونحن مشغولون بالتفكيرِ في الموتِ أكثر من الحياةِ وعندما يأتي ما كنا في انتظارِه ونجده ماثلًا أمامنا نكتشف أننا لم نَعِشْ بما فيه الكفاية، فوراء الخوفِ من الموتِ تختفي الطمأنينةُ من الحياةِ، فنرجوه أن ينتظرَ قليلًا لنعودَ لنعيش حياةً كانت بين أيدينا سهلةً عذبةً كماءٍ رائقٍ يتدفَّق دون عوائقَ لينعش الروحَ ولكننا رفضنا بكلِّ جهلٍ

وغباء..! وقطعًا سيكون رجاءً خائبًا فهذا هو الشيء الوحيدُ الذي لا يقبل الرجاءَ من أيّ مخلوقٍ.. حاولت أن أستعيدَ روحي التي أطلقتُها في رحلةٍ للعالم الآخرِ قبل أن يحينَ أوانُها، فعدتُ إلى المضيقِ.. إلى هذا الطريقِ المُعَذِّبِ للجسدِ والروحِ في آنٍ واحدٍ.. كم أنت مجنون يا "تحتمس"، كم أنت غليظُ القلبِ والعقلِ لتدفعَنا لنسيرَ في هذا الطريقِ الموحشِ.. أيُّ روحٍ شريرةٍ سيطرت على عقلِك ودفعتك لتلك الفكرةِ المهلكةِ..؟ كان يحيط بنا سكونٌ مخيفٌ مطبقٌ لا يقطعه سوى زمجرةِ قِطَعِ الصخورِ التي انسلخت عن جسمِ الجبلِ، وكعقابٍ على هذا الانسلاخ سكنتْ أسفلَ الجبلين وهي تعلن رفضَها الشديدَ وامتعاضَها لأننا نطأُها بأقدامنا.. كان كلُّ شيء في هذا المضيقِ مخيفًا يبعث على الرعب حتى ذرَّاتُ الترابِ التي تعلو وتنتشر من حولِنا كانت تُشبِهُ وحوشًا مفترسةً ستنقضُّ علينا في أيّ وقتٍ وإذا بِـ"سات" تفاجئُ كلَّ من ساقَه حظُّه العَسِرُ للسيرِ في هذا المضيقِ وتشدو بصوتٍ لم أسمع أعذبَ ولا أحلَى منه.

المديح للإله رع حور أختي.. الذي يشرق في الأفق باسمِه

المديحُ للإله رع حور أختي.. الذي يُشرق في الأفقِ باسمِه

كالهواءِ إنه كأتون.. الذي يعيش

إلى الأبد العظيم.. دائمًا في كلّ عيدٍ له

إلى الأبد العظيم

سيد الكل أتون.. سيد الأرض وسيد السماء

السيد في بيت أتون في أفق أتون

ملك مصرَ العليا والسفلى

الذي يعيش في الحقيقة

سيد الأرضين

المديح للإله رع حور أختي.. الذي يشرق في الأفق باسمِه

المديح للإله رع حور أختي.. الذي يشرق في الأفق باسمِه

وبدون شعورٍ بدأ من كان قد سبقنا ومن كان خلفنا يُردِدُ خلفها الغناء، ومنهم من بدأ بالتصفيقِ بانتظامٍ على إيقاعِ الكلمات وكأننا كنا نسير على ضِفَّتَي النيلِ في احتفالِ الفيضان فتراءت أمام عينَيَّ صفحةُ النيلِ العظيمِ والمراكبِ الشراعيةِ الزاهيةِ اللونِ تتحرك بدلالِ فتاةٍ مأخوذةٍ بجمالِها الفاتنِ على مياهه وعلى كلِّ مركبٍ عازفٍ يصدح بالأنغامِ والجميعُ يسير حاملًا هداياه الثمينةَ التي سيُلقي بها في النيلِ كهديةٍ له لتتحوَّلَ المسيرةُ من مسيرةٍ جنائزيةٍ إلى مسيرةٍ احتفاليةٍ.. لا أعرف: هل أصابنا الجنونُ فأصبحنا نغنِّي ونصفق ونحن ذاهبون لحتفِنا المحققِ..؟! أم أنَّ الغناءَ والفرحَ هو الدواءُ السحريُّ الذي اكتشفته "سات" لنقتلَ به عدوَّنا الأولَ –الخوف-!!.

وأيًّاما كان؛ فلقد قدَّمَتْ لنا "سات" هديةً لن ينساها أبدًا الجنودُ عندما اندمج الجميعُ مع غنائها العذبِ وأصبح كلٌّ من يبتلعه المضيقُ من خلفنا يصلُه أولَ ما يصلُه غناءُ من سبقوه فيلحقُ بهم وينضمُّ مسرعًا للغناء، وهكذا يتسلَّم كلٌّ من يدخل هذه الهديةِ غيرِ المتوقعة قيتلقَّها ويمرِّرُها لمن بعده حتى آخرِ رجلين دخلا إلى المضيقِ وهما القائد "مين" وكبيرُ كهنةِ "آمون" "كن آمون" ولا أعلم في الحقيقةِ هل ردَدَ الاثنان الأغاني وتقبَّلوا تلك الهديةَ أم لا.

-١٠-

بلدة عرونا ١٤٥٨ قبل الميلاد.

من الكذابِ القائلِ أنَّ الأنسانَ يولد مرةً واحدةً..؟! لا وحقِّ الآلهةِ إنَّ الإنسانَ من الممكن أن يُولدَ أكثرَ من مرةٍ..! فليست الولادةُ من رحمِ الأمِّ هي الولادةَ الوحيدةَ للمرءِ؛ فهناك الولادةُ من رحمِ المعاناةِ.. تلك هي في اعتقادي البدايةُ الحقيقةُ لميلادِ أيِّ إنسانٍ؛ فمتي خرج الإنسانُ من رحمِ المعاناةِ وتجاوز مخاضَ اليأسِ وقطع الحبلَ السُّرِيَّ الذي يربطُه بالخوف؛ فتلك ولادةٌ جديدةٌ لحياةٍ قطعًا لن تكون كما سبقها أبدًا.

تلك الولادةُ الجديدةُ أحسست بها بمجرد أن لفظني هذا المضيقُ البشعُ من جوفه المخيفِ إلى رحابةِ بلدةِ "عرونا" أو وادي "عرونا" الفسيح.

❊ ❊ ❊

هل ترى قممَ المجدِ العاليةَ تلك يا من تقرأُ حكايةَ العجوزِ "حور" الآن تلك القممُ التي لا يبلغها إلا حفنةٌ قليلةٌ من بني البشرِ.. هل تعلم لِمّ هم هناك يسكنون الأعالي وأنت وباقي العالمِ تقبعون في القاعِ تتخبطون في طرقاتٍ ضيقةٍ سائرين في وقتِ فراغٍ طويلٍ لا ينتهي ولا يقودك إلى شيء البتَّةَ.. وعندما ترفع عينيك إلى قممِ المجدِ لتتحسَّرَ على نفسِك وعلى عجزك المستمرِّ بلا نهايةٍ تتساءل وأنت محاطٌ بكمٍّ هائلٍ من الغموض والانغلاقِ..! لماذا لم يخترِ القدرُ من بين بني البشرِ إلا هؤلاء..؟! ما سرُّهم..؟.

سأمنحك السرَّ المقدسَ، فأنا لديَّ الكثيرُ من الذكرياتِ وكأني عشتُ ألفَ عامٍ أُخفي أسرارًا أكثرَ مما تحتويه مقابرُ "طيبةَ" ووادي الملوكِ؛ فأنا قطعةُ جرانيت راقدةً في جسمِ "أبو الهول" الذي يعرف كلَّ الأسرارِ دون أن يبوحَ بحرفٍ منها، أما أنا فلقد قررت البوحَ بكلِّ شيء، فرأسي قد تعِبَتْ وقررت التقيُّأَ بكلِّ ما تحمله.

لا داعيَ للقلقِ سأعود للإجابةِ على سؤالك؛ فلن تُنسيني الذكرياتُ المتلاطمةُ بداخلي كبحرٍ هائجٍ تلك الذكرياتِ التي تتشابك خيوطُها المتشعبةُ وقد تضافرت في كتلةٍ ملتحمةِ العِقْدِ، ولكنني سأفكُّ تشابكَ الجدائلِ وسألتقط من بينها طرفَ جديلةٍ واحدةٍ، وأن أُخبرَك أنَّ سرَّ هؤلاءِ العظماءِ القابعين في أعالي قممِ المجدِ هو ثلاثةُ كلماتٍ فجعلُ من قلبِك مستقرًا لهم. الإصرار، الثبات، الإيمان.

اطحن جيدًا كميةً من الإصرارِ وأضف إليهم كثيرًا من الثباتِ ثم امزجهم جيدًا بمعجونِ الإيمانِ، وفي الأخيرِ ستحصل على تلك الخلطةِ السحريةِ التي تحتاجها للوصولِ إلى أهدافِك التي وإن بدت للجميعِ أنها أهدافٌ مجنونةٌ، مستحيلةٌ، بعيدةٌ كنجمةٍ تلمع في قُبَّةِ السماءِ؛ فهؤلاء الساكنون قِمَمَ المجدِ كانت أحلامُهم كأحلامِك مسجونةً في قبوِ المستحيلِ، ولكنهم أصرُّوا ولم يلتفُّوا إلى من جلدوهم بسوطِ المستحيلِ، وبمن مزَّقوهم قائلين بأنَّ الطريقَ للسماءِ لم يصل إليه أحدٌ من قبل؛ فلا شيء في هذا العالمِ يحلُّ محلَّ الإصرارِ..! وليس هناك واقعٌ أكثرَ شيوعًا في هذه الحياةِ من أشخاصٍ أرادوا ولم يحققوا ما يريدون بسببِ عدمِ الإصرارِ، ثم بعد ذلك كنْ قويًا ثابتًا لا تتزحزح.. كُن كالجبالِ؛ فليسَ لشيئ ان يتحقَّقَ به هدفٌ بدونِ الثباتِ وليس ينمو بدون الثباتِ ولا يزدهر إن لَّم يُرْوَ بماءِ وعرقِ

ودموعِ الثباتِ ولا يتألَّقُ إلا تحت شمسِ الثباتِ التي لا تغرب أبدًا؛ فمهما كانت عواصفُ الرفضِ وأعاصيرُ الإحباطِ بل وفيضانات الفشلِ التي تغمرك بلا انقطاع فلا تتزحزح من مكانك.. كلُّ ما عليك فعلُه هو الثبات على رغبتك المتَّقدةِ، وأخيرًا لتعلمْ جيدًا ولْتكن مستعدًا؛ لأنَّ الواقعَ سيمزقك بأظافره كفريسةٍ، بل سيستمتع بأكلك بشراهةٍ مقززةٍ وإن لم يكن إيمانُك كصخرةٍ صلبةٍ تحطمُ عِظامَ الواقعِ المفترس لتبني منها جسرًا إلى السماءِ؛ فكن على يقين من أنك لن تصلَ لهدفك المنشودِ أبدًا..! كم هي صعبةٌ تلك المعادلةُ بل إنها شديدةُ التعقيدِ كطقوسِ التحنيطِ والدفنِ الملكيةِ.. ومتشعِّبةُ الدروبِ الخربةِ المظلمةِ الوعرةِ الخشنةِ التي ستُدمي قدميك وقلبَك وروحَك معًا، وستقابل في طريقِك نحوَ هدفك الكثيرَ من العائدين المحملين بسنواتِ المحاولةِ الفاشلةِ وأصابهم الضجرُ والإعياءُ وهزمَهم اليأسُ فلم يستطيعوا إكمالَ الطريق، وستقابل أيضًا الذين فنوا وهم في الطريق، أو الذين لم يحاولوا من الأصل وأقعدهم الخوفُ أو التردُد.. سيقف كلُّ هؤلاء الحمقى الخائبون سدًّا منيعًا بينك وبين ما تريد، ولكن إن نجحت في عبورِ ذلك السدِّ حتمًا سيكون النصرُ في انتظارك على الجهةِالأخرى؛ ليرفعَك إلى قممِ الرفعةِ والمجدِ برفقةِ العظماءِ مُحلِّقًا فوق الحياةِ لتجلسَ تنظر تحت قدميك للعالمِ الذي يتخبط في قاعِ الفشلِ وكهوفِه الباردةِ متذكرًا دربَك الوعرَ ومضيقَك الضيقَ الخشنَ الذي نجحت في عبورِه وعلى وجهك ابتسامةٌ تشرق بها دنياك للأبد.

ذلك هو السرُّ يا ابنتي العزيزةُ التي تلتهمين برديتي الآن بكلِّ نَهَمٍ ..!

-١١-

القاهرة : مساء ٢٦ مارس ٢٠١٥.

ألقت "جيسكا" بالبرديةِ التي بين يديها وكأنَّ جمرةَ نارٍ أحرقت أصابعَها الرقيقيةَ.. أحست أنَّ الأرضَ تحت قدميها مغطَّاةٌ بأرواحٍ قلقةٍ تعذبها بلا رحمةٍ حتى الموت.

ما تلك البرديةُ المسحورةُ التي تلهبها متعةً..؟ ما هذا الحلمُ اللَّعينَ الذي يلتهم الزمن..؟ هل هذه برديةُ رجلٍ عاش قبل آلافِ السنين، أم أنها برديةٌ مسحورةٌ كتبها ساحرٌ قادمٌ من أعماق سماءٍ خرافيةٍ وهو يحرك بداخلِها هذه الهيستريا الممزوجةَ بالمتعةِ والرعبِ؛ ليسقطَها في هاويةِ الحلمِ، والذكرى، والرغبة، والخوف..؟.

شَعَرَتْ بالمكانِ كلِّه يدور بها بسرعةِ طائرةٍ فقدت محرِّكَها وهي تندفع ناحيةَ الانسحاقِ بشكلٍ جنوني.

حاولت أن تفيق من هذا الدوارِ الرهيبِ وأن تستعيدَ جزءًا من اتِّزانها فلو مرت دقائقُ أخرى عليها وهي في تلك الحالةِ حتمًا ستتحطم خلاياها العصبيةُ التي لن تقدر على احتمالِ كلِّ هذا الضغطِ وكأنها بداخلِ آلةِ دمارٍ تُقَطِّعُها إربًا.

ولكنَّ سؤالًا مزعجًا أعادها إلى الدوارِ الرهيب الذي حاولت أن تخرج منه.. كيف لرجلٍ مات منذ آلاف السنين أن يعلمَ أنَّ امرأةٍ هي من ستعثر

على برديته..؟ هل هذه مصادفةٌ..؟ بالطبع هي مصادفة..! ولو اعتقدتُ غيرَ ذلك لكانتُ بحقٍّ مجنونة..! فنهرت نفسَها التي تُصوِّرُ لها أشياءَ وهميةً وخيالاتٍ مريضةً لا يتصورها عاقلٌ، ولكن إن كانت مصادفةً فمن أين له أن يعلمَ أن من تقرأُ برديتَه في حالةِ بحث محمومٍ عن طريقةٍ للوصول إلى قممِ المجدِ والرفعةِ وأنَّ هناك صوتًا يسكن خلف أذنيها لا يصمت لحظةً يُلحُّ عليها بأن لَّا تتوقفَ عن البحث عن السرِّ المقدسِ لكيفيةِ الوصولِ إلى ما تحلم به..؟ هل حقًا يقصدها هي بتلك الكلمات..؟:

- كفى خيالات مريضة أيتها المعتوهة..

هكذا نهرت "جيسيكا" بصوتٍ مسموعٍ لعلَّ الصوتَ يجد له صدىً داخلها فيتوقف عن هذا الهيجان.. بسرعةٍ أفقدتها قدرتَها على التحكمِ في الأشياءِ كطفل يمسك بشيء لأولِ مرةٍ في حياته.. أمسكت "جيسيكا" بحقيبتها التي سقطت على الفورِ من يدها فعادت والتقتطها سريعًا لِتُخرجَ هاتفَها ولِتَضعَ أحشاءَه التي انتزعتها منه وكأنها تريد أن تسمعَ صوته يرنُّ من جديدٍ ويعيدها إلى عصرِها وزمانها الحاليّ.. أرادت بشدةٍ أن تتحدث مع البروفسيرةِ "كريستيان ديروش نوبلكور" فهي القادرةُ على انتزاعِها من هذه الدوامةِ ولتعيدَها إلى برّ العقلِ الذي يتلاشى وكأنه دخانٌ كلما أرادت أن تقبضَ عليه فتحت يدها فوجدت أنها أمسكت بلا شيء.

وكان هناك صوتٌ لحوحٌ يخرجُ من أعماقِها يدفعها لمغادرةِ هذا المكانِ فورًا والابتعادِ بأقصى سرعةٍ ممكنةٍ عن تلك البرديةِ الملعونةِ التي فعلت بها كلَّ تلك الأفاعيل..!نظرت في ساعتِها لعلَّ موعدَ رحلتِها التي ستُقِلُّها إلى مطار

"هيثرو" في "لندن" يكون قد إقتَرُبَ، إلَّا أنَّ الجوابَ جاءها عندما رأت أنَّ الساعةَ قد جاوزت السادسةَ وأيًّا ما كان يجب عليها؛ فعليها أن تغادرَ على الفورِ هذا المكانَ وتبتعدَ عن هذه البرديةِ.. هكذا كان قرارُها الفوريَّ الحاسمَ.

ولكنها سرعانَ ما أحسَّت بالعارِ.. أحسَّت بكمٍّ هائلٍ من الاحتقارِ الذاتيِّ لنفسِها.. كيف لها وهي العالمةُ التي تقيس كلَّ شيء بميزانِ العقلِ وتُخضعُه للبحثِ والدراسةِ تجعل من نفسِها دُميةً لكلماتٍ مكتوبةً من آلاف السنين وتتركها وتفرُّ كمن يفرُّ من وجهِ خرافةٍ يؤمن بها الدجالون ويروجونها بين الجهلةِ ليتربَّحوا منها..!:

• تبًّا.. كيف وصلتِ إلى هذا المستوى يا "جيسيكا" من الانحدار العقليِّ في تقييمِ الأمور..؟!

عادت تحدِّثُ نفسَها بصوتٍ عالٍ وبدرجةٍ أعلى من الاحتقار والاشمئزاز..

وضعت رأسَها بين يديها محاولةً أن تُهَدِّئَ قليلًا من روعها، وعندما سَمِعَتْ صوتَ عقلِها الذي حضرَ في الوقتِ المناسب لينتشلَها من قلبِ هذا "التسونامي" الذي كانت قد أحسَّت معه بالاطمئنانِ قليلًا.. شعرت بجفافٍ شديدٍ في حلقِها يدميه فتناولت زجاجةَ الماءِ التي بجوارِها وارتشفت منها على دفعاتٍ فأعطاها الماءُ السيولةَ التي كانت في أشدِّ الحاجةِ إليها بعدما أحسَّت أنَّ كلَّ خلاياها قد تيبَّست تمامًا مما زاد من جرعةِ الهدوء

والاطمئنان التي حصلت عليها، فأعاد إليها هذا الإحساسُ توازنَها شيئًا فشيئًا، وفي النهاية وكمن يعلن التحدّي على مخاوفِه أخذت قرارَها الصارمَ أنها لن تدخلَ هذه اللعبةَ الوحشيةَ المدمرةَ مرةً أخرى..! سوف تلتزم بالمنهج العلميّ ولن تحيدَ عنه مرةً أخرى، وبيدٍ مرتشعةٍ عادت إلى مكانِها ونظرت إلى البرديةِ وقلبُها دون إرادةٍ منها تتسارعُ ضرباتُه كطفلةٍ تقف على أبوابِ غرفةٍ مظلمةٍ وهي مصابةٌ برهابِ الليل.. جذبت طرفَ البرديةِ لتعودَ مرةً أخرى لمواصلةِ القراءةِ، ولكنَّ هذه المرةَ بعقلِ عالمةٍ ليس للحلمِ فيه مكانٌ ولا وجودَ.

ولكن دونَ إرادةٍ منها سمعت صوتًا يأتي من أعماقِها متضرعةً إلى اللهِ قائلةً :

- لتؤمنْ روحي لأكونَ أقوى دائمًا..

-١٢-

بلدة عرونا ١٤٥٧ قبل الميلاد.

لم أكن أصدق أنَّ الأحداثَ قد وقعت فعلًا على هذا النحوِ، ومع ذلك كنت أشعر بأني أقترب من مكامنِ شيء في طيِّ الأسرارِ العظيمةِ، شيء لا يُدركُ كُنهَه أحدٌ، لقد صدق "تحتمس" في كلِّ كلمةٍ قالها وكذب الخوفُ والخائفون وقادتُه الدعاةُ له وعلى رأسِهم القائدُ "مين" فجيوشُ"ليوماس" لم تكن لتتخيلَ أبدًا أننا سنأتي من هذا الطريقِ فوضعوا ميمنةَ جيشِهم عند وادي "تا عناخ" والميسرةَ عند وادي "قانا" وتركوا تلك البقعةَ دون أيِّ حمايةٍ تُذكر.

وقبل شروقِ شمسِ اليومِ الأولِ من الشهرِ الأولِ من الفصلِ الأولِ من فصولِ السنةِ الجديدةِ كان كلُّ جيشِ "تحتمس" قد وصل إلى بلدةِ "عرونا" خلف خطوطِ جيشِ"ليوماس" وملأ الجنودُ فمَ الوادي عن آخره.

وعلى الفورِ ودون أن يلتقطَ أحدٌ أنفاسَه بدأت عمليةُ إعادةِ تجميعِ المعداتِ والعجلاتِ الحربيةِ؛ ولأن "تحتمس" كان على يقينٍ من أنه سيصلُ إلى ما يريده فلقد كان كلُّ شيء جاهزًا ومعدًّا له مسبقًا في عقلِه ولم ينتظر حتى للتشاورِ مع قادةِ جيشه في خطةِ الهجومِ فلقد فاجأ الجميعَ فأخرج من جرابِ مفاجأته الذي على ما يبدو أنه لا ينضب أبدًا خطةَ الهجومِ التي أعدها مسبقًا.

فقسَّم الجيشَ على غيرِ المعروفِ بالنسبةِ للقادةِ إلى ثلاثِ جهات.. الأولى تكون جهةَ اليمين، والثانيةُ جهةَ اليسار، والثالثةُ هي القلبُ، وسيكون هو على رأسِها ويتم الهجومُ الذي سيعطي الجيشَ الانتشار على أكبر مساحةٍ ممكنةٍ لمهاجمةِ كلِّ جيوشِ"ليوماس" في نفسِ الوقتِ مستفيدًا من عنصرِ المباغتة التي سيخلقها هذا الهجومُ القادمِ من حيث لم يتوقع العدوُّ فيحدث فيه خلخلةً كبيرةً وتصبح أعدادُهم عبئًا عليهم لا ميزة لهم.

وعلى الفور ودون مناقشةٍ تُذكرُ من أحدٍ من القادةِ استمع الجميعُ لخطةِ "تحتمس" وبدأ التنفيذ على الفور.

فوقف الجناح الأيسرُ والذي كان يقوده القائدُ "مين" على ربوةٍ عاليةٍ جنوبَ سهلِ "قانا" أما الجناحُ الأيمنُ فلقد اتخذ موقعَه في الشمالِ الغربيِّ من "مجدو" وكان على رأسِه القائد "ماحو".. وكان جلالتُه في وسطهما يحميه الإله "رع" في حومةِ الوغَى وكانت قوةُ بأسِ الإله "منتو" إله الحربِ تدبُّ في أعضائه ومن خلفه المحاربون مدججون بالكراهيةِ التي تدفع الكائناتِ للقتالِ، الكراهيةِ التي تُوقد العيونَ بنارٍ وراثيةٍ لن تجد من يبرد حممَها إلا دماء أعدائهم.

كان السلاحان الأساسيان اللذان اعتمد عليهما "تحتمس" في هجومه على جيش "ليوماس" هما سلاح العجلاتِ الحربيةِ بكلِّ أنواعِها وأحجامها.. والعجلةُ الحربية هي سلاحٌ فتَّاكٌ؛ فعندما تقتحم ميدانَ القتال وقد بلغت سرعتُها القصوى فكانت تسحق كلَّ من يعترض طريقَها وبخاصةٍ العجلاتِ الكبيرةَ التي تجرُّها أربعةُ خيولٍ أو اثنان.. ويكون بداخلها سائقُ العجلةِ

وخلفه ثنان كلٌّ منهما يُصوِّبُ سهامه في كلِّ الاتجاهاتِ ومن يخطئُه السهمُ فلن ترحمَه العجلاتُ المندفعةُ بقوةٍ وكأنها جمرةُ نارٍ ألقيت في كومةِ قشٍّ.

أما السلاحُ الثاني والذي كان له أثرٌ كبيرٌ في حسمِ المعركةِ، فقد كانَ القوسَ والنِّشَّابَ هو السلاح الرئيسيُّ للهجومِ.. كان هناك نوعان من هذا السلاحِ وقد اعتمد "تحتمس" على كِلا النوعين معًا، فكان القوسُ العاديُّ مصنوعًا من عصا خشبيةٍ مستدقِّ الرأسِ من الطرفينِ، والوترُ مصنوعٌ من أحشاءِ الحيوان المجدولةِ بعنايةٍ فائقةٍ، ومشددٍ بإحكامٍ بالغٍ.. كان هذا السلاحُ في يدِ كلِّ جنودِ المشاةِ في الجيشِ يطلق كلُّ رامٍ وابلًا من حوالي عشرةِ سهامٍ برونزيةِ الرأسِ في الدقيقةِ الواحدةِ كلُّ سهمٍ يُمزِّقُ اللحمَ ويُهشِّمُ العظامَ، ومن ينجو من الموتِ حتمًا ستتحطم جمجمتُه أو أضلاعُه.. ولِجعلِ سلاحِ القوسِ والنشابِ فتَّاكًا أكثرَ استفاد "تحتمس" من تطويرِ سلاحِ القوسِ الذي كان مصنوعًا من طبقاتٍ عدةٍ من الخشبِ ومن قرونِ الحيوان وجلودِه؛ ليصبحَ أكثرَ فتكًا وتدميرًا في أجسادِ أعدائه، ويجتاز مسافاتٍ أطولَ وكان هذا القوسُ المطوَّرُ هو سلاحَ كبارِ القادةِ وسائقي العجلاتِ الحربيةِ، وبواسطةِ هذا القوسِ كان يتم رميُ السهمِ الذي كان يجتاز أربعةَ مائةِ وسبعةَ أمتارٍ.. أي حوالي ضعفَ المسافةِ التي يصل إليها السهمُ المنطلقُ من قوسٍ عاديٍّ؛ لذلك كانت لدى الجنودِ ميزةُ إطلاقِ السهامِ من مسافاتٍ طويلةٍ أو قصيرةٍ.. تخيل ألفَ رام لتلك السِّهام يحمل كلٌّ منهم أربعةً وعشرين سهمًا يطلقونها كلَّ دقيقتين.. أي أربعةٌ وعشرون ألفَ سهمٍ تحصدُ الأرواحَ كالمنجلِ.. لم يكن أمامَ جيش "ليوماس" مكانٌ

يهرعون إليه أو يختبئون فيه؛ فلقد كانت السماءُ تمطر سهامًا فتاكةً بلا توقف.

ألم أقل لكم إن "تحتمس" قرر بطبعِه البشريِّ ألَّا تأخذَه شفقةٌ ولا رحمةٌ بأعدائه..! عكس "رع" الذي أخذته الشفقةُ بأعدائه من بني البشر.

❊ ❊ ❊

لحظةُ الانتصارِ وما أدراك ما لحظةُ الانتصار.. حقًا إنَّ للنصرِ فرحةً لا يُضاهيها في كلِّ المشاعرِ الإنسانيةِ شعورٌ مماثلٌ.. كانت لحظةً فريدةً عندما رأيت بعيني الأعداءَ أصحابَ البشرةِ البيضاءِ التي كانت تتراوح بين البيضاءِ الناصعةِ والأبيضِ المُشربِ بالسُّمرةِ، والشعرِ المجعدِ المموجِ.. أصحابَ العيونِ العسليةِ اللونِ في غالبها، ولكنَّ الذعرَ والخوفَ كان هو اللونَ الطاغي على عيونِ الأعداءِ الذين أُخِذُوا بالمفاجأةِ وتلك الهجمةِ الخاطفةِ المركزةِ فهرعوا مسرعين تاركينَ أسلحتَهم ومعداتهم وعجلاتِهم الحربيةَ، ولم يستطيعوا أن يحملوا إلا أرواحهم الثقيلةَ بفعلِ الرعبِ والخوفِ ويفروا بها بعيدًا عن عجلةِ الموت التي كانت تحصد في طريقِها كلَّ شيء.. أسرعوا ناحيةَ "مجدو" التي أغلق أهلُها أبوابَها الحصينةَ عندما علموا بالهجومِ الكاسحِ للجيشِ المصريِّ، وكلُّ ما استطاعوا فعلَه هو أن يُنزلوا الحبالَ من على الأسوارِ لانتشالِ الفارّين المذعورين من مواجهةِ جنودِ جيشِ "تحتمس" الذي حققَ انتصارًا مدوّيا لم يكن أحدٌ على الإطلاقِ حتى أشدُّ المتفائلين – وللحقيقةِ كان سيرُ الحوادثِ لا يجعل أحدًا على الإطلاق متفائلًا - يتوقع أن يكونَ هناك انتصارٌ في تلك الحربِ التي وصفها الجميعُ بالمجزرةِ أو التهلكةِ أو

الجنونِ، وضع أنت من عندِك أيَّ وصفٍ يطرأُ على بالك ولكنَّ الخلطةَ السحريةَ -الإصرار، الثبات، الإيمان- التي آمّنَ بها "تحتمس" هي ما جعلته في النهايةِ يطوّع المستحيلُ ويجعلُه ممكنًا لينتصرَ في النهاية.

❊ ❊ ❊

- لقد انتهت حربُهم وتوشك حربُنا نحن على البدءِ يا "حور..

بهذه الكلماتِ المرعبةِ استقبلتني "سات" عندما دخلت إلى خيمتِها مسرعًا لأزفَّ إليها خبرَ انتصارِ جيشِنا الساحقِ على جيوشِ"ليوماس".

لتسامحيني يا "سات" ولكني سأكون أمينًا إلى أقصى حدٍّ.. لقد تمنيت أن تنزلَ عليكِ اللعنةُ في ذلك الوقتِ، بل وددتُ لو شملتِ اللعنةُ التي ستحلُّ عليكِ كلَّ الوسطاءِ الروحانيين والمرشدين الذين يخبرونك بلمحاتٍ عن المستقبلِ الذي لا يحمل دائمًا إلا الأخبارَ المرعبة.

هل هذا جزائي..؟ هل أستحقُّ منك أن تقتلي فرحتي بانتصارنا الذي كان يعتبرُ من المستحيلِ بهذا الخبرِ المرعبِ الذي وقع في قلبي فحطَّمه كزوجةٍ تتلقى خبرَ مصرعِ زوجها.. أولستُ أنا من اختاره قلبُك لأكونَ أنا دون كلِّ رجالِ مصرَ أجمعين الذي تمنحينه قُبلةً من شفتيكِ اللتان إن لامستا أيَّ شيء فهي قادرةٌ على منحه السعادةَ الأبديةَ التي ستظلُّ تنبض بداخلِه إلى الأبد..! لماذا تسلبينها مني الآن..؟.

❊ ❊ ❊

في الخيمةِ جلس الجبار، راضيًا عن عملِه، عظيمًا بقوةِ الانتصار، معطرًا برائحةِ الانتصار، مهيبًا بثوبِ الانتصار، مضيئًا بشعلاتِ الانتصار.. وفي عينيه عنفوانُ قلبِه القويِّ كَثَوْرٍ، حُرّا كإلهٍ سماويٍّ يسكن الأرض..! وقف الجميعُ حول "تحتمس" سعداءَ، مبهورين، متفاخرين بما تحقق، أما أنا فوقفت وفؤادي محطمًا من معانقةِ الأخبارِ المرعبة التي ألقتها في حجري "سات"..! كنت سأنفجر في الجميعِ أرجوكم خفِّضُوا أبواقَ الفرحِ اللاذعِ تلك؛ فهناك روحي التي تتألَّم مثل دجاجةٍ تُشوى؛ وهي حيةٌ لأنها تعلم ما أخفته حُجُبُ المستقبلِ عنكم وكشفته لي -لأجل حظِّيَ التعيسِ- "سات" التي تقف بجواري في ثوبِ الأنقياءِ لتقدِّمَ لي سمَّ المستقبلِ الذي أخبرها أنَّ الحربَ التي اعتقدوا جميعًا أنها قد انتهت هي لم تبدأ في الأصل..! ليتني لم ألتقيكِ يا معذبتي.

تقدَّم الكاهنُ "كن آمون" من "تحتمس" وخرَّ على الأرض ساجدًا فمنعتْ بطنُه العظيمةُ التي تتدلَّى أمامَه جبهتَه من أن تصلَ إلى الأرض.. وعندما أذِنَ له "تحتمس" برفعِ رأسِه اعتدل ليقفَ أمامَه قائلًا"

• أبوك "آمون" الذي في السماءِ يبعث لك بتحياتِه ويخبرك أنه قد وقف في مقدمةِ سفينتِه المقدسةِ حتى قيَّدَ لك النصرَ وألقى في قلوبِ أعدائك الرعبَ، ويقول: إنه سيظل بجوارك ليمنحَك مزيدًا من القوةِ وليشملَك برعايتِه الأبدية..

شعرت أني أتجول وحيدًا وسط بِرَكٍ من المياهِ العفنةِ.. بين أزهارٍ فاسدةٍ وأوراحٍ منافقةٍ تتحدث بلسانِ الآلهة المزيفةِ لتضمنَ النصيبَ الأكبرَ من الغنائم.

ثمَّ تقدمَ القائدُ "مين" هو الآخرُ يؤدي رقصةَ النفاقِ للنجمِ اللامع بالانتصار:

• مولاي يعلم جيدًا مدى إخلاصي لجلالتِه وللعرشِ، وأحسب أنَّه من واجبي نحوَ جلالتِكم أنْ أُقدِّمَ الحقائقَ كما هي لا زيفَ فيها ولا مراءَ، وكان الإخلاصُ والواجب هو دافعي لأضعَ أمامكم الحالَ كما هو واقعٌ، على أن يكونَ لجلالتكم فيه الرأيُ النهائي..

بلهجةِ المنتصرِ الذي لا يعنيه أيُّ شيء؛ فكلُّ الأشياءِ تتضائل أمامه، ردَّ على "مين" قائلًا:

• إنَّ ضميرَك فوقَ مستوي الشبهاتِ، وما خالطني شكٌّ أبدا في إخلاصِك، ولعلَّ هذا هو ما يجعلك واقفًا أمامي الآن..

وبطبعِه المندفعِ كسهامِه البرونزيةِ الفتاكةِ التي كانت سببًا مباشرًا وأساسيًا في الانتصارِ الذي تحقَّقَ قال القائدُ "بتاح":

• سوف أُرسل على الفورِ أسرعَ الجيادِ لتسابقَ الريحَ لتعلنَ لجموعِ الشعبِ المصريِّ خبرَ انتصارِ جلالتِكم؛ ليكونَ الشعبُ في انتظارِ ملكِهم للاحتفالِ معه بالنصرِ:

بابتسامةِ سخريةٍ تساءل "تحتمس" قائلا:

- عن أيِّ نصرٍ تتحدث أيها القائدُ بتاح..؟!..

وعلى الفورِ سقطت الابتساماتُ التي تعلو الوجوهَ من فعلِ فرحةِ الانتصار لتحلَّ محلها ابتساماتٌ بلهاءُ من فعل صدمةِعدمِ الاستيعاب لما قالَه "تحتمس" الذي يبدو أنه كان يستعدُّ لإخراج مفاجأةٍ جديدةٍ من جرابِ مفاجآته الذي لا ينضب أبدًا..! وبتلعثمٍ وارتباكٍ أراد القائدُ "بتاحٍ" استيضاحَ ما يعنيه "تحتمس" بالظبط، فقال:

• الانتصار الذي حققناه على جيوشِ"ليوماس" منذ قليلٍ بقيادةِ جلالتِكم..!

بحزمٍ وهو ينتصب واقفًا ودويُّ صوتِه الجهوريِّ يملأُ أرجاء الخيمةِ قائلًا:

• ليكنْ معلومًا لديكم جيدًا أنَّ الحربَ لم تنتهِ وإياكم أن تُصوِّرَ لكم أوهامُكم أننا حققنا الانتصارَ الكاملَ.. إنَّ ما حققه جلالتي إلى الآن ما هو إلا نصفُ انتصار..! أما الانتصارُ الكاملُ بالنسبة لي سيكون عندما ندخل بخيولِنا ويظهرُ رجالُنا علي أسوارَ مدينةِ "مجدو" لتنضمَّ إلى المملكةِ المصريةِ وتخضعَ للتاجِ الفرعونيِّ للأبد..

سقطت قلوبُ الرجالِ مغشيًا عليها من هولِ الصدمةِ، فلم يسمع أحدٌ من قبلُ عن مدينةٍ مصريةٍ خارجَ حدودِ وادي النيل، فكيف ستكون

"مجدو" مدينةً مصريةً وهي لا ترتبط بالنهرِ العظيم..؟ ناهيك عن كلِّ ذلك.. كيف سنستطيع دخولَ مدينةِ"مجدو"..؟ تلك المدينةُ مستحيلةُ الاختراقِ؛ فأسوارُها لا يستطيع أيُّ جيشٍ هزيمةَ تحصيناتها أو اختراقَها مهما كانت قوتُه..؟! فكيف السبيلُ إلى ما ذكره "تحتمس"..؟ تبادل الجميعُ النظراتِ وكأنَّ القادةَ كلٌّ منهم يرجو الآخرَ؛ ليتجرَّأعلى مناقشةِ "تحتمس" في ذلك الأمرِ.. ولكنَّ أحدًا لم يفعل، فهم قد تجرَّأُوا مرةً وفي النهاية كان الفشلُ حليفَهم، ولن يقعوا في نفسِ المصير مرةً أخرى.

نظر "تحتمس" نحوَ رجالِه فعرف ما تئنُّ عقولُهم وصدورُهم بحملِه، فأراد أن يرفعَ عنهم الحرجَ ويكشفَ لهم ما قرر فعله:

- لن نغادرَ"مجدو" يا أبنائي حتى تسقطَ "مجدو" وسنضرب على أهلِها الحصارَ حتى يُعلنوا الاستسلامَ مختارين أو مجبرين..

سقطت فرحةُ الانتصارِ قتيلةً في القلوبِ، وأخيرًا شاركوني بعضًا مما أنا فيه.

-١٣-

سهل مجدو ١٤٥٧ قبل الميلاد.

تتوالي تساقط حبات الرمل من الساعة الزمنية فتسقط الشمسُ على الأرضِ وترتفع عائدةً تاركة مكانَها لضوءِ القمرِ في تعاقبٍ لم يستطِع الزمنُ أن يكسرَ تناغمَه المستمرَّ في حركاتهما.. تتبدل الفصول ما بين حرارةٍ وبرودةٍ، ويتوسطهم ربيعٌ تتفتح فيه الزهورُ وتتلألأُ الأشجارُ وترقص الأوراقُ فوق الغصونِ طربًا، وكأنها في احتفالِ عيدِ الجمالِ، ثم يأتي خريفٌ يُخرّبُ الجمالَ ويعصف به بيدِه الخشنةِ.. العالمُ بأسرِه يتحرك ويدور إلا نحن جيشَ "تحتمس" الذي حكم علينا بلعنةِ الانتظارِ الأبديّ الذي أتعب الأرواح بكلّ تأكيدٍ؛ فكأنَّ الجميعَ داخل قفصٍ حديديٍّ كبيرٍ بدون قضبانٍ.. الجميعُ كان يتوق إلى العودةِ إلى أحضانِ الأرضِ السوداءِ.. الجميعُ يعصف به الحنينُ للوطن وفي شوقٍ لاستنشاقِ هواء وادي النيل.. الجميعُ يرى أنه أدَّى ما عليه وكلُّ ما نحن فيه الآن ترفٌ يمليه الغرورُ على من كان النصرُ حلمًا بعيدَ المنالِ عنه، ثم بعد أن أصبح في المتناول دفعَه الغرورُ لطلب المزيد.

العزلة، السأم، شعوران غيرُ قابلين للتبدُّلِ كنا ندور في فلكهما، وعندما كنت أنظر في عيونِ الرجال ممن فرض عليهم "تحتمس" هذا الوضع كنت أرى عيونًا جوفاءَ زابلةً تروي حكاياتٍ لا تحصى عن الأحلامِ المجهضَةِ والقلوبِ المحطمةِ والأجسادِ الحزينةِ الخاملةِ؛ بسبب هذا الأنانيّ المنغلقِ على نفسِه داخل خيمتِه لا يشغلُه سوى انتصارِه هو فقط..

سعادتِه هو فقط.. مجدِه هو فقط.. ليعلنَها مثل ما أعلنتها قبلَه "حتشبسوت".. ليغربَ الجميعُ عن وجهي إنها لحظتي أنا.

❊ ❊ ❊

في خيمةِ القائد "مين" تمَّت دعوتي أنا والطبيب "تيموس" و"سات" التي رفضت تلبيةَ الدعوة؛ فيبدو أنها كانت تعلم مسبقًا أنَّه لا طائلَ منه، فالفيضانُ سيكمل اندفاعه حتى المصبِّ ولن تستطيعَ أيُّ عوائق إيقافَه كان الاجتماعُ يضمُّ بخلافِ صاحبِ الدعوةِ القائد "مين" وأنا و"تيموس"وكلًّا من القائدِ "ماحو" والقائد "بتاح" و"كن آمون".

افتتح القائدُ "مين" الحوارَ مع القادةِ الذين لبَّوا الدعوةَ قائلًا بضجر شديد:

• هل رأيتم ما نحن فيه..؟ هل هناك أحدٌ أكثرُ حزنًا وأكثرُ إيلامًا وأكثرُ عزلةً منا أيها المخلصون..؟!

بخيبةِ قائدٍ مقهورٍ لا يستطيع إصدارَ أيِّ أمرٍ فيطاعَ تساءل في ضيقٍ شديدٍ القائدُ "ماحو" قائلًا:

• وماذا تريدنا أن نفعلَ أيها القائدُ..؟ لقد قال الفرعونُ في هذا الأمرِ كلمتَه الأخيرةَ..

بابتسامةٍ بيضاءَ لا تنبئُ إلا عن مكرٍ لا نهائيٍّ عاجلَه الكاهنُ"كن آمون":

• لا شيء نهائيٌّ في أمورِ السياسة والحرب.. كلُّ شيء قابلٌ للمناقشةِ أيها العزيزُ"ماحو"..

ودون أن ينتظرَ حتى أن يرتدَّ إليه الجوابُ على كلامِه توجَّه "كن آمون" بسؤالٍ للطبيبِ"تيموس" قائلًا:

• أليس كذلك أيها الطبيب تيموس..؟

بهدوءٍ تفرضُه الهيبةُ التي وُلد بها أجاب "تيموس" على هذا الثعبان:

• لقد أصبح معروفًا لدى الجميعِ أنَّ الفرعون لا يتزحزح عن قرارٍ اتَّخذه..

بعصبيةٍ شديدةٍ وهو يطوّحُ يدَه في الهواءِ اندفع القائدُ "مين" قائلًا:

• إنه يخوض حربًا لم يسبقه أحدٍ إليها ولم نسمع بها.. طوال التاريخِ المصريّ لم يَسْعَ أحدٌ من الفراعنةِ لاحتلالِ أيّ مدينةٍ أو بلدٍ؛ ليضمَّها للمملكةِ المصريةِ.. لم نسمع أنَّ أحدًا تملَّكته هذه الرغبة الشريرةُ، روحُ التوسعِ والهيمنةِ تلك، وأخشى أن يكونَ هذا تجديفًا لن تقبلَ به الآلهةُ..

وهو يتخذ وضعَ من يجلس في قدسِ الأقداسِ ويناجي إلهَه، قال "كن آمون" بتحذيرٍ مسموم :

• أخشى بشدةٍ يا أبنائي من غضبِ "آمون" فهو قادرٌ على منحِ الهزيمةِ قدرتَه على منحِ النصرِ.. قادرٌ على الحذلانِ قدرتَه على العونِ. وأرى أنه يكفي ما تحققَ لنا من انتصارٍ وما حصلنا عليه من غنائمَ من العدوِّ الخاسئِ..

باستنكارِ أبٍ يتحسَّرُ على ما آلتْ إليه طباعُ ابنِه الذي لا أملَ في صلاحِ حالِه واصلَ القائد "مين" كلامَه:

• أرى أنه قد بلغ ذروةَ الاعتداد والتقوقع علي ذاته .. أنه بما يفعله يقتلع نفسَه من كلِّ ثوابتها.. إنه يلهوا بالتقاليد الموروثة عبثَ طفلٍ أهوجٍ..

إنه يريد أن يخلقَ عالمًا على مقاسِه هو ولا يفكر في أيّ شيء آخرَ سوى رغباتِه هو فقط.. لقد تناسى أنه مسئولٌ عن جيشٍ كاملٍ، ومن خلفِه أُمَّةٌ وشعبٌ تتعلق حياتُهم ومصائرُهم بما يتخذه من قراراتٍ..

علَّق "تيموس" محاولًا أن لَّا يجعلَ نبرةَ التمردِ تستفحلُ وتتملك عقولِ القادةِ قائلًا:

• ولكننا مقيدون بالالتزامِ برأيه وإطاعةِ أوامره بصرف النظر عما نحمله بداخلِنا من أراء وأحكام.. فأنتم رجالُ مصر الأبطال وخدام العرشِ وحماةُ الوطن وجنودُه البواسل..

وقعت كلماتُ "تيموس" موقعَ الاستحسان في نفوسِ الرجال، فكانت كقطراتِ الماء التي لامست سطحًا ساخنًا فلطَّفت من حرارتِه..

فعقَّب القائد "ماحو" قائلًا:

• صدقت أيها الطبيبُ.. لذلك وجب علينا أن نقف جميعًا وقفةَ رجلٍ واحدٍ وأن نعلنَها واضحةً لا لبسَ فيها أن لَّا أحدَ منا ولا من الجنودِ والضباطِ يريد أن يظلَّ عالقًا في هذا الوضعِ المعذب للأرواح، الذي لا نعرف له نهايةً.. وكفى ما تحققَ ولنعُدْ من حيث أتينا.

بحماسٍ يملؤه الأملُ للخروجِ من هذا السجن قال القائدُ "بتاح" :

• أظن ساعتَها أنه لن يستطيعَ أن يظلَّ ثابتًا على موقفِه، بل سوف يتزحزح بالتأكيد..

باستفسارٍ خبيثٍ كمن يريد أن ينتزعَ أبشعَ ما تخبِّئُه الصدور تساءل الثعبانُ "كن آمون" :

• وإن رفض وصمَّم على رأيه..؟

وكان للاستفسار الخبيثِ الذي أطلقَه "كن آمون" نتيجةً فوريةً وكأنه أعاد النيران التي خمدت للاشتعالِ من جديدٍ وبخاصةٍ داخل القائدِ "مين" الذي أعلنها واضحة:

• له ما يشاء.. فليبقَ هو وحده هنا حتى تُفتَّحَ أمامه أسوارُ "مجدو" ويغزوها هو بمفرده..!

بنبرةِ خوفٍ من العواقب، قال "بتاح":

• لا نريد أن تصل الأمورُ لمرحلةِ الصدامِ مع الفرعون..

بلا مبالاةٍ ودون قلقٍ من أيّ عواقبٍ تحدَّث "ماحو":

• هو من فرض علينا هذه المواجهةَ، وأظن بل أكاد أجزم أننا سنعود تلك المرةَ لمصرَ ونحن مرتاحوا الضميرِ؛ لأننا أدَّينا واجبَنا على أكملِ وجهٍ ولم نقصِّر فيه أمام ضمائرِنا وأمام التاريخ..

المنظر الذي يحيط بي كان على درجةٍ لا تقاوم من بثِّ القلقِ والرعبِ في روحي كأنَّ هناك وحشين يقفان، وهما على أُهبةِ الاستعدادِ للصراع على الغنيمةِ دون أن يريد أحدُهما التضحيةَ لأخيه بنصيبِه، وكلاهما خاسرٌ في النهاية.. وكأنَّ الحكيمَ "تيموس" قرأ ما يدور في عقلي فأسرع بالقولِ موجِّها كلامَه للجميعِ مانحًا إياهم شيئًا من التعقلِ:

• لنعطِ الأمورَ بضع أيامٍ أخرى حتى نهدأ جميعًا، وأنا سأحاول التحدُّثَ مع جلالةِ الفرعونِ لعلّي أَصِلُ معه إلى نتيجةٍ، فالصدامُ مع جلالتِه لن يكونَ فيه فائزٌ، فالجميعُ سيكونُ خاسرًا بلا أدنى شكٍّ، وأظن أنكم توافقونَني الرأيَ في ذلك..

❊ ❊ ❊

أعتقد أننا في أحيانٍ كثيرةٍ نفقد البوصَلَةَ التي تجعلنا قادرين على التفريقِ بين الخطأ والصوابِ لقربنا منهما، فمن الممكن أن يكونَ خطأُ اليومِ هو الصواب بعد عشرِ سنين، ثم يعود خطًا بعد عشرٍ أُخَر.. لا شيء ثابتٌ في هذه الحياة.

وأعتقد أيضًا أننا نتعلَّم من الأشخاص الذين ينتقدوننا ويهاجموننا أكثرَ من الأشخاص الذين يُثنون علينا ويباركون كلَّ شيء نفعله، فبردياتُ التاريخِ ممتلأةٌ بأشخاصٍ دمرهم المنافقون الذين أمطروهم بالمديح فأفقدوهم كلَّ قدرةٍ على التغيير والفعلِ، فجميعُ الأحداث العظيمةِ سواءٌ كانت خطًا أو صوابًا خرجت من رحمِ التحدي الذي كان كلمةَ السرِّ في كلِّ خطوةٍ يخطوها "تحتمس" نحو هدفه.

وتحت أسوارِ"مجدو" وفي السهل الفسيحِ فقدنا الهدفَ وضاع التمييزُ بين الخطأِ والصوابِ.. فالكلُّ سابحٌ في بحرِ هواه؛ فالقادةُ غاضبون، والضباط متذمرون، والجنود متململون، والفرعون معزولٌ، وتيموس تحطمت محاولاتُه على صخرةِ العناد وفشلَ في رأبِ الصدعِ وتقريب وجهاتِ النظرِ،وسات محتجبةٌ في خلوتها، ورغم أني حاولت بكلِّ الطرقِ إقناعَ الحكيمِ تيموس أن يجعلَها تقطع خلوتها؛ لتدخلَ على تحتمس وتتحدث معه؛ فهي الوحيدةُ القادرةُ على إقناعه، إلا أن الفشلَ كان كما يبدو هو سيدُ الموقف في تلك الأرضِ الملعونةِ، فلا أحدَ نجح في أيِّ شيء سعى إليه أو أراده.

كانت كلُّ الطرق تؤدي إلى نتيجةٍ واحدةٍ مخيفةٍ.. هي الصدامُ الذي حاول الجميعُ تجنبَه، ولكن يبدو أن السعيَ الدائمَ لتجنبِ شيء هو في

الحقيقةِ أقصرُ الطرقِ وأسرعُها للوصول إليه، فأصدر "تحتمس" أمرًا بعقد اجتماعٍ في خيمتِه مع كبارِ قادته؛ ليضعَ الجميعَ أمام عجلةِ المواجهةِ الحتميةِ، فذهب الجميعُ وكلٌّ طرفٍ متحصنًا خلف ساترَ من أفكارِه ووجهةِ نظره التي لن يقبلَ سواها ولن يتزحزح عنها..

ذئابٌ جائعةٌ كلٌّ منها متعطشٌ للفتك بالآخرِ.. كانت لحظةً تتطلب وقوف كلّ شعبِ وادي النيل في الحقولِ، والمحاجرِ، والبيوتِ، والمعابدِ، والطرقاتِ، حتى في الحاناتِ الموبوءةِ، وفي بيوتِ التحنيطِ الخاصةِ بالعامةِ والمدنسةِ بالخطايا؛ ليبتهلوا جميعًا بقلوبِ مَنْ أدركَهم الغرقُ بعد أن تحطَّمت سفينتُهم وأصبحوا يصارعون الهلاكَ متشبثين بالحياةِ؛ لكي ترسلَ الآلهةُ لهم طَوقَ النجاةِ.. لا شيء مهما قلت يمكن أن يعطيَكم فكرةً عن الوضعِ الذي كنا فيه..! أتظنون حقًّا أنه يمكن قولُ كلّ شيء،،؟! تصويرُ كلّ شيء، تعريةُ كلّ شيء، أظنُّ أنَّ ذلك دربًا من الخيالَ، فهناك من المواقف مهما قيل فيه ومهما حاولنا تصويرَها فلن نستطيعَ أبدًا إيضاحَ الصورةِ بطريقةٍ دامغةٍ..! أعترفُ أنَّ ما سبق هذا الاجتماعَ أعياني وصفُه، ولم أصل إلى لغةٍ تستطيع أن تجعلَني أُصوّرُ لكم ما كنا فيه، فمهما كان المرءُ منَّا ممتلكًا للعقل، والمخيلة، والحواس المتوازنة بصورةٍ فائقةٍ تعطيه غطرسةَ أنه قادرٌ على إيصال أيّ شيء يريده، لكنَّ الحقيقةَ هاهي: الإنسانُ دائمًا عاجزٌ، هشٌّ، حاملٌ رغمًا عنه عبءَ سقطتِه الأولى.

يا شعبَ وادي النيلِ أغيثونا بدعواتكم، فجيشُكم على وشكِ أن يتداعَى وتنفصلَ الرأسُ عن الجسدِ وتلك مصيبةٌ..

❊ ❊ ❊

كانت دقاتُ قلبي تتقافزُ من الرعبِ كضفدعٍ في وحلٍ.. آهٍ لتلك اللحظةِ التي لن يصبحَ ما بعدها مثلَ ما قبلها أبدًا.. وقبل أن يبدأَ أيًّا من الطرفين في الهجومِ فوجئْنا بدخولِ "سات" ورغم أني كنت أحاول أن أتجنبَها خلالَ الفترةِ الماضيةِ ليس لأني لا أودُّ رؤيتَها، بل على العكسِ فقد كنت أحترق شوقًا لقربِها والتوددِ إليها، ولكنني كنت أهرب من تنبُّؤاتِها وما تكشفُه لي عن المستقبل.. إلا أني شعرت براحةٍ كبيرةٍ من وجودِها في تلك اللحظةِ، ولكن ماذا سيفعل القطُّ الوديعُ إذ كشَّرتِ الذئابُ عن أنيابها..؟ خطرت لي أمنيةٌ.. من شدةِ رغبتي في تحقيقها كنت على يقينٍ من أنها ستحدث لتخلِّصَنا مما نحنُ فيه.. كانت أمنيتي أن توعزَ الآلهةُ إلى "ليوماس" ليرسلَ جيوشَه أو ما تبقَّى منها للهجومِ علينا والانتقامِ من هزيمتِنا لهم؛ فحتمًا لو فعل ذلك الآن لتناسَى الجميعُ خلافاتِهم واتَّحدوا ووقفوا جنبًا إلى جنبٍ مثل القنافذ التي لا يمكن أن يقتربَ بعضُها من بعضٍ إلا إذا أطلَّ الشتاءُ برياحِه المتواصلةِ وبرودته القارسةِ ساعتَها تضطرُّ القنافذُ للاقتراب والالتصاقِ ببعضِها ككتلةٍ واحدةٍ طلبًا للدفءِ متحملةً ألَمَ الوخزاتِ وحدَّةَ الأشواك.

لم أكن أتخيل قطُّ أنَّ الآلهةَ قريبةً منَّا إلى هذا الحدِّ؛ فأنا وللحقِّ لم أكن من المؤمنين بها وبكلِّ تلكَ الهالةِ والقدرةِ الخارقةِ التي نصنعُها لها، وأنها هي المتحكِّمَةَ في حياتنا وأقدارنا..! لم أستطيع أن أستوعبَ على الإطلاقِ فكرةَ أنَّ هناك قُوَىً خفيةً غيرَ مرئيةٍ هي ما تُحدِّدُ اختيارتِنا، بل ومصائرَنا أيضًا كنت أشعر أنَّ الحياةَ لم تعطِ لنا نحن بني البشرِ القدرةَ على التمييزِ والتفكيرِ، ثم تأتي بعد ذلك لتسلبَنا القدرةَ على الاختيارِ وتحمُّلِ تبعاتِ هذا الاختيار..! لم أكن أتصوَّرُ أنَّ كلَّ هذا الشرِّ بكلِّ صورِه وبكلِّ

ويلاتِه وبكلِّ مخازيهِ من فِعْلِ أحدٍ غيرِنا..ولَكَمْ عنَّفتنِي أُمِّي بشدةٍ على ذلك التجديفِ، وحذَّرتني منه أشدَّ التحذيرِ، ولكنْ ها هي كلُّ معتقداتي على وشكِ أنْ تتبَّدَلَ كُلِّيًا عندما وجدتُ أنَّ الآلهةَ قد استجابت لي وأنها قررت أنْ تتدخلَ هي دون استخدامِ ألاعيبِها وأسبابِها التي تمنع بها حدوثَ المصائبِ؛ فنسرعُ الخُطَى ناحيةَ المعابدِ مقدِّمين القرابين مبتهلين شاكرين؛ لأنها تدخَّلت في الوقتِ المناسبِ لإنقاذنا.. كلَّ هذا كان بالنسبةِ لي حمقٌ وعربدةٌ، ولكني أعترف أني كنتُ أحمقَ لئيمًا؛ فَها هي الآلهةُ قد حضرت لتتدخَّلَ شخصيًا للحيلولةِ دونَ وقوع أعظمِ كارثةٍ كانت من الممكن أن تحلَّ على مصرَ محبوبةِ الآلهةِ..!

❊ ❊ ❊

كانت الشمسُ في تلك الأثناءِ تتراخى حركاتُها في كبدِ السماءِعلى وشكِ الأُفولِ، والأجواءُ مصبوغةً بصُفرةٍ قاتمةٍ.

فجأةً وكأنَّ الأرضَ قد انشقت فوجدناه دون أيِّ مقدماتٍ يقف وسطَ الخيمةِ بطولِه الفارعِ ولحيتِه التي كانت أنصعَ بياضًا من الثلجِ مجدولةً على هيئةِ ضفائرَ تتخلَّلُها خيوطٌ من الذهبِ الأحمر مُمسكًا في يدِه صولجانًا ذهبيًا لم أرَ في حياتي أجملَ ولا أروعَ صنعًا منه، كان صولجانًا يليق بإلهٍ بحقٍّ..! وعلى رأسِه يستقرُّ تاجٌ سماويٌّ مرصَّعٌ بالأحجارِ الكريمةِ.. كان خدَّاه وشعرُه مدهونًا بالزيتِ المعطَّرِ الذي يبعث في النفسِ القدرةَ على السُّموِّ.. يُخلِّصك من طبيعتك البشريةِ المنحطةِ، ورغم ذلك كان الهواءُ الذي حمله

معه إلى داخل الخيمةِ الملكيةِ ثقيلًا يكاد من فرطِ ثِقَلِهِ يحبسُ الأنفاسَ، وبدأ في التحرُّكِ وهو يتثاقل في مِشيتِه ويتمهَّل وكأنَّه يمارس مراسمَ التطهيرِ، وكأننا على وشكِ المثولِ أمام محكمةِ "أوزوريس" المكونةِ من قُضاتِه الاثنين والأربعين ليصدروا علينا حُكمَهم النهائيَّ.. إمَّا بسكُنَى الفردوسِ الأبديّ أو أن يكونَ إلى الجحيمِ مصيرُنا.. وقف الجميعُ غيرَ مصدِّقين ما يرونَه: هل نحن في حلمٍ أو أننا مستيقظون وفي كاملِ وعينا..؟ ودون أن ينطقَ باسمِه أو يفصحَ عن شخصيتِه وقع في قلوبِنا جميعًا نفسُ الخاطرِ: أنه "الإله "حورس" الحي.. حورس إلهُ المنتصرين، السيدُ في السماء..

سَرَتْ في أجسادِنا رعشةٌ واندفعتِ الدماءُ إلى الوجوهِ فكستها بحمرةٍ ملتهبةٍ غيرَ مصدقين حتى الآن ما يحدث أمام أعيننا.. هل هو واقعٌ حقًّا..؟! وقف الإله "حورس" مباشرةً أمام "تحتمس" قائلًا:

- أُهنِّئُك على ما أُوتيتَ من قدرةٍ على التخطيطِ وقوةٍ في الثباتِ على الرغمِ مما تقاسيه من الأهوالِ والتمرُّدِ..!

بتلك الكلماتِ خاطبَ "حورس" ابنَه ومُمثِّلَه في الأرضِ "تحتمس" فلقد كان كلُّ الفراعنةِ يستمدون قوتَهم وسلطانَهم على عرشِ مصرَ باعتبارِ أنهم مُمثِّلينَ للإلهِ "حورس" المحبَّبِ للمصريين.

لم يُجِب "تحتمس" بشيءٍ سوى بأنَّه حنى رأسَه إجلالًا لمن يقفُ أمامه؛ فهو يقف أمام سيِّدِ الضوءِ الذي يعرف مسالكَ السماءِ..! وواصل "حورس" كلامَه بنبرةٍ مُستجلَبةٍ من أعماقِ الزمانِ السحيقِ:

- لقد أرسلتُ من قبلُ الآلهةَ التسعةَ مُحمَّلا برسالةٍ لك.

وقفنا جميعًا على أطرافِ أصابعنا؛ فها هي الانفراجةُ تأتي من قِبَلِ القُوَى العُليا التي لا نملك أمام قراراتِها إلا الانصياعَ:

• كفى ما تحققَ.. ليس هناك حاجةٌ للمزيدِ ومواصلةِ هذا الحصارِ..

ذلك هو حكمُ الآلهةِ، وطلبُ الآلهةِ غيرُ قابلٍ للرفضِ..! وبتحدٍّ عجيبٍ لرغبةٍ إلهيةٍ صريحةٍ لا يجرُؤ على مخالفتِها أو عصيانها أيُّ بشريٍّ مهما كان شأنُه، حتى ولو كان فرعونًا:

• لا يحقُّ لأحدٍ أن يُمليَ علينا أفعالَنا؛ فنحن لا نُسأَلُ عن أعمالِنا سوى في العالمِ الآخر.. أما هنا فنحنُ أصحابُ القرارِ، ونحنُ من سنتحمَّلُ تبعاته ونتائجَه مهما كانت..

ساد صمتٌ مرعبٌ من ردِّ "تحتمس" غيرِ المتوقَّعِ .. هل فَقَدَ عقلَه إلى هذا الحدِّ؛ ليتجاوزَ في حضرةِ الإله "حورس"..؟! هل بلغ به الجنونُ مبلغةَ لرفضِ طلبِ الإلهةِ بكلِّ ذلك الثباتِ العجيبِ..؟! واصل "حورس" كلامَه بترفُّعٍ إلهيٍّ لا يتعجَّل أخذَ المخطئِ بالعقابِ السريعِ:

• سوف أعتبر كلامَك لحظةَ عصيانٍ صادرةً عن نزقِ الشبابِ واندفاعِ المغرورِ المختلِطِ بزهوِ الانتصارِ..

لا أُنكر أبدًا أنَّ انبهاري بشخصيةِ "تحتمس" وقدرتِه على الصمودِ وقتَ المحنِ التي مررنا بها سواءٌ كانت في الطريقِ من "دومفكات" حتى بلدةِ "يحم" أو أثناءَ عبورِنا المضيقَ الذي قادنا إلى بلدةِ "عرونا" ومنها إلى النصرِ الذي لم

يكن يحلم به أحد قد غطَّى على المحنةِ نفسِها..! أما الآن وفي ذلك الوقتِ بدت عليه أماراتُ الشغفِ غيرِ المحدودِ بكلِّ الأشياءِ التي تُؤدِّي بينا إلى الهلاك، هذا فوق أني شعرتُ أنه لم يكن يتشبث بوجودِنا من حولِه.. لم يكن يعزُّ عليه فراقَ أحدٍ منَّا حتآ ولو كان أقربَ الناسِ إليه.. كلُّ ما كان يفكرُ فيه هو الوصولُ إلى هدفِه فقط، والإمساكُ بحلمه مهما حدث؛ فواصلَ تحدِّيه لِـ"حورس" قائلًا:

• أخبرني يا سيدَ الأبديةِ: لماذا لم تتوقف عن محاربةِ عدوِّكَ "ست" رغمَ أنَّ الإله "رع" حذَّرك من فناءِ العالمِ بسببِ تلك الحربِ الضاريةِ بينكم والتي كانت سببًا في تقسيمِ العالمِ.. لماذا لم تتوقف وواصلت حربَك للنهايةِ..؟!

بهدوءٍ ورويَّةٍ قال "حورس":

• للآلهةِ أسبابُها التي لا يستطيع إدراكَها البشرُ يا سيدَ الأرضين..!

بتحدٍّ ووثُوقٍ مخيف أجابَ "تحتمس":

• وللبشرِ أيضًا أسبابُهم التي لا تستطيع الآلهةُ في عليائِها إدراكَها يا سيدَ الأبديةِ.. سأمضي في طريقي للنهايةِ مهما حدث متحمِّلًا كلَّ العواقبِ..

بتحذيرٍ مَنْ بدأَ ينفذُ صبرُه أشار "حورس" نحونا وكأنه يُذكِّرُ "تحتمس" بشيء لعلَّه يفيق من تجديفِه المرعبِ هذا:

• ولكن ما ذنبُ هؤلاء الأبرياءِ الذين ستحلُّ عليهم اللعنةُ بسببِ عصيانِك وتجديفِك..؟!

وكأنه لم يسمع شيئًا ولا يرى أحدًا سوى نفسِه واصلَ "تحتمس" تحدّيه:

- لم أسمع عن آلهةٍ تعذب أبرياءَ بذنبٍ لم يقترفوه يا سيّدَ السماءِ..!

- زِنْ جيدًا كلَّ كلمةٍ ستخرج من فمِك وفكّرْ في العواقبِ التي لا قِبَلِ لك بها على الإطلاقِ يا "تحتمس"..

- هل نزلت الآلهةُ من عليائها وأصبحت ندًّا لبني البشرِ..!

بغضبٍ وهو يطرقُ الأرضَ يصولجانِه مُحدِثًا هِزَّةً خفيفةً تحت أقدامِنا، وكأنه يريد أن يُذَكِّرَ هذا الغافلَ المتحدّي له في إصرارٍ على العصيانِ أنه يستطيع أن يفنيَه من على وجهِ الأرضِ في طرفةِ عينٍ:

- الآلهةُ لا تسعى وراءَ شيءٍ، ولكن يسعى بنو البشرِ وراءها ويأتي إليها كلُّ ما تريد.. من أيّ كائنٍ ما كان..أطع أمري أهبْك حياةً لا شقاءَ ولا نصبَ فيها ومُلكًا لا يزول..

- ليت البشرَ يعرفون أنهم يمتلكون القدرةَ على نفضِ الخوفِ من قلوبِهم..! وإنَّ الهلاك في سبيلِ تحقيقِ حلمٍ ما حتى ولو كان مخاطرةً أفضلُ آلاف المراتِ من العيشِ الهانئِ في محرابِ الطاعةِ العمياءِ المخضَّبةِ بالذُّلِ والخضوع..!.

وبمجردِ أن أتمَّ "تحتمس" كلماتِه الأخيرةَ فوجئْنا بِـ"حورس" كما ظهر من العدمِ كذلك اختفى في طرفةِ عينٍ وكأننا كنا في حلمٍ ولم يكن ما حدث وأبصرتْه عيونُنا وسمعتْه آذننا واقعًا.

رأيتُ جمراتِ النارِ مشتعلةً في عينِ"تحتمس" من شدةِ الحنقِ والغضبِ.

لم يترك القائدُ "مين" لِـ"تحتمس" الفرصةَ حتى تنتهي نوبةُ غضبِه؛ فعاجله بكلِّ ثقةٍ مدفوعًا بأنَّ رأيَ الآلهةِ التسعةَ قد جاء متوافقًا مع رأيه فقال:

- لا فائدةَ من العنادِ والتمسكِ بموقفِك يا مولاي؛ فلقد قالت الآلهةُ كلمتَها الأخيرةَ وقُضي الأمرُ..

- ولقد قلت أنا الآخرُ كلمتي الأخيرةَ في وجهِ مبعوثِ الآلهةِ..

- هل تريدنا أن نعصيَ الآلهةَ ونطيعَ أوامرك.. هل من عاقلٍ يمكن له أن يتَّبِعَ مشيئتَك التي تُخالف مشيئةَ الآلهةِ.. تلك إذن خطيئةٌ لا تغتفر أبدًا..

نظر"تحتمس" نحوَ "مين" وكلُّ خليةٍ في جسدِه ترتعد من الغضبِ لهذا العصيانِ الواضح وتلك النبرةِ المتحدِّيةِ التي يخاطبه بها قائدُ الجيشِ وكأنه نسيَ أنه منذ لحظاتٍ تحدَّى هو أعظمَ الآلهةِ وأكثرَها تقديسًا لدى المصريين

الإلهَ المحبوبَ "حورس" فأسرع الحكيمُ "تيموس" بالتدخلِ خوفًا من ردَّةِ فعلِ "تحتمس" التي حتمًا ستكون مرعبةً ناحيةَ "مين" فقال:

• ما يقصده القائدُ "مين" أننا لا قِبَلَ لنا بمواجهةِ الآلهةِ يا بُنيَّ، حتى وإن كانت مخطئةً في حكمِها، فنحن لا نملك سوى الامتثالِ لأوامرِها لنتجنَّبَ غضبَها، فأرجو منك أن لَّا تحملَك ثورةُ غضبِك لتُلقيَ بنفسِك وبجيشك إلى التهلكةِ..

• يا لكم من جبناء..! هل تحبون الحياةَ إلى هذا الحدِّ الذي يثير الاشمئزازَ..؟ هل فقدتم كلَّ قدرةٍ لكم على التحررِ من قيودِكم الباليةِ وأوهامِكم العقيمةِ تلك..؟ هل تصلَّبت عقولُكم للحدِّ الذي يمنعُكم حتى من التفكيرِ في أنَّ الموتَ في سبيلِ حلمٍ لم يحققه أحدٌ من قبلُ هو أشرفُ آلافَ المراتِ من أيِّ شيء في الوجود..! ليتكم تنسحبون الآن من دائرةِ الحياةِ من تلقاءِ أنفسِكم؛ لأنّي أعتقد أنه إذا شاخَ طموحُ المرءِ إلى هذا الحدِّ فالأفضلُ له أن ينسحبَ بكرامةٍ وأن لَّا يظلَّ جاثمًا فوق أحلامِ الآخرين،،

فصمت الجميع خشيةَ أن يبتلعَ هذا الإعصارُ في طريقِه أيَّ شيء.. فوقف وهو يفتح ذراعيه وكأنه سيطبقُبهما على الدنيا ويُهشِّمُها، ورفع رأسَه عاليًا إلى السماءِ وأرعدَ بصوته الجهوريِّ المرعبِ قائلًا:

• لن أستسلم لمشيئةِ أحدٍ، حتى ولو كانت مشيئةً إلهيةً..!"حورس" ابن "أوزوريس" الإلهُ الساحقُ المنتقمُ لأبيه الذي يدَّعي أنه قاهرٌ قُوَى الشرِّ

يأمرني أن أترك لقُوَى الظلامِ الفرصةَ لتنمو وتزدهرُ حتى تصيرَ وحشًا ضاريًا يُهدِّدُ مصرَ ويجعلُها وليمةً سائغةً على مائدتِه.. يا لهُ من إلهٍ ماجنٍ مخادعٍ.. أيتها الآلهةُ العمياءُ الصماءُ الخصبةُ بالغباءِ، اللعنةُ عليكم وعلى"حورس" ولسوف أُكملُ طريقي للنهايةِ شئتم أم أبيتم..

فهرول "ماحو" قائدُ العجلاتِ الحربية نحوَ"تحتمس" وخرَّ على وجهِه يُقبِّلُ قدميه ويرجوه ويتوسَّلُ إليه أن يُصغي لما أراده "حورس" حفاظًا على حياتنا جميعًا، فما كان من "تحتمس" إلَّا أن هوى بالصولجانِ الذي كان يحملُه في يدِه فشقَّ رأسَه فوقعَ "ماحو" على الأرضِ وانسابتِ الدماءُ بين قدمَي "تحتمس"ساعتَها أدركنا جميعًا أنَّ "تحتمس" قد فقد عقلَه أو للحقِّ نحن الذين كنا غيرَ مستوعبين لفكرِه ولا لغاياتِ حلمِه الذي أراد أن يسبق به عصرَه؛ فإلى أن يفنى البشرُ وتقرر الآلهةُ التخلَّصَ منهم نهائيًا بعد أن تصلَ شرورهم إلى المدى الذي لا يحتمل مثلما فعلت مع البشرِ في مدينةِ الأرواحِ المعذبةِ إلى أن يحينَ هذا الوقتُ سيظلُّ "تحتمس" الإنسانَ الأولَ الذي أقام إمبراطوريةً وسيقترن اسمُ "تحتمس" دائمًا بكونِه أبا الإمبراطورياتِ ومؤسسَها ومكتشفَها، وإنه في سبيلِ الوصولِ لهدفه ولحلمِه الذي ظننا جميعًا أنه مستحيلٌ وضع الرجلُ أيَّ مخاطرَ من الممكنِ أن تكونَ عقبةً في طريقِه تحتَ قدميه يدهَسُها دهسًا..! ورفض الانصياعَ لمشيئةِ أحدٍ حتى الآلهةِ نفسِها..! ياله من رجلٍ مرعبٍ بحقٍّ.. إنه بالنسبةِ لي رجلُ آلافِ السنينِ.

ساد الخيمةَ صمتٌ مطبقٌ لا يُسمع فيه سوى صوتُ أنفاسِ القائدِ "ماحو" التي تُشبهُ خوارَ الثورِ بعد أن يُذبحَ وهو يلفظُ أنفاسَه الأخيرةَ.

❊ ❊ ❊

أخيرًا انفجر الوضع.. لم يتأخر ردُّ الآلهةِ؛ فبينما نحن ما زلنا غيرَ مستوعبين ما حدث بدايةً من ظهور "حورس" مبعوثِ الآلهةِ بهيئةٍ بشريةٍ؛ نهايةً بجسدِ "ماحو" الممدِ أمامنا وكأنه تمثالٌ كان يقف شامخًا على مداخلِ أحدِ المعابدِ، فوقع صريعًا..وإذا بنا ننتبه على أصواتٍ مرعبةٍ لم نسمع بها من قبلُ فاندفعنا بفعلِ الرعبِ الذي احتل عقولنا؛ لنرى ما مصدرُ هذه الأصواتِ التي كانت أقوى مئاتِ المراتِ من الرعدِ وأحدَّ من صوتِ الأعاصير.. صوتٌ يُخيَّل لك أنَّ السماءَ قد تداعت أركانُها وهي تترنح وتستعد للسقوط فوقَ رؤوسنا.. وبمجردِ أنْ لفظتْنا الخيمةُ الملكية ناحيةَ سهلِ"مجدو"حتى رأينا الرجالَ وهم جميعًا يقفون في السهلِ الفسيح وهم يدورون حولَ أنفسَهم في حركاتٍ دائريةٍ هيستريةٍ مرعبةٍ غيرَ مستوعبين ما يحدث من حولِهم وما هي إلا لحظاتٌ وأظلمت السماءُ تمامًا بفعل الطيورِ التي حجبت أشعَّةَ الشمسِ.. كانت طيورًا مرعبةً؛ فهي ليست كأيِّ طائرٍ من الممكن أن تتخيله، ولكنها كانت طيورًا نصفُها على هيئةِ جسدِ إنسانٍ والنصفُ الآخرُ على هيئةِ طائرٍ.. أجسادُهم ذهبيةُ اللون ووجوهُهم بيضٌ وأجنحتُهم حمراءُ كبيرةٌ يبلغ طولُها ضعفَ حجمِ أجسادِهم، وبمجرد أن رأى

الجنودُ تلك الطيورَ المرعبةَ انطلق كلٌّ منهم مهرولًا بحثًا عن مهربٍ من هذا الرعبِ المحلقِ فوق رؤوسنا.

أرسلت إلينا الآلهةُ هذه الموجَةَ من اللعناتِ عقابًا على تجديفِه المرعبِ عندما بصق في وجهِ "حورس" بعصيانِه المملوءِ بالأملء والحلمِ، والشجاعة؛ رغم أنَّ هذه اللعبةَ الوحشيةَ المدمرةَ لم تستمرَّ سوى دقائقَ، ولكنَّ نتائجَها كانت كارثيةً.. حاولتُ استيعابَ شيئًا مما يحدث، ولكنَّ القدرةَ على التفكير في مثل هذا الموقف أصبح مستحيلًا.. لم أستطِع استيعابَ شيء إلا أنَّ ما وصلتْ إليه الأمورُ كان شيئًا محتومًا.

يطوف بي شعورٌ بأنَّ الاسترسالَ في هذه الحادثةِ عبءٌ لا قِبلَ لي به؛ فكلما تذكرتُ أجسادَ الرجال وهي ممددةٌ على الأرضِ محنطةً دون أنْ تُقامَ لها طقوسُ التحنيطِ ودون أن يتدخل أيُّ كاهنٍ للقيام بهذه المهمة يصيبني رعبٌ لم أستطع أنْ أتخلَّص منه حتى بعد مرورِ كلِّ هذه السنواتِ..! أعدادٌ كبيرةٌ من جيش "تحتمس" جنودُه وضباطُه وقادتُه حتى "كن آمون" وكهنتُه والحكيمُ "تيموس" أراهم الآن ممددين على الأرضِ متيبِّسِين كعودِ حطبٍ تصلَّب بفعلِ لهيبِ الشمسِ الحارقةِ.. الجميعُ أصابته اللعنةُ لم يُستثْنَ منهم إلا ثلاثةُ أشخاصٍ ظلوا واقفين على أقدامهم.. كان الثلاثةُ المستثنَوْن من هذه اللعنةِ ولا أعلم لماذا كنت أنا أحدَهم..؟ أما الاثنان الآخران فكانا "تحتمس" و"سات" وقف ثلاثتنا غيرَ مصدقين ما نراه أمامنا من مشهدٍ لا تستطيع أعتى حوادثِ الدهر أن تمحوه من ذاكرتك..! وبعد لحظاتٍ أفقنا من حالةِ الرعبِ التي أمامنا على صرخاتِ الرجالِ المدويةِ الذين كانوا قد

هربوا من تلك الطيورِ المرعبةِ نحوَ الغابةِ كنتُ أظنُّ أنَّ ما حدث هو أقصى شيء تفنَّنتْ فيه الآلهةُ وأبدعته؛ ليكونَ هو العذابَ.. لم أكن أتصوَّر على الإطلاقِ أنَّ هناك ما يفوق ما حدث وعندما رأينا الجنودَعائدين مرعوبين من أطرافِ الغابةِ التي دخلوها ليحتموا بها، ولكنْ ما لبثوا حتى ظهرت من خلفِهم مجموعةٌ من الأفيالِ الضخمة، ولكنها ليست كالأفيالِ التي اعتدنا رؤيتَها؛ فلقد كانت أكبرَ حجمًا بكثيرٍ..تُحدِثُ حركتُها اهتزازتٍ عنيفةً للإرضِ تحت أقدامنا وتخرج من خراطيمِها نارٌ لم أرَ مثلها من قبلُ.. كانت نيرانًا لها القدرةُ على إذابةِ أيّ شيء تطوله كانت نيرانٌ قادمةً من أعماقِ الجحيمِ؛ لتقضي على بقيةِ الرجالِ الذين ظنُّوا أنهم قد فرُّوا من الطيور المرعبةِ ليلقَوا مصيرًا أبشعَ ونهايةً أشدَّ عذابًا من نهايةِ من سبقوهم.

ساد الوادي صمتٌ مطبقٌ.. صمتٌ برائحةِ الموتِ، وتملك كلَّ زوايا المكانِ الظلامِ، والحزنُ يكاد يشطرني لنصفين يحصدني يأكل مني.. يا كلَّ مَن على سطحِ هذه الأرضِ اجتنبوا هذه اللحظةَ المرعبةَ اعملوا ما استطعتم كي لا يرى أحدُكم ذلك الجنونَ..! أيها الأحياءُ استمعوا إلى صوتي القادمِ من أعماقِ الزمن: إنَّ كلَّ شيء –عدا الموت- باطلٌ؛ فلا تُجهِدوا أنفسكم كثيرًا أيها الأحياءُ المُجدُّون؛ فالهدفُ الحقيقيُّ الوحيدُ لهذه الحياةِ الكريهةِ هو تحقيقُ شيء فيها -أي شيء مهما كان- إلا أن يكونَ أحدُكم سببًا في قتلِ غيرِه. فالقتلُ شيءٌ بشعٌ بحقٍّ صدقوني.

وفجأةً انتشلنا مما نحن فيه من ذهولٍ ورعب صوتٌ أجشُّ، صوتٌ ساحرٌ، يأتي من داخلِ الخيمةِ الملكيةِ فعدنا مسرعين للخيمةِ لنرى من صاحبِ هذا الصوت.

وبمجردِ أن دخلنا للخيمةِ حتى أشرَقت من وجهِ "سات" ابتسامةٌ لم أرَ أعذبَ ولا أجملَ منها في حياتي، وكأنَّها قد تناست كلَّ الرعبّ الذي كان يحملُها من على الأرضِ، وكيف أنها من فرطِ الخوفِ الإنسانيّ الذي ملأها قد نشبت أظافرُها في ذراعي وهي تقف تشاهد حفلةَ العذابِ التي أُقيمت على شرفِ تجديفِ "تحتمس" وتحدّيه لرغباتِ الآلهةِ.. وقفت مذهولًا مما أرى أمامي: إنه الإلهُ "تحوت" الإلهُ المجلَّل بالأسرارِ، المتمرسُ بالمعرفةِ، إلهُ القمرِ، والمتصرفُ في شئون الأرضِ بعد صعود "رع" للسماءِ.. أحدِ أعظمِ أربابِ "ثامون الأشمونين" الكونيّ.. بكاملِ هيئتِه الإلهيةِ فرأسُه كانت على هيئةِ طائرِ "أبو منجل" ويمسك في يده اليمنى صولجانَ الحقيقةِ وفي يده اليسرى يقبض بها على مفتاحِ الحياةِ.. "تحوت" الذي وُلِدَ من قلبِ "رع" الذي يُعتَبرُ الإلَهَ الوسيطَ بين آلهةِ الخيرِ والشر والذي عاصر ثلاثةَ صراعاتٍ بين قُوى الخيرِ وقُوى الشرّ حيث شهد الصراعَ بين "رع وأبيب" ثم شهد الصراعَ بين "حيرو-بيخوتت وست" وأخيرًا شهد الصراعَ بين "حورس" ابن "أوزوريس" و"ست" وفي كلّ الصراعاتِ كان الإله الأولُ يمثّلُ النظامَ في الكونِ، أما الثاني يمثلُ قُوى العشوائيةِ التي تريد أن تقضي على النظامِ في الكونِ وكانت مهمةُ "تحوت" ألا يغلبَ أحدُهم الأخر.

تقدمت "سات" مسرعةً وخرَّت على ركبتيها أمام معبودِها الذي كانت تحمل هي أسرارَ طقوسِه المقدسةِ فوضع مفتاحَ الحياةِ على رأسِها؛ وكأنه يباركها ويعلن رضائَه التامَّ عنها.. رفع "تحوت" رأسَ "سات" ونظر مباشرةً إلى عينيها قائلًا:

• لكِ نفسُ عينَي "ماعت" لا داعي لكلِّ هذا الخوفِ الذي يملأُ قلبكِ النقيَّ يا ابنتي..

ردت وهي تضع عينيها في الأرضِ ولم تستطع أن تتمالكَ دموعَها التي سقطت عند قدمَي "تحوت" قائلةً والحزنُ يعتصرها:

• كيف لي هذا يا مولاي ورائحةُ الموتِ تزكم الأنوفَ وتحصدُ آلافَ الأرواحِ البريئةِ..؟!

لم يجِب "تحوت" "سات" بشيء وتحرك تاركًا مكانَه متوجِّهًا ناحيةَ "تحتمس"موجهًا له كلامَه:

• ما حدث الآن يمكنُ إصلاحُه وتعودُ للرجالِ الأبرياءِ أرواحُهم إن تراجعتَ عن موقفِك المتحدِّي لرغبةِ الآلهةِ..

من أين لك بكلِّ تلك القوةِ أيها العنيدُ ؟ شعرت أني أريدُ أن أصرخَ في وجهِ "تحتمس" بتلك الكلماتِ عندما أجابَ على "تحوت" قائلًا:

• لو كنتُ أنوي التراجعَ لتراجعت منذ حدثتِ الأهوالُ التي مررتُ بها وأنا في طريقي إلى هنا، لو كنتُ أنوي التراجعَ لتراجعتُ عندما قال لي: القادةُ

إنَّ مصيرَنا الهزيمةُ المحققةُ وإنَّ النصرَ حُلمًا بعيدَ المنالِ، لو كنت أنوي التراجعَ لتراجعتُ أمام "حورس"..!

واصل "تحوت" تحرَّكه داخل الخيمةِ ووضعَ يدَه على صدري وكأنَّه علِمَ ما كنتُ أحمله من غضبٍ مدوٍّ عاصفٍ نحوَ"تحتمس" وعندما لامستْ يدُه صدري سكنت عاصفةُ الغضبِ بداخلي تمامًا فأستعدتُ جزءًا كبيرًا من عقلي الذي عصفَتْ به الأحداثُ المتوالية التي لا يقدرُ أيُّ عاقلٍ مهما كان استيعابُه على تحملِ تلك الدفقاتِ الهائلةِ والمرعبةِ منها، وهي التي تخطَّت المدى الحسيَّ المعروفَ لدينا نحن بني البشرِ.. تلك الأحداثُ التي اختلط فيها المستحيلُ بالممكنِ والحقيقةُ بالخيالِ وسقطت أستارُ الغيبِ ونزلت آلهةُ السماءِ من عليائها؛ لتتحدثَ إلينا مباشرةً دون حجابٍ أو وسيط.

تركني "تحوت" وواصل تجوُّلَه في الخيمةِ حتى وصلَ أمام أسدِ "تحتمس" الذي أصابته هو الأخرَ اللعنةُ فتيبَّسَ كتمثالٍ من الشمعِ، وبدأ في النظرِ إليه يتفحَّصُه دونَ أنْ يلتفتَ "تحوت" إلينا ووجَّه كلامَه لـ "تحتمس":

- لماذا كلُّ هذا الإصرارِ والعنادِ يا "تحتمس"..؟

وبكلِّ هدوءٍ أجاب "تحتمس"

- لأنَّ لديَّ حلمًا أريد تحقيقَه..

بنظرةٍ فيها لمعانٌ وبريقٌ عجيبٌ قال "تحوت":

• إلى هذا الحدِّ رؤياك منذ صغرِكَ ماثلةُ الوجودِ أمامك لا تفارقُك.. حتى وأنت تحت أقدامِ الخيلِ تمسح روثَها.. بأنك ستملك العالمَ.. أوَ لم يدُرْ ببالِك ولو لمرةٍ واحدةٍ أنَّ كلَّ الأحلامِ ليست قابلةً؛ لتصيرَ واقعًا وستبقى أحلامًا فقط..؟!

بثقةٍ لا ينازعها أدنى تردُّدٍ أجاب "تحتمس" قائلًا:

• هل يستطيع أحدٌ أن يفلت من قبضةِ القدرِ..؟ وقدري أن يصبحَ حلمي واقعًا أراه ماثلًا أمامي كما أراك الآن يا سيِّدَ السماءِ..

اتخذت نبرةُ "تحوت" صيغةَ التحذيرِ قائلًا:

• ولكنْ لكلِّ شيء ثمن..! فالحياةُ لا تعطي بلا مقابلٍ ولا تمنح شيئًا من دونِ أنْ تأخذَ مقابلَه أشياءَ.. فهل أنتَ مستعدٌّ لدفعِ ثمنِ ما ستحصل عليه..؟

ودون ترددٍ انطلق "تحتمس" ناحيتَه كالفيضان:

• مستعدٌّ بلا أدنى شكٍّ..

• من الواجبِ أن تعرفَ أولًا قبل أن تجيبَ؛ فمن الجائزِ أن يكونَ ما ستدفعُه فوق طاقتِك، ولن تستطيع احتمالَه..!إنك مهما توهَّمتَ القوةَ والعظمةَ فأنت في النهايةِ من بني البشرِ، والبشرُ مهما حاولوا تصنُّعَ القوةِ فإنَّ لهم قدرةً على الاحتمالِ..

• لو لم تعرف أني أستطيع تحمُّلَ أيِّ شيءٍ لَمَا كنتُ هنا من الأصلِ يا رمزَ الحكمةِ والوقارِ، العارف والمتمرسُ في المعرفة..

بصيغةِ مَن يحذرُ للمرةِ الأخيرةِ.. لذلك كان "تحوت" حريصًا على أن تخرجَ كلُّ كلمةٍ منه واضحةً للغايةِ فقال:

• ليكنْ معلومًا لديك أنَّ الآلهةَ التسعةَ يرفضون رفضًا قاطعًا تلك الخطوةَ، ولكني بحكمِ أني أنا الذي فصل بين الآلهةِ وأنهيتُ الصراعَ، أنا الخالي من الذنوبِ، والموكَّلِ بشئونِ الأرضِ وبتصريفِ شئونِ البشرِ، أعرف جيدًا طباعَ جنسِكم.. وليكنْ معلومًا لديك أن لَّا أحدَ يستعصي على الزمانِ، ولكن لكي تندفعَ عجلةُ الزمانِ للأمام لابدَّ من أنْ يأتيَ في كلِّ عصرٍ بين بني البشرِ مَن هم من أمثالِك؛ فمع كلِّ زمانٍ يتواجد رجالٌ لا يُشبهون زمانهم.. هؤلاءهم من يُفجِّرون الفيضانَ ليأتيَ بالجديدُ، ولكنَّ التغييرَ عمليةٌ غايةٌ في الصعوبةِ والخطورةِ أيضًا؛ لأنَّما سيكون بعدها سيفتح البابَ أمام اللاحقين للمضيِّ أبعدَ مما وصلَ إليه مَن سبقهم مدفوعين بالحلمِ الذي هو أعظمُ هبةٍ مُنحتْ لكم بني البشرِ، ولكنكم للأسفِ تستخدمونها دائمًا فيما يضرُّكم.. إنكم كالأطفالِ مصابين بهَوَسِ التحطيمِ؛ فلو وظَّفتم تلك الهبةَ في الخيرِ كما تُوظِّفونَها في الشرِّ لجعلتم أرضَكم فردوسًا تحيون فيه جميعًا بسلامٍ، فهذه الأرضُ هي الأمُّ وأنتم أبناؤها وهي تسعُكم جميعًا، ولكنكم عن حقٍّ تُحبُّون الشرَّ وتكرهون البراءةَ والطيبةَ بل تعتبرونها شيئًا مقززًا.. إنكم مرضى بِحُبِّ الامتلاك والأنانيةِ وأحلامِ السيطرةِ والعظمةِ التي تتملككم.. وللحقيقةِ هذا المرضُ الخبيثُ بداخلكم استعصَى على العلاجِ

بصورةٍ مطلقةٍ.. ذلك هو ما جعلكم تعيشون هذا الكمَّ الهائلَ من البؤسِ والشقاء تتصارعون بلا رحمةٍ أو ندمٍ..

بتوسلٍ مَن لا يبدو عليه أنه ينوي التراجعَ أبدًا تقدَّمَ "تحتمس" حتى وقف أمام "تحوت":

- يا نجمَ السماءِ وسيدَها مهّدْ لِيَ الطريقَ لأحققَ ما أريد..

صمت "تحوت" قليلًا وهو يدور بيننا بعينيه التي توقَّفتْ في النهايةِ عند "تحتمس" وواصل:

- يجب أن تعلموا أولًا أنَّ ما رأيتموه يحدث أمامكم منذ قليلٍ ما هو إلا أشياءُ بسيطةٌ لِمَا سيحدثُ بعدكم بقرونٍ ليست بعيدةً، فأبناءُ جنسِكم سيصنعون من وسائلِ القتلِ والفتكِ ما هو أعظمُ وأكبر مما رأيتم الآنَ بكثيرٍ.. أعلم جيدًا أنك إن حققتَ ما تريد ستراقُ بسببك أنهارٌ من الدماءِ؛ لأنَّ كثيرًا من الطغاةِ الحالمين بالسيطرةِ والتوسعِ سيأتون بعدك يحلمون بالوصولِ إلى أبعدَ مما وصلتَ إليه أنت، وستكون كلُّ قطرةِ دمٍ معلقةً في عنقِك.. تلعنك إلى الأبدِ.. هل ستتحمل هذا العبءَ يا "تحتمس"..؟

فصمت "تحتمس" ولاحت في عينيه أخيرًا نظرةُ الوجلِ والترددِ، أخيرًا يا مَن أخذتَ الشمسَ من وجهِ السماءِ، ويا من سلبتَ في رحلةِ مطاردةِ حلمِك المجنونِ كلَّ شيء جميلٍ في قلوبِ مَنِ اتَّبعوك.. أخيرًا تشعر بالخوفِ مثلنا..! ولكنْ سريعا خاب ظنّي عندما اعتقدتُ أنه سيتراجع فيبدو أنه لا شيء سيؤثّرُ فيه أو يمنعه عن مواصلةِ طريقِه للنهايةِ، فكانت إجابتُه الصادمةُ:

• من العارِ أنْ أتراجعَ الآن بعدَ كلِّ تلك المعاناةِ والأهوالِ.. سأكملُ مهما كانتِ العواقبُ..

ابتسم "تحوت" ابتسامةَ مَن كان يعرف أنَّ هذا هو ما ستؤول إليه الأمورُ، فترك "تحتمس" وتوجَّه ناحيتي فأحسستُ بقبضةِ الخوفِ تسحقني عندما خاطبني قائلًا:

• الآن جاء دورُك يا صانعَ الكتانِ.. حانت لحظةُ الإجابةِ عن السؤالِ الذي ظل يؤرِّقُك: لماذا تمَّ اختيارُك منذ البدايةِ للمشاركةِ في تلك المهمةِ التي لا قِبَلَ لك بها..؟

أحسست أنَّ مرارةَ آلامِ الدنيا أتجرَّعُها وحدي دون شريكٍ، وتوجَّهتُ بكلِّ حواسِّي ناحيةَ "تحوت" في انتظارِ إجابةِ ذلك السؤالِ الذي بسببِه حملتُ جبالًا من الآلامِ سدَّتْ العالمَ أمامي، فواصل قائلًا:

• عندما اطَّلعتُ على قلوبِ الرجالِ في "تانيس" لم أجد أرقَّ من قلبِك..

فقلتُ وأنا أُعتَصَرُ من الألم.

• وهل هذا ذنبُ أصحابِ القلوبِ البريئةِ الذين لا يحتملونَ كلَّ تلك الأهوالِ..؟ هل من العدل أن يظلوا يُعذَّبون دون ذنبٍ اقترفوه..

ودون أن يجيبَ على سؤالي أخرج خنجرًا وقدَّمَه ناحيتي.. كان خنجرًا مقبضُه من الفضةِ.. له نصلٌ كبيرٌ حادٌّ معقوفٌ من المقدمةِ.. كان خنجرًا

شكلُه يدعو إلى الرغبةِ في إراقةِ الدماءِ التي ستسيلُ على نصله بكلِّ سلاسةٍ ودونَ أيِّ عناءٍ يُذكر..! وقرَّب خنجرَه مني فانتابَني الفزعُ والخوفُ الشديدانِ، ولم أفهم ماذا يريد مني الإلهُ "تحوت" أن أفعلَ بالتحديدِ؛ فأعفاني من تلك الحيرةِ قائلًا:

• باستطاعتك أنت.. أن تُوقفَ كلَّ هذا الجنونِ الذي سيجتاح عالمَكم يا "حور".

سألته بتعجبٍ شديدٍ:

• كيف..؟!

فأجاب:

• بأن تغرسَ نصلَ هذا الخنجرِ في قلبِه..

وأشار إلى "تحتمس".

وقف الكائنُ البائسُ المبهورُ بالخوفِ المسمَّى "حور" كطفلٍ حديثِ الولادةِ لا يقوى على فعلِ أو قولِ أيِّ شيء..وددت من كلِّ قلبي أنْ أغرسَ هذا الخنجرَ في قلبي أنا مراتٍ ومراتٍ كي أفارقَ تلك الحياةَ على الفورِ. فخفضتُ رأسي للأرض معلنًا عدمَ قدرتي على فعلِ هذا الشيء البشعِ الذي طلبَه مني "تحوت" فقال وكأنه يزفُّ إليَّ خبرَ فناءِ العالمِ:

-سيأتي بعدك على مرِّ العصورِ من هم أرقُّ قلبًا منك وسيكونون شاهدين على أهوالٍ أعظمَ مما رأيتَها، ستتألمون كثيرًا وستكون آلامُكم

المُعذِّبَةُ لأرواحِكم ليلَ نهارٍ، بسببِ أنكم تركتم أصحابَ القلوبِ الغليظةِ يسيطرون عليكم ويتحكمون في مصائركم على حينِ أنَّكم وقفتم صامتين، فعقابًا لكم يجب أن تدمَى قلوبُكم التي تركت تلك القلوبَ التي قُدَّتْ من الصخرِ لتسودَ عليكم..!

وتركني "تحوت" وتحرك حاملًا الخنجرَ ناحيةَ "تحتمس" قائلًا له:

• إنْ أردتَ تحقيقَ حلمِك واستعادةِ جيشِك وكأنَّ شيئًا لم يحدث، فلتغرس هذا الخنجرَ في قلبِها:

وبمجردِ أنْ وصلت لمسامعي تلك الكلمةُ توجَّهتُ بعينَيَّ كالبرقِ ناحيةَ "سات" تساءل "تحتمس" وهو ينظر إليها غيرَ مستوعبٍ:

• ولماذا أقتلها..؟!

بهدوءٍ شديدٍ أجاب "تحوت":

• لأنه لم يعد للانقياءِ مكانٌ بينكم يا أبناءَ البشرِ بعد اليومِ..

وبسرعةٍ انطلقتُ لأقفَ أمام "سات" لأحميَها.. كنتُ في تلك اللحظةِ عازمًا على حمايتِها من كلِّ شيء وأيِّ شيء حتى ولو كانت كلُّ آلهةِ السماءِ مُجتمعةً..! ولكنني فوجئتُ بها وهي تتحرك لتقفَ أمامي وعيناها الصافيتان اللتان تُشعَّانِ براءةً مصوبةً إليَّ قائلةً:

• لا تقف في وجهِ القدرِ؛ فكلُّ ما حدث كان مُقدَّرًا له أنْ يحدثَ، وما نحن إلا أدواتٌ لتحقيقِ تلك المشيئةِ.. سيجمعُنا عالمٌ آخرُ.. عالمٌ بكلِّ

تأكيدٍ سيكون أجملَ حيث الملذاتُ اللا نهائية.. صدقني يا حبيبَ القلبِ لقد سئمتُ الحياةِ، سئمتُ الشرورَ والأبخرةَ الفاسدةَ التي تتصاعد من كلِّ مكانٍ.. أشتاق بشدةٍ لعالمٍ متجدد.. لآفاقٍ بلا نهايةٍ يسبح فيها القلبُ بلا وجعٍ أو ألمٍ.. عاهدني ألَّا تحمِلَ له كراهيةً؛ فهو مدفوعٌ بحكمِ القوةِ القاهرةِ للحلمِ.. أريد أن تأتيَني بقلبِ الطفلِ الذي عشقتُه.. لا تلوِّثْه بالكراهيةِ أبدًا مهما حدث.. عاهدني أيضًا أن تتخذ لك زوجةً بعد عودتك سالمًا إلى وادي النيلِ؛ ليكونَ لك ولدٌ يحمل بعضًا من نقاءِ قلبك ورهافةِ روحك.. سأزورك في أحلامِك وسأترك لك حريةَ أن تتخيلني كما تريد كما حدثَ في أولِ ليلةٍ لنا هنا في تلك البرّيةِ الخضراءِ لنتحدَّ مثل معزوفةٍ لن يسمعَ أنغامَها سوى أنا وأنت يا صانعَ الكتانِ وحبيبَ آخرِ الأنقياءِ..

وتركتني واقتربت من الوحشِ الذي وقف مستعدًّا لافتراسِها، ولأولِ مرةٍ في حياتي أرى فريسةً تبتسم لمفترسِها وأرى الوحشَ وعيناه تقطر بالدموعِ حينَ أوشك على طعنِ فريستِه التي أسلمتَله جسدَها؛ لينفُذَ إليها الخنجرُ الذي يحملُه لتسقطَ "سات" مُسْلِمَةً روحَها منطلقةً بها إلى العالمِ الذي اشتاقت له.. ليحملها "تحوت" بين ذراعيه كقطَّةٍ وديعةٍ بريئةٍ لا مكانَ لها في عالمٍ مليءٍ بالضواري والوحوشِ المفترسةِ إلى العالمِ السماويّ حيثُ القلبُ هناك يسبحُ في فضاءٍ لم يُدنِّسْه إنسان.

❊ ❊ ❊

انتفض الأسدُ من تيبُّسِه وعاد الضوءُ ليغمرَ الخيمةَ، ويدخلَ القائدُ "ماحو" مندفعًا والقائدُ "مين" اللذان عادا للحياةِ مرةً أخرى، وكأنَّ شيئًا لم يحدث ليخبرا جلالةَ الفرعونِ "تحتمس" أنَّ وفدًا من "مجدو" قد جاؤوا لطلبِ لقاءِ جلالتِه لإعلانِ الاستسلامِ والخضوعِ النهائيِّ له.

وقف "تحتمس" وهو يحاول منعَ دمعةٍ كبيرةٍ أوشكت على أن تنحدرَ من عينيه وهو ينظر إليَّ كأنه يقدِّمُ التعزيةَ لقلبي الممزقِ.. وعلى غيرِ ما تقضي التقاليدُ في حضرةِ الفرعونِ استدرتُ وأعطيتُ له ظهري تاركًا الخيمةَ متوجِّهًا نحوَ خيمةَ "سات" لألتقطَ ثوبًا كنتُ قد صنعتُه لها وكان عبارةً عن رداءٍ خالٍ من الثنيَّاتِ ينحدر من تحتِ الثديين حتى يصلَ إلى رسغَيِ القدمين ويحملُه شريطيان يمرانِ فوق الكتفين وكان الثوبُ وحمَّالاته من اللونِ الأبيضِ يتخللُه خطوطٌ حمراءُ.. حملت الثوبَ ألتمسُ فيه رائحتَها وعيناي مثل السماءِ التي لم تعد تقوَى على حملِ السحابِ الممتلئِ بالماءِ، فقررت أن تتخلَّص من حملها الثقيلِ؛ فانفجرت بالبكاءِ.. بكيت كما لم ولن أبكيَ في حياتي على فراقِ "سات".

-١٤-

من الثور العظيم، سيد الأرضين لبني البشر.

من -خبر رع- الثورِ العظيمِ، سيد الأرضين.. فرعونِ مصرَ "تحتمس" العظيمِ الممتلئِ بالقوةِ.. إن كنتم تقرأون كلماتي الآن فهذا يعني أن "حور" قد فتح الصندوقَ الذي أخذه من الوزيرِ"آوسر آمون" وأنه قد أتمَّ مهمته التي كلفتُه بها مُعرِّضًا روحَه البريئةَ للخطرِ في رحلتِه للعالمِ الآخر.

أيها الأحياء الذين تقرأون كلماتي التي لا أعلم متى يزيح الترابُ اللثامَ عنها..؟ ومتى تلفظُ الأرضُ تلك الكلماتِ لتكونَ بين أيديكم.. ولكنني أعلم علمَ اليقينِ أنه أيًّا كان العصرُ أو الزمانُ الذي ستقرؤن فيه كلماتي فستكون صالحةً لكم؛ فالحياةُ ليست سلاسلَ متقطعةً، بل هي سلسلةٌ متَّصلةٌ برباطٍ واحدٍ أو بالأصحِّ هي ليست شيئًا ملعونًا متقطعًا، بل هي نفسُ الشيء الملعونِ الذي ينسخُ نفسَه مرارًا وتكرارًا..

لقد عرفتم الآن القصةَ كاملةً.. القصةَ التي لم تدوَّنْ على جدرانِ المعابدِ التي حتمًا ستطؤها يدُ الزمانِ في يومًا من الأيام؛ فما تبنيه الأيدي لابدَّ أن تهدمَه أيادٍ أخرى..! لذلك لن أُعيدَ أو أكرِّرَ شيئًا مما حدث ولن أدافعَ عن شيءٍ مما فعلته، فما فعلته كان عن اقتناعٍ راسخٍ ويقينٍ لا يقبل الشكَّ، ولو عاد بي الزمانُ سأفعل ما فعلته؛ لأنَّ ذلك كان قدري، ومَن منَّا يملك الهروبَ من قدره.

ذلك القدرُ الذي اختار لي أن أكونَ بلا أبٍ ولا أُمٍّ ولا أختٍ أو أخٍ.. ذلك القدرُ الذي دفعني بكلِّ قوةٍ وغشم لأصنعَ شيئًا يمكن تسميتُه بأنه شيء مختلفٌ بصورةٍ فريدةٍ عن كلِّ من سبقوني من الفراعنةِ العظامِ، وأعتقد أنَّ كثيرًا من الفراعنةِ اللاحقين سيعجزون أيضًا عن الوصولِ إلى أبعدَ مما حققتُه.. لا شكَّ أنَّ أعظمَ شرفٍ للفرعونِ أو الملكِ إنما يكمن فيما حقَّقه من إنجازٍ بدقَّةٍ لِما خطط له.. أعلم أنكم تعتقدون الآن أني رجلٌ بلا قلبٍ.. رجلٌ قاسٍي يحبُّ سفكَ الدماءِ وإخضاعَ البلادِ وإذلالَ الرقابِ، ولن أحاول الدفاعَ عن نفسي أو أُبرِّرَ لكم شيئًا؛ فلكم حريةُ اعتقادِ ما تشاؤون، ولكن ليكنْ معلومًا لديكم أنه بعد أنْ انتصرتُ في كلِّ حروبي وأخضعت الممالكَ السبعَ المتمردةَ حرصت على أن تنعمَ كلُّ تلك الممالكِ بالحريةِ في كلِّ شيء، فلم أتدخَّلَ في الشؤونِ الدينيةِ في تلك البلادِ الغريبةِ عن مصرَ؛ فكانوا يعبدون آلهتَهم الخاصةَ بهم، ولم أجبرهم على اتِّباع آلهةِ المصريين، وكنت أستدعى أبناءَ أمراءِ تلك الأقاليمِ إلى "طيبة" عاصمةِ الإمبراطوريةِ؛ ليتعلَّموا في مدارسِها ويتثقفوا بالثقافةِ المصريةِ ويحصلوا على كلِّ العلومِ النافعةِ لهم ولبلادِهم حتى إذا عادوا إلى بلادِهم وتولَّوا الحكمَ فيها أصبحوا من أتباعي المخلصين، لا يفكِّرون أبدًا في الحربِ على مصرَ التي ازدهرت التجارةُ بينها وبين تلك الممالكِ؛ لذلك عاش الجميعُ في ربوعِ المملكةِ في أمنٍ وسلامٍ كان لابد من فرضِه بقوةِ السيفِ والحرب.. الحربِ التي يمقتُها الجميعُ.. أعلم أنكم ستصابون بالدهشةِ وربما ترتسمُ على شفاهِكم ابتسامةُ تهكُّمٍ وعدمِ تصديقٍ.. إن قلتُ لكم أني أنا أيضًا أمقتُ الحربَ التي -وإن جعلتك عظيمًا في نظرِ الآخرين مهيبًا بالانتصارِ قويًا بالسلطانِ- ولكنَّها معذِّبَةٌ بلا

رحمة فسيظلُّ المنتصرُ مخنوقًا داخل غرفةٍ تشبُه كابوسًا، حيث الهواءُ الراكدُ فيه مخضَّبًا بالدماءِ معطَّرًا بالندمِ، لا بشاعةَ على الإطلاقِ تُداني بشاعةَ أن ترى في كلِّ ليلةٍ عندما تغمضُ عينيك لتنامَ تلكَ الأرواحَ التي أُزهِقتْ وهي تصرخ فيك؛ لتبثَّ في روحِك رعبًا بلا رحمةٍ.. في كلِّ ليلةٍ أرى وجوهًا أعرفُها وأخرى كثيرةً لا أعرفها تمرُّ أمامي في موكبٍ جنائزيٍّ صامتٍ بلا بدايةٍ أو نهايةٍ وفجأةً ودون مقدماتٍ بسرعةِ البرقِ تهجمُ عليَّ كلُّ تلك الأرواحِ؛ لتمزّقني بلا رحمةٍ أو هوادةٍ لتستيقظ روحُك مفزوعةً ثقيلةً كأنها تلقَّت ضربةَ مِعولٍ من عالمِ اللعناتِ السحيق..! ولا ينفكُّ يتكرر كلَّ ليلةٍ، والغريبُ أنه مع كلِّ مرةٍ تشعر وكأنك تراه لأولِ مرةٍ؛ فهو ينسخ نفسَه كلَّ ليلةٍ بطريقةٍ غريبةٍ ليجعلك تتذوق الضربةَ الآتيةَ من عالم اللعناتِ وكأنك تتلقَّاها للمرةِ الأولى وتشعر بنفس الآلم .

صدق الإله "تحوت" عندما أخبرني أن لكلِّ شيء ثمنًا؛ فالحياةُ لا تعطي بلا مقابلٍ.. وها هي الحياةُ قد أعطتني عرشًا ومُلكًا لم يكون لأحدٍ من قبلي وسيظلُّ قرونًا على ما أعتقد لن يكون لأحدٍ من بعدي، ولكن عندما وصلت إلى حافة النهايةِ اكتشفتُ أني آخرُ بني البشرِ وأكثرُهم عزلةً، والمحرومُ من كلِّ شيء فأنا لم أتذوق يومًا لذةَ الشعورِ بالحبِّ أو الدفءِ بقربِ صديقٍ أو التمتُّعِ بالنظرِ إلى الجمالِ لأكتشفَ بعد كلِّ هذا العمرِ أني بعد أن أصبحتُ أنا الفرعونَ العظيمَ سيدَ الأرضِ بلا منازعٍ وإمبراطورها الأول أصبحتُ أعيش منغلقًا على نفسي كمومياءَ في تابوتِها محرومًا من أيِّ شيء وأني أصبحت في مرتبةِ أحطِّ الحيوانات.

لا تنخدعوا أبدًا في ثوبِ الأمجادِ الزائفةِ وأحلامِ السيطرةِ المطلقة وشهوةِ النفوذِ؛ ففي النهايةِ ستجدون أنفسَكم تحت سماءِ خريفٍ قاتمٍ تنهمر منها الأحزانُ والذكرياتُ المعذبةُ؛ لتكتشف أنه من أجلِ الاستحواذِ على كلِّ شيءٍ سوف تطبع على جلدِك كلَّ تعاساتِ بني البشرِ وستعود وحدَك زاحفًا وحيدًا.. دائمًا وحيدًا في ظلماتٍ عفنةٍ؛ لتظلَّ بعدها مريضًا بمرضٍ محمومٍ لا شفاءَ منه ولا دواءَ له..! لن تعرفَ المتعةَ أبدًا للخروجِ من ذاتِك لتنسى نفسَك في الآخرين ولتمتزجَ روحَك بروحِ الآخرين.. وستظلُّ أنت ونفسَك البائسةَ منعزلين بشعورِ الخزيِ من التذكُّرِ أنك حوَّلتَ روحك البريئةَ التي وهبتك إياها الآلهةِ إلى مسخ.

-١٥-

لندن ٢ أبريل ٢٠١٥.

في مطار "هيثرو" وقف الفتى"مارك" الذي يبلغ من العمرِ أحدَ عشرَ عامًا في انتظارِ بطلتِه التي اعتاد أن يكونَ أولَ المستقبلين لها عندما تأتي لتقضي معهم بضعَ أسابيعَ، ولكنْ تلك الزيارةَ كانت مختلفةً لعدةِ أسبابٍ.. أولُها أنَّ "جيسيكا" قادمةٌ من أرضِ الألغازِ والمومياواتِ للمرةِ الأخيرةِ؛ فهي لن تعودَ إلى هناك مرةً أخرى، فتلك هي العودةُ النهائية.

وقف "مارك" بجوارِ "كرستين" أُمِّه وهو يرتدي بزَّةً سوداءَ يمسك في يدِه وردةً بيضاء؛ ليضعَها على نعشِ "جيسيكا".

وعندما أنهى موظفُ السفارةِ البريطانيةِ إجراءاتِ خروجِ النعشِ تقدَّم من "كريستين" و"مارك" ليقدِّمَ تعازيه الحارةِ لِـ"كريستين" وتعازي كلِّ أعضاءِ السفارةِ البريطانيةِ في القاهرةِ وسلَّمها التقريرَ الطبيَّ للوفاةِ المعتمدِ من السفارةِ، والذي جاء فيه أنَّ سببَ الوفاةِ المفاجئةِ لِـ"جيسيكا" كان بالسكتةِ القلبيةِ نتيجةَ هبوطٍ حادٍّ في الدورةِ الدمويةِ وهي تتفحَّص إحدى البرديادتِ التي عثرت عليها بصحبةِ إحدى المومياواتِ المجهولة.

وعند القبرِ الذي ستدفَنُ فيه "جيسيكا" وقف "مارك" وهو يتطلَّع إلى الجثمانِ المُمدَّدِ في التابوتِ الخشبيِّ أمامه، ليري على ملامحِها تعابيرُ لا يعرفها سواه..! كانت هي نفسَ التعابيرِ التي ترتسم على وجهِها عندما كانت

تقصُّ عليه إحدى قصصِ المومياواتِ التي اكتشفتها أثناءَ بحثِها وتنقيبِها.. حاول إيقافَ دموعِه التي أفلتت منه حزنًا على بطلتِه ومَثَلِه الأعلى.. ورغم أنَّ سببَ الوفاةِ يؤكّدُ بما لا يدع مجالًا للشكِّ أنَّ الوفاةِ طبيعيَّةٌ إلَّا أنَّ "مارك" كان على ثقةٍ إنَّ وفاةَ بطلتِه لم تكن أبدًا وفاةً طبيعيةً وإنَّ سببَها تلك المومياءُ الشريرةُ التي اختطفت روحَ "جيسيكا" التي لم تستطِع محاربةَ المومياءِ ولا الانتصارَ عليها كما حدث لِـ"ريتشل وايز" بطلةِ فيلمِه المفضلِ.. وهو يُحدِّثُ نفسَه أنَّه عمَّا قريبٍ سيذهب بنفسِه إلى تلك الأرضِ؛ ليقتصَّ لها من تلك المومياواتِ الملعونةِ التي تسلبُ الأرواح.

تمت

لا عجب من تمكن كاتب سيناريو محترف متحقق مثل "إسلام يوسف" من الحبكة القصصية في تلك الرواية التاريخية ؛ سردًا وحوارًا وتعليقًا ومناجاة، ولا عجب أيضًا من بنائه القصصي الذي كان في وضعه الأول قبل "التأزم" هو رفض البطلة للموت، وفي وضعه النهائي بعد "حل العقدة" هو الموت.

فمن الطبيعي لكاتب سيناريو يشار إلى تجربته الثرية بالبنان أن يصيغ الشخصيات في تنوع للأمكنة والأزمنة حتي وإن كان يتنقل فيها بين عديد من الأزمنة سواء الحقيقي منها أم الأسطوري، في تزاوج وجودي مدهش، فالأمكنة في الرواية تتحرك، والأزمنة تسرع وتبطئ وتتآكل بفعل الحلم اللعين الذي تبثه البردية المسحورة التي تحويها عقدة الرواية.

لكن تملكني العجب من الأسلوب المتلاعب بتلابيب اللغة ومفرداتها، ومن شاعرية تنشح بـ"سلامة الكلمة" و"دقة استعمالها" و"إيحاءاتها الدلالية" بأسلوب يتراوح بين الجزالة والسهولة، في تزاوج مريح يجعل تلك الرواية تصلح لأن يزاحم الهواة فيها القراء المحترفين في الاستمتاع بها .

هي رواية تفوق فيها "سحر واقعية" الحضارة المصرية القديمة الذي تترس بأحداث تاريخية صحيحة في أماكن وأطر زمنية متسقة مع الواقع التاريخي؛ على "الواقعية السحرية الروائية" .

رواية عميقة متفلسفة لم تغب عنها الأبعاد الفكرية والاجتماعية والسياسية في إطار أيديولوجي ثوري، يطرح أسئلة وجودية عن جدلية علاقة الاستبداد بتوظيف الدين عبر الوجود الإنساني؛ بأسلوب مبتكر سهل بغير سطحية، وعاطفة ثورية قوية انتصرت أحياناً على قوة الصور المركبة. وقد كان أقواها تلك الحوارات التي انحازت لفصل الدين عن الدولة.

فهذه الرواية تلخص الصراع الوجودي الدائم بين الشرق بدرة تاجه "مصر" والغرب معرفيا، وبين ما أسميته في خاتمة كتابي "النبي إدريس.. بابل- منف- دمنهور" بـ"هوية مصر الوجودية" مع هوية النسق الغربي المستشرق لحضارة مصر القديمة. فالبطلة "جيسيكا" في بداية الرواية ترفض الموت بالتخلي عن مشروعها؛ لتحيا شغفاً بحضارة قدماء المصريين وطرح الأسئلة حولها، لكنها تموت في نهاية الرواية حينما تفرغ من قراءة مجرد بردية من برديات حضارة أرسلت إليها -دون غيرها- سرًّا من أسرارها اللامتناهية.

ويأتي المشهد الفلسفي الأخير بوريث البطلة ورمز الحضارة الرقمية الغربية الجديدة "مارك" الذي يعتقد بأن مثله الأعلى القديم "جيسيكا" قُتلت على يد أرواح المومياء المصرية الشريرة، وعزمه على الذهاب بنفسه إلى تلك الأرض ليقتص من تلك المومياوات

التي تسلب الأرواح، وهو لا يدرك أن موت "جيسيكا" ما هو إلا فناء في ذات حضارة أهلكت كل من حاول فك طلاسمها، موت يدافع عن تلك الاستمرارية التاريخية للدهشة والشغف بتلك الحضارة، ويناجي الخلود لكل إنسان آمن بترنيمة وجودية سحرية للكون في محراب الحياة تتعبد بمقولات سرمدية؛ أعلاها سندًا هتاف كالذكْر، يستنطق التاريخ بمقولته الخالدة: "تحيا مصر".

كامل مصطفى رحومه

عضو اتحاد كتاب مصر،

ومؤلف كتاب "المقاهي الثقافية في العالم" وغيره.